

الزلزلة
خيبري حدّاد أبو عافية

الزلزلة / رواية
خيرى حدّاد أبو عافية
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، اش المعهد الدينى ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktoob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

إبراهيم متولى

تدقيق لغوي :

محمد أبو عوف

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٩٨٨٧

I.S.B.N: ٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٦٤- ٠

جميع الحقوق محفوظة ©

الزلزلة

رواية

خيري حدّاد أبو عافية

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الراحلة أُمِّي ..

بعدها رحلت كل المعاني الجميلة

إلى حفيدتي كرمه

كان الطريق أجرداً بلا شجرة صغيرة، والسماء عتة ليس فيها نجمة والأرض شقفاء تضربُ عجلات المركبة القديمة الهالكة بقوة وأركان العربة تضربني، ولم يكن شيء يخيفني أكثر من الرمل والصخر الكثيف على جانبي الطريق، وكان سواده في تلك الليلة يخنقني ويقبض على أنفاسي وتصوّرت أنّ شجباً سينقضُّ عليّ من بين هذه الصخور والتلال، ولم يكن في الأفق أمامي أية رحابة، وشعرت بأنني في مستنقع أمامي وخلفي وليل مقبض لا ينتهي.. وشعرت برعشة وبأنّ خلاءً بدأ أمامي، وبعد ساعة كاملة من السير المطبق في سواده كان ضياءً باهتاً ييزغ من بعيد ويزداد حمرة في ثلاث نقاط على يميني وكأنّ بؤراً من النيران تتعلق بأفق السماء الشاهق، وظهر سياج من الحجارة الضخمة تبرز على جانبي الطريق - سياج مرصوفة بيد البدو.. منكوشة .. مكسورة.. متقطعة.. كأنّ أناساً أقاموها ليختفوا خلفها ويرقبوا الطريق، وكانت قبصات النار المحفورة في الأرض قد خمدت نيرانها من ليلة ماضية أشعلها البدو لما اشتد البرد عليهم كصقيع يلسع أجسادهم، وكان البدو يرتحلون من بقعة لأخرى، وهم يقاومون رجالاً هبطوا عليهم فجأة ليرعوا منهم أرضهم وبيوتهم، قوم ليسوا منهم، إنهم مجموعات من

الخونة من قرى كثيرة، وبلاد من الجنوب والشمال تدرّبوا على النهب والسمسرة وتجريد الناس من أملاكهم وبيعها ثم التنكيل بهم، وكانت السياج التي أقاموها لا تستطيع حمايتهم من بؤس وبطش الجبارين، وكان الطريق إلى مدينة صناعية يمتد بقضبانه الحديدية وسط بيوت وأملاك البدو، ولكنهم قطعوه، ولم يعد القطار الذي يحمل العمال والفنيين قادر على أن يستمر في رحلاته اليومية لبتّر القضبان ناهيك عن أن هؤلاء القوم قاموا بقفل المصانع والمعامل والمتاجر في تلك المدينة، فانقطعت الحياة حتى وصل أهل هذه الناحية من بدو وحضر إلى أنهم لا يستطيعون الحصول على رغيف الخبز.. ولم يعد هنا أحد يبكي على أحد ولكن كل واحد يبكي على نفسه، وأصبح الناس جميعا حيارى أين يذهبون أو يرحلون.. فانتشرت جماعات النهب بين الناس أنفسهم.. هؤلاء لصوص وهؤلاء نصايين وآخرين تجار خدم وغيرهم قوادين والشرفاء افترشوا الأرض لبيعوا الخبز والخضار والنابت والترمس وامتألت الشوارع بكل ما هو رخيص ونزلت البنات والنساء من تلك الأحياء الفقيرة إلى كل شارع وميدان وسوق يعرضن أنفسهن حتى يعدن إلى بيوتهن بالطعام.. والحال بعد النهب والسلب وانتهاك الحرمات والتنكيل أن كل هذه الناحية أصبحت بلا إيراد.. ناس بلا إيراد ماذا يفعلون، وأصبحت الروبايكيا تجارة منتشرة وانتشرت

العربات الصغيرة التي تجرها الحمير حتى أنها دخلت المدن الكبيرة، والمدهش أن من شباب قد تعلم كثيراً وثقف وجد في عربة الروبايكيما البسيطة.. خير وسيلة للعيش وهي العمل الوحيد المتوفر لدى الجميع، وأصبح الناس في وقت واحد يستيقظون مبكراً ليلحق كل منهم بكل ما ألقى في المدينة أثناء الليل.. قالب طوب.. عدد حديد.. زجاجة.. صفيحة.. مسمار.. وعادت أشهر بقعة في تلك المعمورة للروبايكيما، هي تلك المدينة التي أطلقوا عليها اسم الزلنطحية.. من كثرة انتشار الأعمال المنحطة بها، الناس طول النهار في الشارع يقولوا كل واحد بيلقّط رزقه.. هيّ الناس كلها بقت صايعة ولا إيه.. هيّ الناس دي كلها ولدتهم أمهاتهم ليكونوا أوباشا.. هيّ الدنيا حوّلت الناس الكرام في سنوات قليلة جدا إلى هذه الدرجة من التشرد والانحدار.. هيّ إيه الحكاية بالضبط.. ولكن أهل صنعة الروبايكيما ومن ضمنها أصحاب الأعمال الهالكة كالموظفين والعمال والشباب في العقد الثالث من العمر، وكثيرين دخلوا نقابة الروبايكيما واعتبروا أنفسهم هم الأولى بصفة روبايكيما لأنهم يعملون حتى ساعة متأخرة من النهار والليل وفي النهاية لا يستطيعون تحصيل قوت عيالهم الضروري.. والمجتمع الجديد يتكون الآن وهو في لحظات ولادته النهائية وسوف يكون مكوناً من طبقات عمامية اعتمدت على نفسها وكونت نفسها

كما يقول الناس.. المجتمع الذي تولدَ فعلا من أم مريضة عجوز
هالكت وترتدي ثيابا متهرئة ولدت ثلاث أبناءهم.. الزبال،
الروبائيكي، والعامل وهذا الصنف الأخير هو ولد شامل
يتكون من الشباب الذي يعمل طيلة النهار كالعبد ويحصل على
ملاليم لا تكفيه الطعام الضروري، وكذلك كافة الرجال
والنساء الذين يعملون في الدواوين وفي محلات وشركات
القطاع الخاص والخدم والسمسرة والقوادين وأصحاب الأعمال
الذين يقيمون شركاتهم في الشوارع.. وهم كل الذين يبيعون
أي شيء ويتخذون من الشارع مقرا لهم..

* * * * *

.. لن يلد الزبال إلا زبالا.. ويرث العيال عن أبيهم
الروبائيكي وكذلك قطيع العبيد وهو الابن الثالث للأُم
المجوعة لن يجد أبنائهم أو بناتهم شيئا إلا الشوارع ملامدا
لهم.. وفي وسط بيوت الفقراء كانت ماسورة المجارى مخرومة
بشكل دائم، فتراكمت مياه قذرة وانتشرت ناضحة في كل
جانب، وعند باب كل بيت من الحي، وبعضها اخترق البيوت
الهزيلة التي لاتستوي أرضيتها مع أرضية الشارع المنحدرة،
وكان أهل الحقة ينسحقون من التعب طيلة النهار وينامون
بعيون منهكة متورمة ورمًا هزيلا من ندرة الدم في عروقهم..
ينامون كالكلاب لاهثة من شدة الجوع وشوق العطش، وبلغ
تقتير الفقر على الغلابة أن جدران بيوتهم رقيقة هشة تحترقها

آهات الصدور الجائعة تجأر بنار الجسد مهما كان هزिला..
لاشيء من الأسرار الخاصة محفوظا حتى أن الأطفال في الحي
أكبر شيء يصل إلى أسماعهم وتراه أعينهم من ثقب الحيطان..
تلك اللقاءات بين الرجال والنساء أو بين الشباب والفتيات،
وكانت لقاءات جميعها غير مشروعة إلا قليلا منها بين زوج
وزوجته.. زوج يعمل بالنهار وكان عامل يسكن معهما يعمل
بالليل ويساعد الزوجة في أعمالها بالنهار، يجفف لها الخشب
الذي تقدح به النار في الفرن ويحمل معها الماعون الكبير ليضعه
فوق الكانون وبعد أن تصدح نار الموقد ويغلى ماء الخلّة
كانت ناره تصدح، فيضاجع الزوجة قرب الموقد.. وكان
يحدث ذلك كل يوم.. وبعد أن ينتهي ينام في غرفته، فلما يأتي
الزوج في أول الليل يكون جاره قد انصرف إلى عمله، ولما كان
الزوج يصل إلى بيته مهدودا من صعوبة عمله اليومي كان
يأكل وينام.. وكانت الزوجة تربت على ظهره وهي تردد
بصوت يسمعه.. نام يا حبيبي نام.. فيقول لها قبل أن يذهب
في شخيره.. روعي يطول عمرك..

.. ورجل آخر رغم عمله الطويل فإنه لم يكن قادرا على
أن يأتي بالضروري لعياله فراققت زوجته رجلا ينقدها بعض
المال لتحصل على الضروري، كان الرفيق يدخل البيت أمام
الجيران على أنه قريب لها.. ولم تكن تستطيع امرأة من جاراهم
اتهامها بشيء، لأن كل واحدة منهن لها قصة.. سواء في داخل
بيتها أو في خارجه.. وكان أقوى شيء في مدينة تحضنها

العشوائيات من كل جانب.. أن تلك العاصمة تزدهر بكل أنواع الأعمال المنحرفة من سرقة ونصب واحتيال.. وكل ما هو رخيص من دعارة وإدارة لها بواسطة نساء ورجال.. ولم تكن هناك فتاة أو امرأة مهما كان عمرها أو أياً كانت درجة حلاوتها وتعمل خادمة أو طباحة إلا ولها علاقة جنسية مع أصحاب البيت.. ولم يكن للواحدة منهن بيتا واحدا.. وكانت كل النساء من هذه الأحياء الغجرية التي تحيط بالمدينة.. لم تكن أي واحدة منهن ترتوي من زوجها أو تسعد بلقائه لأنهم جميعا رجال غلبة مهودوي الحيل والعافية من قسوة أعمالهم وطول وقتها.. ولم يكن هناك رجل واحد يسأل أين تذهب زوجته.. أو إلى أي بيت تذهب.. وما الذي تقوم به في تلك البيوت.. لأن النخوة والرجولة التي كانت ربما في زمان مضى لم تعد الآن لزحمة الحياة وكثرة مطالبها وأن تلك الأعمال تداريها الحيطان..

ومن لديه نخوة من الرجال فيقعده زوجته في البيت ويموت من الجوع هو وعياله.. ولم يكن لأحد خيار.. فهذه هي الحياة فرضت حاجتها في نفوس البشر، لكن المشكلة أيضا التي تواجه هؤلاء الناس أن بناهم لم يكن يستطيعون إكمال تعليمهم في وسط هذا الجو الذي يفرض نفسه بقوة.. وهو الحاجة الدائمة للعريان والجوعان كي يعيش، فتعلمت الفتيات كيف يلقطن رزقهن على شاكلة أمهاتهن.. وتعودت كل فتاة من أبيها الرضوخ لما هو واقع فاختصرت الطريق خاصة أنه لا توجد

بارقة أمل في الزواج ومن ذا الذي يتزوجها إلا واحدا من
أوباش الحي كانوا شبابا أو كبارا..

* * * * *

وكان الفقراء في قريتي معروفين لا يتعدون مائة أسرة وكان
الأغنياء يكفون حاجة المحتاجين، ولم نسمع أن فقيرا كان يترح
من بلده بحثا عن عيش أفضل وكانوا جميعا يأكلون ويعيشون
وتكونت هذه العشوائيات بشدة وعلى مراحل بدءاً من بدايسة
السيثينات وحتى الآن بلغت شدتها وخطورتها حتى أصبح كل
حي فيها له ناسه وقوانينه وأعرافه.. والعرف السائد هو الحاجة
تبرر الوسيلة.. فاحصل على طعامك بشيء من الجسد.. وعاد
الآن أهل قريتي جميعا فقراء وكل واحد في حاجة إلى لقمة من
رغيف، وكان في قريتي وزراء يحكمونها بالعرف وقبل أن تبرغ
أية مشكلة اجتماعية كان هؤلاء الرجال من الوزراء والذين
يحكمون بالعدل يحلون أية مشكلة.. فأين الحاج حداد ودردير
الصاوى وحسنى الجندي وعبد الحميد الهلالي.. كان أهل القرية
جميعا يرتضون حكم وعرف أي رجل من هؤلاء لأنهم كانوا
ينشرون العدل بين الناس جميعاً، ومن الشيء الجميل الذي
يمكن ذكره أن أحد الوزراء كان يهوى مصافحة النساء بشكل
ناعم وكن يخضعن له قليلا لأنه كان رجلا ناعما وصاحب
كلمات تعجب النساء وكان الرجل لا يتعدى ذلك ثم يبدأ في

حل المشكلة ومهما كانت القضية صعبة فإنه كان قادرا على حلها بمفرده في نهاية الأمر.. كانوا رجالا ولم يعد هناك في قريتي الآن وزراء مثل الذين ذهبوا.. وأصبحت كل قرية تضرب تقلب وليس لأحد شأن بالآخر، وظن بعض الرجال الذين حصلوا على الدكتوراه في العلوم المختلفة أن يقوموا بأعمال الوزراء السابقين لكنهم لم يفلحوا لأن كلا منهم يريد لنفسه فقط الظهور.. ولم تفد شهادته أحدا من قريته أو من أهله، إلا كلا منهم لن يفد إلا شيئا في نفسه.. ولم أكن أستطيع أن انفق وقتا طويلا في التأمل في أحوال القرى والبلاد جميعا لأنني أدركت تماما أنه لا فائدة فقد انفلت الأمر، ومهما كان حالي تعيسا أو مذعورا لما تراه عيني من فساد وظلام يحمل أكبر قدر من الظلم الإنساني بين البشر، وكنت أشعر أن عيناى تكاد تتورم من شدة الألم وكانت مقلتاى ترى الأوضاع المخزية بعيني يلتهب فيهما الرجاء وقلب ينبض بالدعاء.. ولم تكن هناك فائدة من الاعتكاف مع نفسي من أجل قراءة واكتشاف كل وجه بائس دون أن أجرؤ على مفاتحة أحد بأني أستطيع حل مشكلته، فمن لا يملك أدنى شيء يقدمه للمحتاجين والفقراء عليه أن يسكت، والشيء الكاسح في كل مكان في بلادي أن فئة متسلطة منذ عقود تمسك كل شيء وتتحكم في أمور الناس بشكل يوجه كل ثروة البلاد لخدمة فئة واحدة ومن

لم يعجبه ذلك فهناك الكرجاج وأبواب الزنازين، ولا أعرف حتى الآن تفسيراً لماذا كل هؤلاء الذين يحكمون يسرقون حتى أننا وصلنا أنه لم يعد هناك شيء ليسرقه أحد غيرهم، فمن سرق سرق وما زال يسرق ومن اغتنى اغتنى ويزداد ثراء، وبقي السؤال المحير.. من ينقذ الفقراء من فقرهم والناس جميعاً من يوم إلى يوم يزدادون خنوعاً وخوفاً فيتضورون جوعاً، والشرفاء ليس لديهم شيء لبييعوه، ولكن السارقون والمارقون الذي ليس لديهم أدنى شرف يبيعون كل شيء وبقي الدور على المواطن نفسه وسوف يبيعونه غداً في سوق العبيد.. والمصيبة أن القوانين وجدت لتحمي السارق ووجدت أيضاً لتلحق بالأحرار التهم والمكيدة وتدخلهم الزنازين.. في منتهى السفالة هؤلاء ولماذا أنجبت البلاد مثل هؤلاء وهل يا ترى العيب على من ولد أم العيب على من ربّى .. وعندما كنت في نقاش مع رجل ثاقب الفكر قال في ألم ..

.. هل على الناس جميعاً أن تعلم أطفالها الصغار كيف ينهبون وينصبون وكيف تكون الطفلة الصغيرة مهينة عندما تكرر لتكون داعرة، إننا جميعاً خائفون ننكفئ على ماذا نفعل ولا نجرؤ على أن نرفع رؤوسنا لأعلى لنقول أننا سنفعل، وعلى كل أصحاب المصالح أن يدفعوا لكي تقضى مضالحهم ولكن من أين يدفع الفقير، فهل على الفقير الذي لا يملك شيئاً أن

يدفع بابنته أو زوجته لتدفع من جسدها حتى تقضى حاجتها،
وبقدر الجمال تقضي المصالح الكبيرة لدى الذين يملكون المال..
إن الذين يملكون المال هم الذين يدفعون مقابل الجسد والذي لا
يملك مالا لا يستطيع أن يتملك جسد كلبة، وكانت المشكلة
عند الفقراء دائما أنهم لا يملكون نساءً جميلات وبالتالي فإنه في
كل جوانب حياتهم يزدادون فقرا على فقرهم، ولو وجدت
امرأة جميلة من أهل الفقر فإن جمالها يكون شاحبا مريضا في
حاجة لأن يعالج وقتا طويلا حتى يكون جمالا متماسكا
يستطيع أن يواجه المنافسة في سوق الجسد، إن عامة الناس
وكثير ممن لهم مصالح وغير المثقفين وكثير من الناس الذين يجنون
أن يعيشوا أغبياء أو يريدون أن يبقوا في غفلة دائما يقولون لا..
إن مجتمعنا بخير من قال أن هناك فقرا أو فقراء أو أيمن سوق
الجسد هذا.. لا لا .. إننا ما زلنا بخير.. وهؤلاء الذي يقولون
إننا نذهب إلى الهاوية مجانين.

.. كان على صبرى أن يقوم ويذهب إلى بيته لقد ملّ أن
يمضغ كل هذه الصور المذهلة التي أصابت مدينته، أنفق كثيرا
من الوقت في أوجاع أهله ولما شعر بمرارة ثقيلة في حلقه كان
لزاما عليه أن يترع نفسه من شاطئ النيل عند كوبرى
التحرير.. قام بصعوبة من مقعده الخشبي وتحت كوبرى قصر
النيل رأى قاربا يعلو وينخفض كأنه ينفصل عن الأمواج ولكنه
يقترّب من الشاطئ في غضب والمياه تقذف به وفي نفس

اللحظة يتزل منه ما يقرب من عشرين صيادا بأسمالهم البالية وكان بينهم بعض النسوة، وجلس جميعهم في بقعة من الأرض تحت الكوبرى وأشعلوا نارا من خشب أخرجته أحدهم من جوال يحمله، وجلس ثانية على مقعده وراح يتأمل الناس في شغف شديد، وكانت أصوات غريبة تنبعث من الصيادين كأنهم ينشدون عدة أناشيد وهم ينقلون قفف السمك من المركب إلى حيث تصدح النار..

وكان هناك عدد من الصبية يبدو أنهم أولاد الصيادين يلعبون على الشاطيء ومنهم من راح يجلس عند النار المشتعلة وهو يرقب أهله في عملهم، والنيل قد أسجى تضيئه أشعة شمس الصباح المنبعثة من الشرق وأصوات أخرى قليلة تأتيه من فوق الكوبرى لأناس يذهبون إلى معاملهم.. ولما كان صبرى قد ركب من بيته عربة آجرة توصله إلى تلك الحديقة ليتأمل هدوء البلدة في تلك البقعة كان الفجر الحنون الذي ذهب بسكونه عن المدينة كلها وبدأ الضجيج، وهو لم يكن يعرف ما سر هذه الطاقة للتأمل في داخله وما فائدتها، ما دام لم يفعل شيئا حتى الآن، وعبر كوبرى قصر النيل إلى جهة حي عابدين وكانت أصوات مكتومة تنطلق هنا وهناك حتى عرج شمالا حيث ميدان طلعت حرب، وهناك وجد رجلا سكرانا يردد كلمات لا يفهم معناها صبرى.. وكان الرجل يتحدث ثمثال طلعت حرب لما اتضحت كلماته قليلا :

- يا حبيبي مش بعيد ترجع تاني ..
- عملت بنك مصر علشان نهضة مصر..
- وكنت عارف إن النهضة ما تجيش غير بينك..
- لازم من البنوك وفوائد البنوك ترجع تاني ونعيد استثمارها في مصر..
- تعال يا حبيبي شوف العيال بتبيع كلامك بالرخيص..
- واللى بنيته في سنين.. إهد في سنتين..
- وكل شيء راح لا صناعة ولا زراعة..
- إنت عارف بقينا إيه..
- بقينا بلد من غير إيراد.. تعال يا حبيبي الحق مصر..
- البلد كلها بتناديك..
- اقتربت من الرجل وابتسمت له فتوقف عن مناجاته والتفت
بوجهه نحوى قائلاً :
- عايز إيه ..
- إنت مين ..
- وانت مين.. قوللي إنت مين ..
- أنا واحد من الناس كنت قاعد على النيل بتفرج على
الصيادين..

- كويس حلو. وأنا بكلم الرجال دد..
- طيب إنت مين ..
- أنا زيك واحد من الناس..
- يعني إنت عاقل ..
- يعني إيه عاقل ..
- عاقل أوي..
- فعلا كلامك حلو أوي.. بس إيه فايده الكلام..
- مش بيأيدي أعمل غير كده..
- طيب إنت شارب حاجة..
- أبدا ..
- طيب ليه لابس هدوم وسخنة..
- ما عنديش غيرها ..
- طيب أنا عندي هدوم كتير ..
- مش باشحت ..
- طيب تعال نتمشى سوا ..
- لأ بحب أمشي لوحدي ..
- طيب إنت بتشتغل إيه..
- كنت مهندس في شركة تخصصها ..

- ليه إنت في الشارع دلوقتي ..
- زيّك إنت ليه في الشارع ..
- إنت ساكن فين ..
- ف عابدين ..
- مع مين ..
- قاعد عند أختي ..
- وولادك ..
- سبتهم ..
- ليه ..
- مش قادر أصرف عليهم ..
- خلّصوا تعليم ..
- أيوه .. وإيه فايده ولادك يخلّصوا جامعة ويقعدوا في البيت من غير شغل ..
- معاشك كام ..
- تسعميت جنيه ..
- إمشوا على أدكم ..
- العيال بهدلتني عايزين ياكلوا كل يوم حاجة حلوة ..
- للأسف في زمن كيلو الجبنة بقه بعشرين جنيه ..

- تصدق بالله أنا بقول لهم حاسبوا على الجبنة..
- خللي العيال تشتغل في أي حاجة ..
- مش راضين ..
- طيب طلّعهم من البيت وريهم العين الحمرا.. يشتغلوا أي حاجة شريفة.. كل واحد على الأقل يأكل نفسه ..
- مش قادر عليهم ..
- خللي أمهم تساعدك ..
- إنت عارف أمهم بتقوللي إيه..
- اشتغل طول النهار والليل عيشنا زي الناس.. إنت راجل إنت ..
- إنت إسمك إيه ؟
- إسمي يفيد بإيه..
- مش مشكلة بلاش إسمك.. وإنت كده رايح على فين ..
- هاقعد على قهوة أشرب جوزة..
- وبعدين ..
- أرجع لأختي ..
- وولادك ..

- طفشت منهم ومن أمهم .. واحد من ولادي مسك عليّ
الكرسي وقال إنت راجل مالکش لازمة طالما مش قادر تأكلنا
إمشي من هنا ..

- قلت يابني دا قدري أنا راجل على المعاش وسني عدّي
الستين .. وكفاية علي ربيتكم .. تعرف قال لي إيه ..
- إيه؟

- إمشى من هنا يا راجل يا وسبخ .. وأمه كملت
الشتيمة ..
- قالت إيه؟

- لما تمشي ويقي البيت من غير راجل هاعرف أأكل
ولادي إزاي .. بس ورينا عرض اكتافك ..
- وبعدين ..

- مشيت لأن الموضوع بقى على الآخر .. جاب خبت ..
ومن ساعتها وأنا عند أختي عايش في هدوء مع نفسي على
الأقل أحفظ كرامتي وآدي العيال ..
- عايشين إزاي دلوقتي ..

- أمهم بتطلع الساعة أربعة العصر وبترجع اتناشر ..
- بتديهم فلوس ..

- المعاش كله باديه لابني الصغير بيصرفه عليهم.. إبني الصغير كويس..
- وإنّ عايش منين كده..
- باشتغل في مخزن ملابس جاهزة في الموسكي أي حاجة الوارد والمنصرف.
- بتاخذ كام ..
- ستمية ..
- عايش بيهم مع أختك طبعًا ..
- اختي عانس وبتاخذ معاش من أبويا وعايشين ..
- طيب مراتك بتشتغل إيه..
- ما بقتش مراتي.. طلقتها لما عرفت أنّها فتحت على بره ..
- بتشتغل إيه ..
- فكنس ..
- يعني إيه فكنس ..
- إعرف أنت بقه.. هوّ كل حاجة تسأل عليها.. عرفتك كل حاجة.. تعال إشرب معايا جوزة.. أنا كل يوم قاعد عا القهوة دي..

وكنت قد تمشيت مع الرجل حتى شارع الألفي وكان
المقهي في شارع صغير يقع بين شارع الألفي وشارع عبدالخالق
ثروت.. وتواعدت مع الرجل على أن أصادقه وأجالسه حيث
يجلس على هذا المقهي كل يوم من الثامنة والنصف وحتى
العاشرة.. بعدها يذهب إلى عمله في الموسكي..

كنت قلقا وأعيش مع نفسي أكثر مما أعيش مع الناس
وكان الفقر والجوع والمرض والتشرد أبواب تفتح لأول مرة في
بلادي، لقد كانت أرض بلادي جميلة لما كانت تزرع القمح
والذرة والقطن ولكن ما شأن بلاد أخرى تزرع لنا ما نأكله،
قبل أن نسمع بشيء اسمه ثورة كان الجمال في مدينتي يأتينا من
أسر معروفة في القرى والمدن وكان الطعام يأتي الفقراء من أياد
أصيلة وأسر عريقة تعرف كيف تنفق أموالها وكانت العدالة
الاجتماعية متوفرة تلقائيا، وإذا كان هناك بؤر ظلم هنا وهناك
فإنها محدودة لكن مظلة الحياة كانت تكسو الجميع بالقدر الذي
لا يشعر أحد أنه مهان في كرامته، وكانت المرأة الجميلة تحتفظ
بجمالها لزوجها وفي بيتها وكان الجمال لا يباع ولا يتاجر فيه،
ويقولون إذا كان الجمال يباع ويشترى فكيف يكون جمالا،
لقد بلغ الفساد مداه حتى بلغ السلوك في زماننا أن يقولوا

للحميلات بأن يبيع الجمال هو أفضل طريق لاستثماره، ولم يكن غريبا أن يحدث هذا في بلاد تقترب من وطن بلا إيراد، ولم يكن ظلام الجوع وحده ينتشر. ولكن ظلام القمع أسود والأسود منه أن يُعقتل الأطفال من أحضان أمهاتهم في الهزيع الأخير من الليل.. وكنت أسمع عن ذلك حتى أنه في ليلة من الليالي :

قوة من الشرطة تقتحم بيتي في الثانية بعد منتصف الليل في ليلة ٢٠٠١/١/٣١.. قائد القوة رائد في السادسة والثلاثين من عمره ويرتدي ملابس مدنية.. طرق الباب بقوة .. قلنا جميعا من يأتينا في مثل هذا الوقت.. هلع أهل البيت جميعا نحو الباب يتقدمهم رب الأسرة.. فتح.. قائد القوة محاولا أن يرسم ابتسامة سخيفة .. قائلا :

- محمود صبرى إبنك..

- أيوه إبنى ..

- ثمكّن نحش ..

- إتفضل .. فيه إيه ..

تهدّجت أنفاسي بقوة خاصة عندما دخل معه ضابط يرتدي حلة سوداء برتبة ملازم أول يحمل رشاشا يوجهه لأعلى وكأنه يحرس الرائد من أهل البيت.. وأشرت بيدي إلى مقاعد الصالون

ليجلس قائد القوة ومن يحرسه.. يا نهار إسود مين دول
وعايزين إيه.. وفي لحظات هزّ الرائد رأسه قائلاً .. فين
محمود.. .. رفض الجلوس والملازم جاد في رفع السلاح لأعلى
وكان سيضرب أحدا في سقف البيت ..

- ليه

- عايزينه ..

- فيه إيه.. إنتو مين ..

- إحنا أمن الدولة ..

- يا ستار ابني عمل حاجة في أمن الدولة ..

- لأ حاجة بسيطة ..

وكان الطفل محمود يقف واضعا إصبعه في فمه وقدماه
ترتعش ويتأمل وجه أبيه ووجه الرجلين في ذهول.. قائلاً
بصوت مرتعش ..

- أنا .. أنا .. ليه.. أنا في ثانية ثانوي.. والله ما ضربت

حد من زمايلي وعمري ما تعديت على مدرس..

وكان الرائد سمجاً فقال للطفل الذي لم يجب أحد عن سؤاله

عن ما الذي فعله :

- فين أوضتك يا محمود

صبري : ليه .. هو زارع حشيش في أوضته ..

الرائد : لو سمحت سيينا نشوف شغلنا ..

صبري : بس إنت في بيتي .. دا تهجم على الناس ..

الرائد : متش إنت اللي تقول تهجم ..

صبري : هو دخول البيوت سهل كده .. غنايز إيته متن
أوضته ..

الرائد : مرة أخيرة إنت بتحوشنا عن شغلنا .. ممكن ما فيش
كلام خالص ..

صبري : متش إنتو القوة إعملوا اللي إنتو عايزينه .. إقتلني
ومالكش دعوة بابني ..

إيه الموضوع على فكرة إنتو جاين غلظ .. ابني أكثر حاجة
عملها إنه ما بيعرفش يركب أتوبيس لحد الآن .. وما يعترفش
يروخ الألف مستكن لوخده .. هو الطفل عمل إيه ..

الرائد ينظر بامتغاض إلى الأب ضاربًا بكلامه وتساؤلاته
عرض الحائط قائلاً لمحمود :

= فين أوضتك يا محمود ..

نظر لمحمود إلى أبيه وكأنه يقول له :

- خلاص يا بابا مش مشكلة .. ها ورّيه قوضتي ..

صبري : خش هات الحشيش من جوه ..

تراجعت أم محمود وإبنتها إلى الخلف ليفسحا الطريق حتى يدخل المتهجم على حرمة البيوت ليترع الخطر الذي يهدد أمن الوطن من غرفة الطفل.. ودخل الضابط الحقير غرفة ابني وصفق الباب بشدة، وهلعت الأم نحو زوجها تضرب بيديها صدرها وكانت تريد أن تصرخ بأعلى صوتها ولكنها كتمت الصرخة في أنفاسها المتهدجة وقالت وكأنها تلقي اللوم على رجلها :

- يا لهوي .. يا حسبي بالي .. فيه إيه وليه هو ابني حاطط حاجة في أوضته ومش عارفين.. قوللي يا صبري قول ولطمت بشدة خديها فأمسك صبري بيديها قائلاً :

- أهو دا بقى كُفر .. إستغفرى الله ..

.. تراجعت إلى الخلف وهي تمزي بكلمات كثيرة.. فيه إيه.. حوش يا صبري عننا.. هو محمود راح في حنة من ورانا.. هو فيه إيه جوّه .. أستر يارب فيه إيه في في قوضة إبنى :

وقال صبري وهو يحاول أن يجلسها على المقعد :

- لأ أبدا تقريبا فيه جاسوس مستخبي في دولاب محمود ..

واقترب محمد الصغير من أبيه وقال في براءة وهو يحملق في

وجه والده :

- أنا معاه في الأوضه بابا والله ما فيه حد..

وأمسك صبري به وقال :

- طوّل بالك يا محمد هانشوف حضرة الضابط العظيم
ماسك مسكته.. الصبر حلو يا بني.. اهدأ.

كان أهدأ الأفراد في الأسرة أخته والتي راحت تضع أذنها
على باب الغرفة ربما تسمع ما يجري في الداخل وسمعت ..

الرائد : دا إيه

محمود : شريط

الرائد : جبته منين ..

محمود : من السوق..

الرائد : ودا جبته منين..

محمود : كتاب الأذكار عادي موجود في كل حنة ..

الرائد : ودي ..

محمود: إسطوانات قرآن وشرايط عادية مالية الأسواق..

محمود : شوف الدولاب مفتوح على الآخر.. شوف حاجة

في الهدوم..

.. هزّ الرائد رأسه وقال وهو يحضن بيده وصدره شريط

فيديو للعلامة الهندي واسطوانات القرآن والشرايط وكتاب

الأذكار :

- حانطلع من سكات وامشي معنيا زيني الشاطر عاشان
تعرفني بيت إيهاب

.. وفرح الولد لظنه أن الموضوع يتبني عند بيت إيهاب..
الحمد لله دي بسيطة وعليه قال مخلصا للرائد وفي صوت عال :

- حاضر تحت أمرك مفيش مشكلة..

- خلاص تعال ورايا ..

.. وخرج الرائد وهو يحمل جسد التهمة والجريمة في يده
وكانت قدماه تدق الأرض بقوة كما كان الرشاش الذي يحمله
الضابط الصغير ويصوبه إلى السقف يحمي اقتحام الرائد بيت
الناس في قوة.. ومن يقدر على القوة إلا القوة.. ولما كان قائد
الاقتحام يخرج في سلاسة وخلفه محمود كأنهما اتفقا على
شيء.

قال القائد لصاحب البيت في صراحة وكان أحدا لا
يستطيع أن يوقفه :

- محمود خمس دقائق معايا ها يوريني بيت إيهاب ..

- أنا ممكن أوريك خللي الولد وأنا جاي معاك.. دا بيت
إيهاب أنا عارفه كويس..

- برضه عيب ما ينفعش خليك مستريح .. محمود خفيف
عنك ..

وكان المثير أن ضابط الرشاش يؤدي عمله بقوة ويصوب
فوهة الرشاش لأعلى وهو يكشّر وكأنه بعد لحظة سيصوب
الطلقات إلى عدو يتربص به ويسكن الطابق العلوي .. ونزلت
الحملة على الدرج يتقدمها الطفل وخلفه الرائد ثم حامل
الرشاش بعدهم صبرى يرتدي روبا ثقيلًا وأم محمود يمسك بها
الصغير محمد.. وفي كل طابق من الطوابق الأربعة التي تحت
شقة محمود فتحت كل الشقق أبوابها وتراصت أفراد كل شقة
خلف بعضها البعض ليشاهدوا أفراد حملة الضابط الهمام
ومحمود المقبوض عليه بجسد همتته والتي يحملها الرائد الفريد في
مهامته والتي كانت سُمعتها قد انتشرت في الحي كله.. كانت
هذه الأسر تسمع كل يوم عن مثل هذه الحملات الراقية والتي
تنظف المدينة من أوكار منتشرة في كل بيت وتهدد أمن
الوطن..

.. وانهمر الدعاء مع الدموع من أفراد كل أسرة خلف باهما
الموارب :

- معلش ربنا فوق.. حسبي الله ونعم الوكيل.. معلش يا
أم محمود ولا يهّمك ربنا مش ها يسيبهم، طفل عمل إيه.. يا
سلام على السفالة.. روح الله ما يبارك لكم.. خليك قوي يا
أستاذ صبرى كل حاجة ليها آخر.. مظلمتك فوق عند الله ها
يجيلهم يوم.. وفي أول ما سمعت آذان صبرى وأم محمود كلمات

التعاطف والحب والدعاء من أهل البيت كانت الدموع قد
انهمرت بقوة تغسل وجه الأب والأم حتى محمد الصغير.

.. وكان أمام العمارة في الشارع مشهد لا ينسى تجمعات
من الناس أمام كل بيت في المحيط الذي يحيط ببنائة الطفل
محمود ولم تكن هناك شرفة في كل هذه البنايات إلا ووقف
أهلها جميعا وقلوبهم تبكي حسرة على ما يحدث وكان الجميع
يقول بقلب موجوع.. ماذا فعل هذا الطفل.. ماذا في مقدر
طفل لم يتعدى السادسة عشرة والنصف أن يفعل وراح الجميع
يتساءل.. أنه ربما يكون هذا الصبي الصغير قد اقترب جُرماً
كبيرا لم يره أهل الشارع جميعا.. ولكن عيون الأمن السهرانة لا
يخفي عليها شيء.. يعمر بيت أمن الدولة يحميكي صحيح
صاحبة.. يا خرابك يا بلد من غيرهم.. ويهان أطفال الوطن
وبيوته آباء وأمهات بلا ذنب اقترفه أحد.. واقترب بعض أهل
الحي رجال ونساء وشباب يمسكون بصبرى من يده وكتفه
وذراعه شادين من أزره :

- اوعى تزعل..
- خليك جامد ..
- اوعى تياس من رحمة ربنا ..
- دول بتوع السلام.. على فكرة دا المقدم شريف ..

- ليه ابن مشلول .
- علشان يترقوا ينكلّوا بالناس ..
- دي هوجة .. أصل فيه حاجة حاصلة ما تعرفش إيه ..

بيرعبوا الناس

- ابنك ها يرجع ما تخافش كلّها يومين ..

- .. كانت عربية ميكرو باص مدنية مكتوب عليها رمسيس -
- مدينة السلام هي التي تحمل الكيسه .. ركب ابني مع من في
- العربة وأصبح عددهم ستة .. ثلاثة صبية من عمر ابني وثلاثة
- أكبر قليلا لا يتعدى الواحد منهم واحدا وعشرين عاما ..

وأمسكني أبو إيهاب من الخلف قائلا :

- مصيبة يا أستاذ صبرى شفت إيهاب ..
- الحمد لله إنهم مع بعض .. كانوا بيروحوا المدرسة سوا
- ودلوقت سوا ..

- قالوا لإيهاب تعال ورّينا بيت محمود ..

- ضحك على الدقون

- هوّ بس ضحك على الدقون ..

ثلاثة جنود يحمل كل منهم بندقية ويدورون حول العربة،
مركبة بوكس سوداء يرأسها الملازم أول والذي ما زال رافعا
رشاشه لأعلى ومعه ثلاثة جنود آخرين .. ركب الرائد شريف

أو المقدم شريف في المقعد الأمامي للميكروباس بجانب السائق.. كان كمن أصاب هدفا أو انتصر على عدو أو حصل على جائزة كبيرة في الأمن أو شهادة تقدير من حقوق الإنسان.. وكان الإرهاب والتخويف الذي تمارسه سلطات النظام بإجرام على الشعب هو عنوان الحملة المأسوفة على أعمالها الحقيرة.. انطلقت عربية المقبوض عليهم في موكب مؤسف بصق عليه كل شاهد عيان تجمّع من بعيد أو قريب ليرى المأساة أمامه بأم عينيه..

.. كانت أم محمود تبكي بحرقة بعيون منهمة بدموع حزينة وهي ترى ابنها ذاهب إلى الجھول.. وإلى أين ولماذا وماذا حدث.. ولطمت خديها وراحت تضرب صدرها بكلتا يديها وكأنها تلوم نفسها.. لماذا جعلتهم وبهذا الاستسلام يأخذون ولدها دون أدنى مقاومة.. ووقعت على الأرض وارتمى فوقها عددا من النساء يرفعونها لأعلى.. وهكذا فعلت أم إيهاب وأم ياسر وأم الخطيب وأم رمضان وأم أيمن.. كأن كل أم مات ولدها هذه الليلة.. ومضى بعض الوقت وبدأت الناس تنصرف إلى بيوتها.. وبات في كل بيت من البيوت الستة أحزان وندب وتليفونات للأهل والأقارب والأصدقاء في محاولات لإيجاد حل لاسترجاع وإعادة كل ابن إلى بيته..

وكان مشهد يقطع قلب الحمار إذا رآه وسمعه، فلما كان الميكرووباص يتحرك إلى جسر السويس في ثورة الطفل ربما أو استغاثة مسكين لما نزل عليه فجأة من مصيبة فتح محمود نافذة المركبة وهو يضع إصبعه في فمه ونادي بصوت لا يخشى ولا يخاف وهو في قبضة من ييدهم الأغلال.. كانت رأسه كلها خارج النافذة وكأنه يستغيث بالناس جميعا.

- بابا .. بابا ..

جرى إليه والده فزعا حتى أصبح في مقابلة رأسه وقربها :

- فيه إيه .. فيه إيه يا محمود..

- ما تسينيش يا بابا.. شوف أهلك يا بابا.. إعمل حاجة يا بابا.. أنا رايح فين يا بابا.. قوللي يا بابا.. هاتوا أي حد كبير بدالي أنا صغير يا بابا.. أنا غلبان يا ناس.. والله ما عملت حاجة.. والله..

.. وراح الولد في عويل وبكاء شديدين وبصوت عال هزّ الناس جميعا فانخرطوا في بكاء شديد وراحوا يرفعون أكفهم نحو السماء منادين في صوت واحد..

حسي الله ونعم الوكيل.. وكان أول من بكى في شرفته ودعا بنفس الدعاء السيد كامل إبراهيم وزوجته نرمين بطرس اللذان يقطنان في الطابق الثاني للبيت المواجه لبيت محمود..

وكان أبو إيهاب قد استمال أحد الجنود من الحملة والذي
كان يقف أمام بوكس أسود يحمل جنود الحراسة.. وقال أبو
إيهاب:

- الله يرضى عليك يا بني إنتو رايجين فين بعد كده..

العسكري: رايجين السلام ..

أبوا إيهاب : السلام دي فين ..

العسكري : عارف قسم مدينة السلام.. أمن الدولة جواه..

أبو إيهاب : يعني أجي أزور ابني بكرة..

العسكري : ما فيش زيارة .. ممنوع ..

أبو إيهاب: والعمل ..

العسكري: العادة ها يقعدوا يومين في الفرع وبعدين

يترحلوا ..

أبو إيهاب : يانهار اسود يترحلوا كمان .. على فين ..

العسكري : الله أعلم يا بيه.. شوف ابنك والعيال دي

عملت إيه ؟!

أبو إيهاب : وحياتك يا بني قوللي .. إنت منين إنت ها

تطلع بلدياتي قوللي يترحلوا فين .

العسكري : إحلف بالله أنا ما قلتش حاجة..

أبو إيهاب : ما تخافش قوللي .. ها يروحوا فين بعد
السلام ..

العسكري : لاظوغلي .

أبو إيهاب : يعني إيه لاظوغلي ..

العسكري : مش عارف لاظوغلي .. ابقى اسأل عليه .. قلق
البلد كله هناك ..

أبو إيهاب : يعني إيني راح بحر ما لوش آخر ..

* * * * *

وكانت أم محمود تهذى بكلمات لا يفهم معناها وما حدث
في هذه الليلة يحزن عليها الليل فيمتد ظلامه طويلا ولا ينتهي ..
كانت شديدة اللوم على زوجها كالعادة، فكل شيء غير سعيد
يحدث في البيت وبدون أدنى درجات التفكير والحكمة يكون
زوجها هو السبب ولما كانت تجرى نحو الشرفة ربما ترى ابنها
قد عاد فجأة ثم تعود إلى غرفته تفتح دولابه وتبحث فيه عن
ولدها ثم تقلب في هدمومه وتبكي .. أخذها زوجها بيده
وأجلسها على كنية بالصالة وقال في هدوء :

- بالراحة إهدي .. خلينا نفكر بالراحة ..

- إيني راح فين .. هات لي ابني ..

- معاه ربنا ..
- وانت
- ربنا أحسن ..
- يعني إبنِي راح خلاص ..
- مين قال كده ..
- طيب هات إبنِي ..
- أنا زيك بالضبط .. إهدي ..
- أهدي إزاي ..
- طيب صوتي يمكن الصوت ها يجيبه ..
- اتصرف ..
- قولي يا رب ..
- .. ولما وجدها هدأت قليلا قال في شيء من التردد :
- جوز بنت عمّك لواء في مكتب الوزير ..
- إيوه .. آي والله ..
- كلّمِي عمّك ..
- وسكتت قليلا وقالت كمن تكلم نفسها :
- صحيح ها كلّم عمّتي ..
- وييد مرتعشة وبقلب متلهف حادثت عمّتها قائلة :

- عمتي .. إزّيك يا عمتي ..
- إزّيك با بنتي ..
- إذا كنت بتحبي بابا وتحبيني انجديني يا عمته ..
- فيه إيه بابنتي .
- محمود ابني .. أمن الدولة جرم خدوه ..
- يا لهوي الساعة كام دلوقتي .. عمل إيه دا لسه عيّل ..
- هوّ دا اللي حصل ..
- طيّب وأنا عمل إيه يا بنتي ..
- عصام .. اللوا عصام يا عمته جوز نبيلة في عرضك يا عمتي ..
- يا بنتي إنت عارفه عصام ما بيخدمش حد ..
- طيّب بس قولي لنبيلة
- نبيلة بتخاف منه .. وبعدين ها تقولّه إبننا إرهابي وخدوه .. لا يا بنتي.
- بُصّي ها قولك من الآخر عصام وبنتي بتوع مصلحتهم وبس ..
- نبيلة الأستاذة في كلية البنات تخاف من ضابط ..

- طول عمرنا يا بنتي بنخاف من العساكر.. لما كنت بنت صغيرة وعائشة في السيدة كنت لما بشوف عسكري أجرى وأقول للناس إوعو العسكري..

- دا أنا سامعة إن عصام ده ابن ناس غلابة أوي وانتو نفسكم بتقولوا عليه كده.. الله يرحم أبوه اللي كان بيعمل الأسبنة ويمشي بيعها في الأسواق.. المفروض واد زي ده أبوه كان غلبان ومطحون يساعد الناس.. دا أنا سامعه إنه بيشتغل في مكتب اللي يتقصف في رقبته اللي ولع البلد..

- بصي يا أم محمود إنت بنتي ومن الآخر عصام ده داق الفقر وهو صغير وشاف أبوه راجل غلبان كوته لما لبس البدلة وبقه ضابط ما حدش عرف يكلمه من يومها وهي دي عادة الناس البسيطة الفقرا لما ربنا بيديهم ما بيعرفوش حد.. ويعدين بيخاف على مستقبله أوي وعلى الترقية ومش ممكن يعرض نفسه حتى لو بكلمة ويقولوا إنه له صلة قرايب ولهم ولد إرهابي..

- بقة ابني بقة إرهابي كده مرة واحدة..

- هي البلد بتاعتنا كده.. طالما خدوه عمل ما عملش هو بقة إرهابي..

- يا نهار إسود بالزور والبهتان والبطش وتلفيق التهم للناس هي دي البلد.. هو إحنا عايشين فين..

- ها سألك سؤال يا بنتي هوّ إبنك بيصليّ الفجر..

- من شهر بس مواظب على صلاة الفجر..

- ييقه خلاص راح في الرجلين ..

- إزاي يا عمه..

- نبيلة بنتي بتقول عن لسان عصام إن اليومين دولت فيه

هوجة تخويف للصغير والكبير في البلد ونازلين دلوقتي على

الأطفال اللي بتصلي في الجوامع علشان تحقيق فكرة القضاء

على المنابت، يعني فكرهم يا بنتي إن العيل طالما رجله خدت

على الجامع خاصة في الفجر ييقه ده عيل ها ييقه شديد لما يكبر

والخوف من اللي زي دول.. هاتوهم نقضي عليهم من دلوقتي

أحسن.. والله يا بنتي نبيلة بنتي قالت لي كذا مرّة الكلام ده من

لسان جوزها اللي بيشتغل في مكتب الوزير اللي بيلم الناس

وكان الناس دي غنم في عزبة أبوه..

- يا لهوي يا عمة.. دا أحنا لو في الجاهلية كان هاييقه

حالنا أحسن من كده.. وجاهلية الأولى ما تعملش كده في

أطفال تكره البلد بعدين.. يا عمة ممكن اللوا عصام ده يساعدنا

من تحت لتحت..

- على العموم يا بنتي ها قول لنبيلة دلوقتي حالا.. لو كنت

أعرف إن ابنك بيصليّ في الجامع كنت قلت لك إمنعيه..

- ما قلتيش ليه يا عمه ..
- أنا قلت أكيد زي أبوه.. أبوه طول عمره بيصلي في البيت والجمعة بس في الجامع واحنا سامعين كده عنه..
- يا ريته كان زي أبوه..
- على العموم الولد غلبان وما زنبوش حاجة وأنا هاكلم نبيلة وهارد عليك ..

.. وضعت أم محمود كف يدها تحت ذقنها وأمسكت قلمًا كأنها تستغيث من مجتمع المصالح.. ولكن إلى متى تستغيث .. سرحت قليلا بأفكار في رأسها ثم قالت في قرف وهو تبحث عن ورقة :

- يعني إحنا بقينا في بلد كل واحد فيها ومصالحته وتطير رقابي الأبرياء في سبيل تحقيق هدف كل واحد لوحده.. يعني كل واحد ياكل الثاني في سبيل مصالحته.. لا قيم ولا مبادئ الخوف والخنوع وذل الحياة وكل واحد في عرقوبه.. يعني الدنيا هوجة فوضى وإنحطاط.. وما كناش فاكرين إن الدنيا في البلد بقت كده.. دلوقتي وصلت الرسالة وعرفنا لما المصيبة دخلت بيتنا وخذت أعز ما لدينا .. طيب ها نعمل إيه يا صبري..

ورحت أفكر في أقاربي.. في أقارب أمي.. وكان يجب عليّ
أولا أن أبلغ خالي المستشار ع. فودة نائب رئيس محكمة النقض
سابقا وكان الوقت يقترب من الثامنة صباحا وأدرت قرص
الهاتف :

- آلو ..

- آلو ..

- أنا صبري يا خالي..

- أيوه يا بني إزّيك.. خير بتكلّمني بدري .. فيه حاجة
في تلوانه أو شنشور..

- لأ .. فيه حاجة عندي أنا ..

- خير يا بني فيه إيه.. يا ستار..

= إبنّي محمود خدوه النهاردة.. الساعة اثنين بالليل..

- من دول الليّ خدوه..

- أمن الدولة يا خالي..

- بعيد الشر ابنك عمل إيه..

- ولا حاجة..

- إزاي يا بني.. لا قنبلة ولا سلاح ولا بيلف ويدور حول
كنيسة أو معبد مالوش أي نشاط كده أو كده..
- كل ده لأ..
- والعمل يا بني.. خدوه على قسم إيه..
- قسم السلام..
- طيب أنا ها كلم العميد سامح جوز بنتي أهو في
الشرطة يمكن يعمل حاجة أو يدلنا على أي حاجة..
- طيب يا خالي أنا في البيت منتظر ردك علي..
- وحياة حميدة أختي وغلاوة ولاد أختي والحاج دردير
وشنشور كلها ها قلب الدنيا علشان محمود..
- متشكر يا خالي ربنا يبارك فيك ..
- ودبّ في داخلي بعض الأمل فهاتفت ابنة خالي ع شبايك
الدكتورة شاهيناز زوجة اللواء شاهين السيد مدير أمن سابقا..
- آلو ..
- أيوه مين ..
- الدكتورة نورا.. أنا صبرى ابن عمك حميدة..
- أهلا يا صبرى فين من زمان..

- في الدنيا ..

- عاوزين نشوفك مش تيجي تزورنا علشان نعرف
ولادك.. فاكر أبوك.. الدنيا كلها إتقطعت بعد موت عمي
الحاج دردير كان كل ما يجي مصر لازم يزورنا في منيل
الروضة.. فين بابا وفين أبوك وفين عمي حميدة.. كل الناس
الخلوين ماتوا .

وكدت أبكي وتحشرج صوتي فجأة فقالت :

- ما لك يا صبرى فيه إيه.. فيه حاجة..

- أبدا إبني خدوه..

- إبنيك مين ..

- محمود ..

- مين اللي خدوه ..

- أمن الدولة ..

- يا نهار إسود ليه..

- علشان بيصليّ الفجر في الجامع ..

- آه قولّي كده ..

- يعني إنت عارفة إن ده سبب كاف لإعتقاله..

- شوف جوزي كان لوا ومدير أمن.. إنت عارف من

سنة منع عادل إبني من الصلاة في المسجد.. كان ابني بيروح

كل وقت يصلّي.. ولما قلت له ليه.. قال لي اليومين اللي جاين فيه هوجة سياسة الوزارة القضاء على المنابت ومش ها يخلّوا حد يروح الجامع إلا ويعتقلوه.

- طيب ما قتلّيش ليه..

- هو أنا أعرف إن ابنك بيصلّي الفجر في الجامع.. ما أنت بعيد وبعدين أنا ما خدّتش فيها ولا إديت.. إسمع أنا هقول لشاهين وأشوفه إيه اللي يقدر يعمله ولو إن أي واحد بيطلع من الداخلية مهما كانت رتبته ما حدّش بيخدمه ولا يسمع كلامه.. بيني وبينك شاهين من ساعة ما خرج قطع علاقته بيهم كلّهم لأنه كان قرفان.. ولكن يا صبري خد مني وعد هاعمل قصارى جهدي وحياتك وغلاوة عمّي حميدة وعمي الحاج دردير..

- متشكر أوي معلش تعبتك..

- عيب دا إنت أخويا..

وواصلت الاتصال وهاتفت ابن خالتي الدكتور أ. الجرف أستاذ بكلية الطب وشرحت له ما حدث وشاركني أحزاني ووعدني بأنه سيبدل قصارى جهده.. ثم اتصلت بشقيقه المهندس س. الجرف رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات

وصديق شخصي لابن الرئيس عبدالناصر.. ووعدي بأنه سيفعل المستحيل، بعدها هاتفته الدكتور ح. الجرف أستاذ بكلية الطب، وما وعدني إخوته وعدني..

واتصلت بالدكتور ع.ز. فودة أستاذ الاقتصاد السياسي وسكرتير اللجنة المصرية للقانون الدولي ثم اتصلت بالمهندس ح. فودة وهو صديق شخصي لأحد الوزراء الحاليين ورئيس مجلس إدارة شركة كبرى في أجهزة الكمبيوتر.. ولما اتصلت باللواء مهندس ر. الجرف وهو زوج ابنة خالي الدكتورة عزة.. قال بتوع الجيش أبرياء من ما يفعله بتوع الداخلية وكلّمني كثيرا في الدين وأنه يجب عليّ أن أكون قويا ونصحي في أن أفكر في الله كثيرا، أن أستعين بالله عليهم وأخبرني في نهاية حديثه معي بأننا مقبلون على أيام سوداء وعليّ بالصبر وقال أن الدور علينا.. وهو كأس سيشرب منه الجميع.

وأخيرا اتصلت بالدكتور ط. الجرف وهو أستاذ القانون الدستوري.. فقال لي :

- لله الأمر من قبل ومن بعد.. والله في هذا العهد لن ينفع القانون ولا كل علوم القانون في بلد لعبوا فيه بالدستور ولم يعد الدستور دستور كل الناس ولا دستور وطن.. لقد عاد القانون في أيدي من يزيّف القانون من أجل فرد واحد أو مجموعة من

الأفراد.. والحمد لله أنني لم أنجب ولدا لأنني أيقنت الآن
وبشواهد هذا العهد الفاسد أنه كان سيكون في غياهب
السجون لأنه كان سيواصل رسالتي التي لم أستطع مواصلتها
لمرضي ولكبر سني.. شوف يا صبري إني لن أستطيع أن اتصل
بمن هم أقل مني حتى يخرجوا ابنك.. وأنصحك بأن تصبر..
ولماذا لا تكون صاحب رسالة واترك ابنك ومصيره ولا تتعب
نفسك في بلد كل أمورها تزوير وتزييف.. إنه من علامات
ذروة النفاق والفساد والطغيان أن أساتذة القانون يزورون
القانون.. يا صبري ما تجريش ورا حد وما فيش حد ها يطلع
ابنك وكل اللي كلمتهم ماحدش ها يعملك حاجة.. كل
واحد مش شايف غير نفسه وكلنا غرقانين في الدنيا ومصالحها
والعوض على الله.. وكان كلام الدكتور الجرف رسالة قوية
منعتني من الاتصال بأي أحد آخر واكتفيت من أقاربي بمؤلاء
وشعرت باليأس من أن أطلب شيئا من أحد بعد كلام أستاذ
القانون وعليّ أن أكون قويا وأن أتلفح بالجسارة والقوة وعليّ
بالصمت والصبر وأن اعتمد على ربي فقط.. وحسي الله ونعم
الوكيل.. وقفلت هذه الصفحة.. ويوم بعد يوم اعتدت التأخير
عن عملي أو عدم الذهاب فقي محاولات من التفكير الشديد
لرأب الصدع الذي أصاب بيتي وفي الليلة الرابعة من اعتقال ابني
حدثني خالي المستشار ع. فودة :

- ألو يا صبري.

- أيوه يا خالي..

- إزّيك دلوقتي عامل إيه.. فيه أي أخبار عن إبنك ..

- لأ ما فيش حاجة..

- شوف يا صبري إنت عارف أنا قعدت في الإمارات سبعناشر سنة لما كنت في النقض كنت أعرف كثير من لواءات الشرطة.. وكانوا يتمنون أي خدمة، والله يا بني دوّرت على تليفوناتهم وجبتها من الأجنداث القديمة - لقيت الليّ مات والليّ طلع والليّ تليفونه ما بيردش.. يعني لم أعثر على أي واحد ممكن يعمل حاجة.. فيه مستشار قرينا اسمه أ. المنوفي دا منصبه مساعد المدعي الإشتراكي..

- لأ يا خالي بلاش حد من عيلة المنوفي من تلوانة خالص..

- ليه ..

- في موتة أمي ما فيش حد من عيلة المنوفي جه عزّي في أمي.. دا كلام عبدالسلام ابن خالي عبدالحكيم.. بيقه إزاي نروح نطلب خدمة من واحد منهم..

- إسمع يا صبري.. المستشار أحمد ده ما لوش دعوة بعيلة المنوفي أمه من عيلة فودة قريتنا وهوّ بيحب إخوانه من فوده

أحسن من أبوه نفسه.. شوف أنا كلمته وقال لي خللي صبرى
يجيلي البيت علشان آخذ منه كل حاجة وأسمع منه.. يا صبرى
إسمع كلامي.. خد تليفونه وكلمه وهو مستني تليفونك
علشان تروح له..

- خلاص يا خالي هات..

.. ومر يومان وذهبت إلى المستشار أ. المنوفي واستقبلي
استقبالا جميلا واحتضني وقبلي وقال وهو يدخلني غرفة
صالونه :

- خالك عبدالعزيز قال لي كل حاجة.. أمي من عيلة فودة
واعتبرني مش من المنوفي خالص هوّ أنا لو أمي من عيلة تانية
كنت هابقه مستشار.. يا صبرى يا شنشوري راسك ناشفة زي
بتوع شنشور.. يا صبرى أنا خالك زي المستشار عبسالعزیز
ماهو خالك بالضبط..

- لا والله أنا ما أقصدشي.. أصل أنا متعود على حاجة من
صغرى الليّ ما يجبّش أمي ما جهوش

- دي حاجة حلوة أوي.. واحنا كلنا بنحبك وكانت أمك
الحاجة حميدة ما تقولشي لأمي غير يا عمّة فاطمة.. أحسن
حاجة في عيلة فودة الحب والتماسك والتدين وعشان كده
كنت بحب أمي أوي.. وبالتالي بحب أخوالي أوي.. شوف بقه
أنا عايز أخدمك بقلبي ودمي قوللي كل حاجة عن إنك
وخذوه إزاي .. وبعدين نقول يا رب..

.. وحكيت للمستشار كل شيء بالتفصيل عن إبنى وعن طريقة القبض عليه، وتحسّر الرجل عما جرى وقال:

- وهكذا ينحدر العدل ويضيع القانون.. على مدار الخمسين عاما الماضية وعصا الأمن تعلقو ويدنو القضاء لأنهم يريدونها في النهاية بلا قضاء وبلا عدل.. وبطول هذه السنين بين القضاء والشرطة عداوة دفينه لأن الشرطة ترفع العصا على الشعب والقضاء يحاول إنزال العصا من أيديهم حتى لا يعتدى على الشعب، والشيء المضحك أن كل شيء في بلادنا يدار بالتدخل الأمني والتخويف وقد يقول أحد من النظام..

- من قال هذا؟ وعليه لما كانت وهذه دولة، هذه أخلاقها كان قانون الطوارئ الذي به يقتحمون أي بيت ويعتقلون الأبرياء والأطفال دون أن يقترفوا شيء وهذا القانون الحقير في يد الأمن لتلفيق التهم لأي إنسان لا يعجبهم.. فهذا النظام يريدنا جميعا أن نقول له نعم آمين.. وهذا لا يمكن أن يكون فالذين يعترضون أو يتكلمون يتم اعتقالهم وإذا كان كل الشعب يرفضهم يعني كل الشعب الصامت لا يقبل بحكمهم.. فهل يعتقلون كل الشعب..

وغدا سوف يعتقلون الناس على صمتهم.. المشهد السياسي في البلد كله مرفوض لأنه الذل.. وكيف ننجو لما ابنك ياخذوه وهو طفل لم يتفوه بكلمة ضدهم وهو حفيد عائلة كلها قضاة

ومستشارين وأساتذة جامعات.. فما بالك ماذا يفعلون بأطفال
من عامة الشعب..

- يا سيدي الفاضل إن من ضمن الشباب الذين تم إعتقالهم
مع إبنى ابن بائع خضار سريح يمشي في الشوارع بعربة كارو
يجرها حمار ويقول مجنونة يا قوطة..

- إذا هم ينكلون بكل الناس.. لقد وصل هذا النظام إلى
درجة الإهيار بالفعل لأنه لا يدرك ماذا يفعل وأنه الآن ينكل
بالجميع ويستعدي كل الشعب بكل فئاته..

- ولماذا كل هذا وإلى متى يدمرون هذا الوطن..

- نحن أمام مشهد واضح قاتل وقتيل.. ظالم ومظلوم..
سوف أقتلك لتحقيق أنا .. هو يقول لنا أنا كل شيء وأنتم
جميعا جزمة قديمة.. أليست هذه فتنة.. أليس هذا ظلام الليل
الكاسح الذي دخل كل بيت.

- نحن أمام مجموعة لصوص ونصايين وسماسرة يفعلون كل
شيء في البلد وبكل بجاحة ومعهم العصا لتخويف من يقف في
طريقهم.. إن أملاكنا وثرواتنا تنهب وتباع أمام أعيننا ونحن في
غيبوبة لا ندري ماذا نفعل..

- نحن أمام مشهد الذين يهدمون الوطن والذين يبنون قلة
لم تعد قادرة على بناء طوبة واحدة الآن..

- يا سيادة المستشار في وسط هذا الجو هل هناك أمل في
عودة ابني..

- أنا ليس لي أبناء سوف أعتبره إبني وسأبذل كل ما في
وسعي.. وكل ما أرجوه منك ألا تحزن.. وقل حسبي الله ونعم
الوكيل..

- والله لا يوجد واحد في هذا البلد إلا وهو يرفع يده إلى
السماء مرددا هذا الرجاء..

- لم يعد الناس يملكون غير هذا..

- وهل يقبل الله دعاء الضعفاء.. لقد إرتضينا جميعا النذل
والمهانة..

- هذه تراكمات تعودنا عليها منذ أكثر من نصف قرن..

.. أصوات مكتومة مقهورة وآهات تصرخ من الألم في
حجرة رطبة مظلمة وعصابة سوداء شددوها على عينيه
فأصبحت الدنيا حوله يدهمها الظلام.. زعق فيه الضابط
بكراهية :

- إقلع كل هدومك يا ك ...

- حاضر.. كله كله ..

- أيوه يا ك ...

وتلعثم الطفل قليلا.. وطفق.. والسلب..

- لأ خليّه يا ك ..

وشخط الضابط في العسكري :

- إيده خلّص ..

العسكري : إيدك .. إسمك إيه

محمود : محمود يا بيه ..

..ابتسم العسكري شعر بأن له قيمة وأنه عندما دخل معهد مندوبي الشرطة دخل النجاح كله وأنه كلما يذهب إلى قريته في صعيد مصر يحكي لأبيه كم أن المعتقلين الصغار والكبار يخشونه ويقولون له يا بيه.. ويقهقه وهو يجلس بين أهله كل أجازة يقصّ عليهم حكايات جديدة عن المعتقلين وكيف يتم توثيقهم من الخلف وتعذيبهم واحدا بعد الآخر.. فيسعد كل من في أسرته على أن ابنهم له شأن كبير في الوزارة كلها وأنه أحد أعضاء الأمن في مكافحة الإرهاب..

العسكري : إيديني إيدك قلت لك لورا مش لأدام ..

وتم توثيق ذراعي محمود برباط جلدي عند رسغه.. وشخط

فيه :

- نام على ضهرك ..

نام.. وبنفس السرعة التي تم توثيقه بها وضع كرسي خشب
عريض فزق الجزء العلوي لجسد محمود ليصبح صدره ورأسه
تحت قاعدة الكرسي ليكون قيذا قويا يمنعه من أية حركة
مقاومة عندما تصعقه الكهرباء.. وسحب العسكري الذي
يرتدي ملابس مدنية.. سحب سلباً محمود فكشف عورته..
وفي صمت راح الطفل يجھش بالبكاء وملاّت الدموع وجهه
وسالت فوق الأرض حوله.. وحمداً لله أنه يستطيع أن يبكي في
حرية دون أن يري أحداً زفراته حيث الظلام وسقف المقعد
يداري هطول دموعه.. فقد أدرك منذ أول لحظة تم اعتقاله فيها
ودخوله هذا المبني أن الضابط أو العسكري سوف يسبّه حتى
على دموعه.. الحمد لله أنني أملك الآن حرية نحبي.. ربط
العسكري إصبع قدمه الكبير.. لفّ عليه رباطاً كسلك وفي
ذكره لف العسكري سلكا آخر.. وشعر محمود بأنه اقترب من
شيء مرعب أعدوه له.. وأنه لا بابا ولا ماما ولا ستو التي
كان يذهب إليها في شنشور وتحتضنه بصدرها الحنون والذي
كان يشعر بأنه أقوى .حزن دافئ يحميه.. الآن من يحميه من
يخني عليه من يأخذه من قبضة هؤلاء السفلة.. هكذا قال لنفسه
في لحظات.. هكذا تأكد له أنهم أحقر سفلة في هذه الأرض
والدليل على ذلك هو .. طفل في ثانية ثانوي عمري ما ركبت
أتوبيس لوحدي.. كان نفسي وأنا في الإعدادية أروح ميدان

الألف مسكن لوحدي وأرجع البيت.. كل ما فعلته وأحدثه
كويس أوي إني كنت بروح المدرسة الثانوي لوحدي وأشوط
الطوب في عرض الشارع.. وأكبر غلطة غلطها مدرس الدين
وكل مدرسي الدين في الابتدائي والإعدادي والثانوية إنهم لم
يدرسوا لنا أنه بين المسجد والحياة ظلمات.. أنه بين نزولي من
بتيي لأصلي وأعود إلى بيتي بعد كل صلاة أنه بين هذا وذاك
من يتبعونك من يرشدون عنك من يقولون أنك نبت في
المستقبل القريب أو البعيد ستكون إرهابيا وسوف تفعل ما لا
يُحمد عقباه.. يا سادة اعتقلت لأحاسب على شيء سوف
اقترفه في المستقبل.. وإني لم أفعل شيئا حتى الآن ولكنني سوف
أفعل.. هكذا أدرك محمود بحسه في دقائق ودار بخلده الحزين
كل هذا.. ودخل الضابط الغرفة وقال للعسكري في قرف :

- خلصت .

- أيوه يا باشا كله تمام ..

- إعترف يا محمود أحسن لك ..

محمود : اعترف بإيه ..

الضابط: كنت بتمشي مع مين ؟

محمود : مع إيهاب ..

الضابط: بتروحووا فين ..

محمود : مدرسة عين شمس؟

الضابط : وكتوا بتقابلوا مين ..

محمود: الناس الليّ في الشارع ..

الضابط: تعرف الشيخ خالد ..

محمود: خالد مين ..

الضابط : ها تستهبل يابن الوسخة ..

محمود: ليه كده بتشتم أمي..

الضابط : وأبو أبوك ..

محمود: طيب إنتو عايزين أقول إيه ..

الضابط : ها تقول يا كلب ..

.. جأر محمود بصوت هزّ الظلمات وكان شيئاً وقع فوق

رأسه.. صعقته الكهرباء في ذكره وإصبعه..

الضابط : هاتقول ولاّ لأ..

محمود: طيب قولليّ أقول إيه..

الضابط : تعرف الشيخ خالد ..

محمود: أعرفه ..

الضابط : تعرفه منين وكان بيقولكم إيه ..

محمود : أعرفه من الجامع ..

الضابط : كان بيقول إيه..

محمود: قال الله وقال الرسول ..

الضابط : غير كده ..

محمود : ما قالش غير كده..

الضابط : لأ قال كلام كثير أوي ..

محمود : مش فاكِر

الضابط: إفتكر يا ك ..

محمود: اللي عايزين أقوله قوللي عليه ..

الضابط : ها عرفك تقول إيه ..

وكأنه الموت يصعق الطفل واشتغلت الكهرباء وكاد الطفل يُصعق عندما لعب الضابط في الفولت.. وجار وزعق وانهار وسابت أعضاؤه وتأكد أنه بعد هذه الصعقة ستكون صعقة الموت.. إذا لا بد أن أقول .. ماذا تريدون أن أقول لأقول.. كما قال أعرف الشيخ خالد.. والله يا سادة لم أعرف شيخ خالد ولا شيخ بتاو في حياتي ولكن أعمل إيه.. كل حاجة إنتو عايزينها قولوها لي وأنا هاقولها وخلصوا أوراقكم وشغلك حسب الأصول وابعتونا.. شوف ها تبعتونا فين وبكفاية فضلكم عليّ إن أنتم أرحم من أي شيء.. كتر ألف خيركم رغم إن أنا عملت المصايب دي كلها وهاتسبوني أعيش.. أنتو أحسن ناس في الدنيا.. كفاية ها تخلّوني أعيش تاني.. إعملوا

ما بدى لكم ودوني طوكر بس خلّوني أعيش.. طيب بلاش
الكهرباء أحسن دي حاجة صعبة أوي.. ورغم أنني طفل صغير
كما يقولون لي احتقرت هذا الضابط كما يحتقر أي إنسان أي
أعمال بذيئة، ولكنني تحاملت على نفسي وقلت :

- إنت عاوز إيه يا بيه أنا هاعترف بكل حاجة.. بس
قوللي أقول إيه..

- إنتو كنتو بتقعدوا كل يوم بعد الفجر مع الشيخ خالد..
محمود: أيوه..

الضابط : كان بيشتم في الحاكم ..
محمود: أيوه..

الضابط : وإيه كمان ..

محمود: كان بيقول إن محمود وإيهاب وأنتم كلكم اللّبي
ها تحرروا الوطن من الكفرة..

الضابط : أيوه كده.. هات من الآخر.. وقال إيه كمان..

محمود: هيّ دي أخطر حاجة قالها واحنا قلنا له.. صح بس
هانحرر الوطن إزاي ..

الضابط : إزاي قول يا محمود ..

محمود: قال بالكفاح.. والنضال والسلاح..

الضابط : واتدربت على السلاح..

محمود: لأ بأى ملحقناش انتو مسكتونا قبل ما نعملها..

الضابط : يعني كنتوا ها تعملوا..

محمود: أكيد.. كنا هانعمل.. مش إنتو بتقولوا كده بيقسه

صح..

الضابط : وعلشان كده إحنا جنبناكم هنا..

محمود: ليك حق يا بيه.. كل واحد مننا لازم ياخذ

جزاؤه..

الضابط : إحنا صاحيين ليكم أوي.. إحنا بنمسك الناس

قبل ما يعملوا..

محمود: ربنا يحميكوا يا بيه للوطن..

الضابط : قوم يا محمود.. قومه يا عسكري.. هات غيره..

.. ومرت أيام أخرى شديدة البأس على فراق محمود وتركت السادة أقارب أمي يحاولون كما وعدوني لإخراج ابني من معتقله، لكن بمرور الأيام أيقنت أن المجتمع المدني المحترم ليس له كلمة ولا شأن في مجتمع ملأه العسكر بالظلمات وأنه كان يجب أن يكون لي قريب من هؤلاء الجلادين حتى يساعدني في الإفراج عن الطفل، وكنت حريصا على ألا يعلم أحد في البلدة من أهل أبي شيئا عن ما حدث لابني لأنهم أناس طيبون ولن يفعل أحد منهم أدنى شيء من أجل ابني لأنهم بعيدين تماما عن المجتمع المدني الفاعل فهم المجتمع المدني القابع في قرية والفعل الوحيد الممكن الحصول عليه منهم هو التعاطف وبعضهم قد يشمت.. هم أهل قرية مجتمع مدني غلبان لا يعرف للأحداث أية أبعاد، وأبلغت كل إخوتي برأيي وكانوا حريصين معي على الكتمان.. والفاعل في أخوتي والذي بذل مجهودا كبيرا من أجل ابني هو أخي محمد سامي الذي يعمل مقاولا وكان قلبه ييكى معي لحظة بعد أخرى وقام باتصالات كثيرة جدا لكنها لم تجدي.. وكان لي أخ محامي قام باتصالاته لكنها كلها باءت بالفشل وكان أخي أحمد المحامي له دور كبير فيما بعد في عمل التظلمات وقرارات الإفراج التي حصل عليها ابني واحتفظ بكل

أوراقه في ملف عنده وكان يجري مع ابني في كل مكان يذهب إليه بصفته محاميه..

.. وكنت أحب سكان شبرا مصر خاصة أهل ميدان الخلفاوي ولما كنت أشعر أنني بحاجة إلى أمي وحنانها أذهب إلى شبرا وحدي أزور خالتي وأختي وإخوتي لأنعم بالدعاء والبركة.. وفي يوم هاتفني أخي محمد سامي قائلاً :

- انت عارف عديلي لطيف ..

- أيوه عارفه..

- على العموم لطيف كريم أجري بعض الاتصالات وهو يعرف عميد في أمن الدولة..

- وبعدين إيه اللي حصل..

- لطيف حكى له ما حدث لابنك ووعدته بأنه يفعل ما يستطيع..

- كويس والله .. دي أول حاجة من جوّه..

- طيب لطيف عايزك تيجي شبرا النهاردة عندي وهو جاي بالليل علشان هاتكلم العميد واحنا قاعدين مع بعض.

- والله دا كويس.. آجي كام ..

- تعال إتغدي معانا لغاية ما يجي..

.. ولم أكن في يوم ضعيفا كما أنا الآن خاصة بعد أن وجدت أن المجتمع المدني منفصل تماما عما يحدث في البلد وهو المجتمع المدني الفاعل الذي يجب أن يكون له دور مؤثر في حياة البلاد، وأن هناك أياد أخرى تفعل ما تريده نتيجة سياسة داخلية متفق علي تنفيذها لإحكام قبضتهم على البلاد تحت أي مسمي أو سياسة خارجية تملئ عليهم لنيل الرضاء الخارجي، وأن المجتمع المدني الفاعل أو بمعنى أدق الواعي في البلاد ليس له أي دور سوى تنفيذ ما يملئ عليه من تعليمات وأوامر لدرجة أن أحكام القضاء يتم التدخل فيها، ومعنى هذا أن العدل يتم انتهاكه في أي وقت.. وعليه فالعدل قد ذهب .. أما المجتمع المدني الغلبان فهو أهل القرى جميعهم وكل سكان العشوائيات في المدن وهم جميعا بعيدين عن أي وعي وإذا كان لأحد منهم بعض الوعي فهو وعي مستهلك ضعيف ومريض بقدر معاناتهم اليومية من أجل الحصول على الطعام والشراب.. إن ما حدث لابني هو الذي جعلني أصل إلى هذه الحقائق وأن أرى بلادتي ومجتمعي بعين فاحصة وكاشفة.. وفي الموعد المحدد للذهاب إلى شبرا مصر الخلفاوي حيث يسكن أهلي جميعا وصلت إلى بيت أخي محمد سامي وتناولت الغداء مع أسرته بعدها بقليل وصلنا لطيف وزوجته.. لطيف كريم يعمل في إعلانات الأهرام منذ ربع قرن وبحكم عمله له اتصالات كثيرة وهو في بلدتنا حيث أهله عائلة سلامة الذين يقطنون جنوب القرية.. وكان لطيف له روح وأسلوب تختلف عن كثيرين في العمل في الإعلانات

أضفى عليه كثيرا من الذوق والكياسة إذا تعامل أو تحدث مع
أي أحد.. وفي هذه الليلة توصلت إلى كثير من أحوال ابني
خلف الأسوار.. بدأ لطيف كريم حديثه قائلا :

- شوف يا أستاذ صبري خلينا عمليين.. إنت عارف
محمود فين دلوقتي..

- محمود قعد يومين في السلام بعدها رحلوه إلى
لاظوغلي..

- طيب ها نشوف الجديد دلوقتي..

دق لطيف رقم العميد .. بأمن الدولة ولما جاءنا صوته :

- أيوه ..

- أهلا يا باشا أنا لطيف كريم..

- أهلا يا أستاذ لطيف..

- يا سيادة العميد ممكن أكلّمك دلوقتي..

- أوي اتفضل ..

- بخصوص محمود.. إنت عارف يا باشا زي ما قلت لك
دا عيّل وما عملش حاجة وده يهمننا جدا..

- شوف يا لطيف.. أنا كان رأيي إن الولد ما عملش حاجة وكل العيال اللي معاه.. لكن الموضوع جاي بملفات معمول فيها شغل.. وكان رأيي إن الولد يخرج لأنه ما عملش حاجة.. وسكت..

لطيف : وبعدين يا باشا ..

- لكن مش رأيي لوحدي.. كان رأي ناس تانية إنهم يترحلوا إلى طره..

لطيف: يا نهار إسود.. طره.. دي طره دي معناها إنها.. هوّ الولد عمل حاجة..

- ثوق تماما أنا عارف إن الولد ما عملش حاجة.. أنا شفته لما كلمتني .. دا طفل..

- والعمل دلوقتي يا باشا..

- الموضوع مش بتاعي.. فيه ناس تانية معايا رأيهم إن العيال دي عملت وعلشان كده راحوا طره..

- التهمة إيه يا باشا..

العميد: محاولة الإنتماء إلى الجماعات الإسلامية.

- يا نهار إسود كده على طول..

- معلىش ..

- طيب عايزين نزره.. نعمل أي حاجة ليه..

- فوت عليّ في المكتب..

- إمتي يا باشا..

- تعال بالليل أحسن..

- بكرة يا باشا..

- خلاص ..

إنتهى الحديث الحزين والذي كسى ظلالا سوداء فوق رأس كل الموجودين خاصة بعد أن ذهبت زوجة أخي وزوجة لطيف في بكاء شديدين وهم يسمعون الحوار قاس اللهجة في مرارة بالغة خاصة بعد أن سمع الجميع ترحيله إلى طره.. الموضوع خطير ياولاد وقضية ومحاولة الإنتماء إلى الجماعات الإسلامية.. يا لهوي يا خرابي.. كل ده يا محمود.. يا حسرة على العباد.. عوضي على الله.. يعوّض عليّ ربنا.. يعوّض عليّ ربنا.. وراح الجميع يقول .. عوضنا عند الله.. وحسبنا الله ونعم الوكيل..

نزل صبرى من بيت أخيه إلى الشارع وكان يشعر بأنه قد يضل الطريق إلى بيته، كان الحزن المملوء بالغضب المكتوم قد أصابه بذهول ولم يكن يستطيع أن ينطق بكلمة وكأن غصّة

قد شقت بطنه وصعدت إلى حلقه في مرارة بالغة.. لكن كلمات أخيه محمد سامي كانت شديدة الأثر وهو يضافحه مودعا.. يا صبرى إنت أبو الصبر والقوة.. احتسب عند الله.. وعمر ربنا ماهينسى إبنك واللى معاه.. خللتي بالك ربنا يمهل ولا يمهل.. .. وظل في شروده المهين وكأنه بدأ السفر ومعه أولاده إلى زمن حقير لا يعرف أحد له آخر.. وكانت سنوات الكلاب قد بدأت منذ وقت طويل ولكن صبرى لم يكن يشعر بها من قبل.. وكان كل إنسان يعيش حياة الكلاب عندما تدخل المصيبة إلى بيته وكأنهم أقسموا أن يمر كأس المرارة والذل على كل مترل، ومضى قرابة نصف ساعة وابن أخيه أحمد الذي يوصله بعربة البيجو صامت لا يتكلم يحترم شرود عمه لكنه عند ميدان الخلمية مال برأسه نحو عمه وقال بصوت مبحوح :

- ما قدرش أقول ما تزعلش يا عمي.. لكن محمود له رب مش ها يسويه.. والأمل لازم بيقه عندك انت يا عمي علسشان إنت اللي ها تطلع محمود وتراعي البيت كله.

- طيب يا أحمد إن شاء الله.. بس أنا تعبت أوي لما إبنى يترحل لطره.. صدمة كبيرة أوي..

- يا حسرة عليهم.. يا ميت حسرة على خبيتهم..

.. ومرت العربة بسرعة وسط أرتال المركبات في جسر
السويس حتى وصلنا إلى فندق السلام ونزلت إلى أرض الشارع
بعد أن صافحت ابن أخي، وأيقنت أنني ذاهب إلى بيتي لأجد
أهله ثلاثة.. وتلهفوا جميعا لسماعي.. وعندما ذكرت ترحيل
محمود إلى طره قامت أمه تهروول في كل أرجاء الشقة وتضرب
صدرها بكلتا يديها في عنف حتى مزقت ما يستر صدرها
وتقول :

- يا ويلك يا خراب بيتك.. يا حسرتك من دون النسوان
يا سميرة..

- طره يا محمود.. فين طره دي يا لهوي.. هات لي ابني ..
هات لي ابني لو كنت راجل.. هات لي ابني أو طلقني..
طلقني لو كنت راجل..

- عيب الكلام ده.. فين الإيمان بقه.. هوّ طلاقك ها يجيب
إبنك..

- أيوه.. عشان عايزة أطفش من هنا.

- إعقلي واهدي.. شوية صبر..

- منين أهدى.. عقلي خلاص راح.. إعمل أي حاجة الله
ما يسيئك..

وانحنت تحت قدميه تولول وهي تندفع لتقبيل قدمي زوجها.. وأمسك بها وقال في حنو ..

- إهدي .. الندب مش هايحيب ابنك.. وطلاقك مش ها يفيد ما تخرفيش.. ما تخريش البيت ما هو خراب .. بزيادة خراب..

.. كان وجه أم محمود نضيرا جميلا.. عاد الآن وجهها تكسوه الكآبة ونظرات عينيها الساحرة أصبحت نظرات حزينة ساهمة تائهة تبحلق في المدى البعيد ولا ترى شيئا..

.. ولما كنت أجلس على كنية الصالون في قبالتها كان محمد الصغير يلوذ بي ويكاد يلقي برأسه فوق صدري.. وبعد أن سكنت أمه قليلا عن العويل.. أمسكني من ذراعي في رقة وقال :

- محمود هايجي يا بابا مش كده..

- طبعاً هايجي .. طبعاً ..

- أنا كتبت في ورق محمود هايجي.. محمود هايجي .. وخطينا الورق تحت زجاج تراييزة السفارة..

- برافوا عليك يا محمد.. المثل يقول خدوا فالكم من

عيالكم..

- تعرف يا بابا لما محمود مشي أنا حسيت إن رقبتي
إتقطعت.. تعرف يا بابا هو أنا طول عمري عايش مبسوط
وسعيد.. محمود كان يلعب معايا ويحبني وعلى فكرة هم
كان ممكن ياخدوني يا بابا.. وسبكت..

- إزاي ..

- أنا صليت مع محمود في الجامع ثلاثة أيام.. كويس إني ما
كملتش..

- برافو عليك كويس إنك مارحتش معاه على طول..
كانت بقت مصيبة.

- أنا عايز نمشي من هنا يا بابا نروح بلد تانية .. بس هات
محمود الأول..

- لما يجي هانمشي..

- هو محمود عمل إيه..

- سياسة يا محمد..

- يعني إيه سياسة..

- السياسة يعني إضرب الشعب خليه يجري ويخاف
علشان ناكل البطة براحتنا وما حدش يشوفنا.

- وهو العدل مش كل واحد من البلد ليه حته..
- لازم يشبعوا الأول.. وإذا بقيت المصارين ياخذها الشعب وهو بيتنكلّ بيه.. أو بيتخانقوا عليها..
- ويضربونا ليه وياخدوا الأطفال ليه.. ياخدوا كل حاجة بس ما ياخدوش ولادنا..

- السفالة محور من محاور السياسة والسياسة في دول الشرق أساسها التنكيل بالشعوب وإذا ما عملوش كده ما ييقوش حكام.. لأن الناس دي أصلاً جت بالتزوير. فهي تحكم بغير رضا شعوبها. وعلشان كده هم قاعدين على كراسيهم بكر بجة الناس والتنكيل بهم واعتقالهم.. المشكلة أساسها يا بني إن ما فيش عدل ولا حرية وفيه سادة وفيه عبيد والمصيبة إن سادة هذا الزمان هم حثالة الوطن..

- ليه ربنا بيسيب الناس دي تظلم بالشكل ده
- دا موضوع كبير أوي.. هدّي نفسك يا محمد
- أنا مصدوم يا بابا.. همّ الناس دي اللي خدوا أخويا من مصر..

- أيوه ..

- وإحنا من مصر..

- أيوه..

- طيب همّ دخلوا علينا آخر الليل ليه.. وليه ماسكين كل
البنادق والرشاشات دي.. تصدّق بالله يا بابا. أنا قلت أبويا
جاسوس ولأ مجرم وجاين ياخلدوه.. وبعدين لما لقيت الحملة
دي كلها بتاخذ أخويا الليّ لسه بيشتري مصاصة لحد الآن..
أنا صعقت يا بابا.. أد كده محمود خطير.. هوّ كان بيعمل
حاجة من ورائنا..

- آه يا محمد بتقلّب مواجعي.. إنت عارف الرائد أو
المقدم ده عمره كام.. بالكثير سبعة وثلاثين سنة.. أنا كنت
بجارب في الجهة منتصف حرب الاستراف وكنا بنعيش في
النار علشان البلد كلها وهوّ كان عمره ست سنين.. كان لسه
في سنة أولى إبتدائي.. وكنت أنا وغيري بندافع عنه وعن كل
الأطفال الليّ زيه.. بندافع عن كل البلد.. عيّل زي ده قالوا
له روح أقبض على الأطفال الليّ أمّاتهم شافوا الويل في
الحرب.. هيّ دي أوسمة ولأ دي مكافآت للناس الليّ قدّمت
كل شيء للبلد في عز أزمته.. هيّ البلد ماشية إزاي - همّ
مش عارفين بيعملوا إيه..

محمد:وعلشان كده بقول هيّ فين مصر.. وهل الحقيقة إن
دي مصر دلوقتي.. يعني مصر دي بتاعة مين وليه مصر ساية
ولادها بيحرقوها.. وليه مصر ساكتة على إعتقال الأطفال
الأبرياء.. وبرضه أقولك يا بابا دورّ كويس.. أكيد إحنا مش

من مصر يا بابا تعال ندور عليها علشان نشكي ليها اللي حصل.. تعال نروح لمصر علشان تجيب لي أخويا..

- يا بني هدي ..

- يا بابا إذا كانت السماء بتحمي مصر زي ما يقولوا..
ليه الحماية ما بتحميش كل المصريين.. أنا شايف إن مصر لناس
وناس لأ.. ليه..

- المفروض إن السما بتحمي وبتظل كل الناس.

- الكلام دا كله غلط.. مكتوب في الكتب ويقولوه
المدرسين في المدارس.. هو كلام وشعارات وزيف ناس
بتضحك على ناس.. على فكرة أنا بقيت أحتقر كل المدرسين
اللي يقولوا الكلام ده.. بعدما خدوا أخويا عرفت أن البلد
كلها زيف في زيف..

- الموضوع كبير أوي يا بني وأنت ليك حق.. بس الكلام
دا كبير عرفته إزاي..

- عرفته لما إتصدمت في أخويا الغلبان.. صدمت لما دخلوا
علينا في عزل الليل بالبنادق والرشاشات.. يا سلام على قوتهم
يا حسرتي عليهم لما وطن يعتدي على وطن.. لما الضابط يعمل
راجل وبطل على الناس الآمنين في بيوتهم وياخذ ابنهم من
وسطهم بهذا الشكل الحقيير.. علشان معاه رشاش.. يعني إنتو ها

تدخلوا الرعب والفرع بيت ورا بيت مش بكفاية البطالة والفقير
دخل كل بيت.. عايزين تدخلوا إيه تاني الحمد لله المهانة والذل
والخنوع دخلوا دلوقتي كل بيت.. عايزين بعد كده تعملوا
إيه..

- ياه.. بقه كده عرفت السياسية وانت سنك إتناشر
سنة..

- بص يا بابا لو كنت راجل صحيح هات لي أخويا.. هو
دا الحق.. موت ورا حقتك يا بابا..

- الحق يا بني بقي فيه احترام لحرمة البيوت بقي فيه أمان
وكرامة.. الحق ما فيش بريء يُعتقل.. الحق يبقه فيه أمان
لبكرة.. الحق الناس في بلدها بقي ليها عزة وكرامة بصحيح..
الحق حاجات كتير ما فيش منها حاجة واحدة دلوقتي في
بلدنا..

- الحق يا بابا إن كل واحد يتمسك بحقه.. إذا كنت يا بابا
راجل من ضهر راجل وبتقول حاربت وعملت.. خد كله ده
وروح هات لي أخويا بأي شكل.. وإذا ما قدرتش خدني أنا
أجيب أخويا بس قوللسي أروح لمين.

.. لم أقل لابني محمد صاحب الإثني عشر عاما أنه تجاوز
معي.. كان الصبي على حق وأنه بالفعل لم يعد في البلد راجل

من ضهر راجل.. ولو كنت أنا راجل صحيح طويل وعريض
ما كنتوش خلدوا ابني من حضني حتى ولو دقت التمن حياتي..
لكن من زمان ما حناش من البلد.. بلد عايش فيها ناس بلا
حقوق بلا كرامة يبقى دي مش بلدي.. وراج محمد ينفعل
أكثر وقال وهو ينتقل إلى جوار أمه ويصبح في مواجهتي :

- إنت يا بابا نزلت من نظري وعرفت إنك ضعيف أوي
والناس بياخدوا أخويا وانت لا شيء.. ولم تحاول أن تمنعهم..
لا حول لك ولا قوة.. ما كنتش أعرف إنك غلبان أوي كدة..
هم كل الآباء في مصر كده.

- تقريبا يا بني كل الناس بقت كده.. هدي مع بابا يا
حبيبي.. شوية شوية هانعالج الأمور بالحكمة.

- أفهم من كده إنهم بكرة ياخدوا أمي وأختي وتقوللسي
حكمة..

- هي المشكلة الأمور دخلت في بعضها.. تعرف إني لو
عملت حركة عنف معاهم هايقولوا علي إرهابي.

- خليهم يقولوا المهم تعمل الصح..

- الصح دا كان المفروض اتعمل من زمان..

- هو مين اللي وصلنا للخنوع والذل ده..

- من سنة ١٩٥٢ وحتى الآن العسكر ربّوا فينا الطاعة
العمياء.. تمام يا فندم.. للأمام دُب شمال.. معتدال مارش..
إرفع رأسك يا عسكري..

- يعني إيه تمام يا فندم..

- يعني كل شيء ميه مية والحقيقة إن كل شيء تحت
الصفير.. للأمام هب شمال يعني إحنا بتتقدم للأمام والحقيقة
يمكن في الماشية بس وفي الشخطة بس والزعيق بس والممبكة
بس.. يعني نحدوا الشكل والبكش وكل واحد بيضحك على
التاني وسايوا المضمون والجوهر.. وارفع رأسك يا عسكري..
لأن العسكري موطني راسه مين اللي خلاه وطي راسه..
هايرفعها لحظة عشان الأوامر وبعدين ها يوطي تاني على طول
كالعادة.. والمصيبة أنا أعرف لواء شرطة يقول فيه مقولة
معروفة بتقول.. إضرب العسكري يخاف الشعب.. وهي دي
أفكار الباشوات اللي بياخدوا الأبرياء من بيوتهم.

- همّ دول من مصر..

- أيوه..

- وليه بيحكموا الناس بالشكل ده..

- علشان الناس كلها زي بابا.. زي ما شفت بابا كذبه
منسلوب الإرادة جبان ذليل..

.. وكم كنت أتمني ألا تحدث هذه المواجهة السوداء مع صبي صغير حتي لا يفقد الأمل.. وشعرت بأني أسأت التعامل مع إبني وأنقذني من الصمت الحزين رنين الهاتف.. فهرول إليه محمد الذي قال:

- أيوه بابا موجود..

- آلو

- أنا بنت خالك عبدالعزيز..

- أهلا إزيك ..

- أنا كلّمت جوزي وانت عارف إنه مأمور قسم وبرتبة عميد..

- أيوه عارف.. قالك إيه..

- قال لي إنه مالوش حد في أمن الدولة..

- ياه ماشي همّ كلهم بيقولوا كده علشان ما يجيوش أي ضرر ليهم وكل واحد عايز ياخذ ترقيته..

- والله يا صبري للأسف إنت جبت المفيد.. كل واحد ومصلحته.. ويمكن أوي يكون خايف لو سأل أو جاب سيرة إبنك إنه قرينا بيقه إحنا من أسرة إرهابيين ويخطوا عليه علامة إستفهام ويكون بكده ورط نفسه وعمره ما يترقى.. ويمكن

يطلّعه معاش من دلوقتي.. هوّ دا اللّبي ما شي وكل واحد
بيشوفها ماشية إزاي وبيمشي مع الموجة علشان مصلحته..
إحنا في زمن كلنا اتفرّقنا فيه ومش ها يلما غير الموت..

- على العموم كتر خيرك.. طيب حاولي من ناحيتك في
الجانب المدني بصفتك أستاذة في كلية الهندسة يمكن تلاقي حد
زميلك أو زميلتك تعرف حد ومن تحت لتحت يمكن المدني
يخدمنا أكثر..

- شوف يا صبري من غير ما تقول مش ها خللي حد..
حاضر علشان خاطر عمي حميدة..

- عمك حميدة راحت وراح الستر.. ومن ساعتها الغم
نازل علينا..

- معلش أرجوك ما تخلّينيش أعيط بكفاية ..
وأجهشت بالبكاء وبكيت معها وسكت الكلام..

* * * * *

ودق الهاتف مرّة أخرى.. وكانت شاهيناز ابنة خالي
شبايك الطيبية والتي بدأت حديثها معي :

- معلش يا صبري أصبر.. على فكرة مش مخلّينين
حد.. فيه هوجة في البلد.. المصيدة في الجامع دلوقتي اللّبي قايم

عليهم إن يلموا اللّٰي بيروحوا الجوامع.. تصوّر ابني كان مواظب في المسجد أبوه منعه من مدة أنه يصلي في الجامع.. الجمعة بس وييقه جنب أبوه.. أبوه.. لواء عمل كده..

- طيب ما قتلش ليه علشان كنت أحافظ على ابني..

- يا صبري الدنيا خدت الناس والناس كلها كل واحد بقه مع نفسه.. وإيش عرفني إن ابنك بيروح الجامع

- يا الله

- ما فيش غير الله..

- طيب اللواء شادي قال لك إيه..

- الحيا في الوجوه.. الواحد منهم لما يبطلع ما حدش بيخدمه هي دي أخلاقهم عالم مصالح متبادلة.. معلش يا صبري حتى لما كان في الخدمة جوزي كان سلمي جدا.. طول عمره تربية أمه مالوش دعوة بجد وعمره ما رفع راسه وخدم حد..

- يعوض ربنا.. عوضني على الله..

- على العموم يا صبري فيه واحد قريب أمي من عيلة مذكور برتبة لواء ولسه في الخدمة هاشوفه وأرد عليك.

- وحياتك على أد ما تقدري..

- وحياتك ورحمة عمتي حميدة.. عمري ما انسي طبتها
وحبها لينا راح من بعدها الود والحب والفتير المشلتت والبط..
الست دي كانت بستات تلوانة كلهم..

- ربنا يخليك ياختي ..

- معاك السلام يا صبري وعمر ربنا ما هيسيب ابنك.. ربنا
اللى ها يدافع عنه منهم لله.

وكان لي قريب لأمي يعمل تاجرا في إحدى قري الباجور
أجرى اتصالات كثيرة حتى وصل إلى عم فتوة الحزب الوطني
الذي يخدم الناس مقابل حقائب.. وكأنه كان يوم التليفونات
والذي بادرني قائلا :

- شوف أنا رحتم لعن الديناصور وحكيت له حكاية
إبنك..

- قال لك إيه ..

- شوف قاللي إن الباشا بيخدم في كل حاجة بس أمن
الدولة لأ .. هو راجل شريف الإرهابيين لأ..

- قلت له إن إبني طفل ومش إرهابي..

- قال لي إنهم طالما اعتقلوه يبقه الولد إرهابي..

- قلت له إننا مستعدين ندفع..

- قال هو بياخذ حقائب من الناس مقابل تقضية مصالح لأن ده حلال.. لكن لا يقبل حقيبة الإرهابيين لأنها حرام وهو حريص على رضا الله..

- يا حسرتي والله.. لآ والله دا راجل صاحب قيم ومباديء صحيح.. ربنا يخليه يخدم مصالح أهل بلده وهو فعلا راجل صح.. إحنا إرهابيين يخدمنا إزاي..

وتملكني شعور داخلي باليأس من الناس وأن كل واحد من حولي يحاول تخليص نفسه من حكاية إبنى.. وهكذا بدأ يتساقط أقارب أمي من مستشار إلى.. أستاذ جامعي إلى كل مناصب البلد الرفيعة وتأكدت من أنهم المجتمع المدني السليبي الذي لا يعرف إلا مصلحته أوهم بعيدين كل البعد عن المساعدة في مثل هذه الأمور أو أن كل واحد منهم يريد أن يحافظ على مسيرته في الحياة دون أن يمسه أحد بسوء.. ومرة أخرى حاولت التفتيش في أن أجد قريبا لي من ناحية والدي فلم أجد.. كان أهل أبي من الناس الطيبين في القرية أكبر شيء يقدموه لك هو واجب المواسة والعزاء عند الموت، وكان أعظم الأعمال التي قدّمها جدي لأهل عائلته أنه علّمهم كيف يعيشون شرفاء وأن

يكون لهم بيوت.. إشتري من كل واحد منهم أرضه وحرّم عليه أن يكون عاطلا أو لصاً.. كان معظمهم أشقياء يقومون بأعمال الفتونة والبلطجة حتى أواخر القرن التاسع عشر.. ومنذ بداية القرن العشرين أصلح جدي من أبي أهل عائلته فبعد أن اشتري من كل واحد منهم قطعة أرضه الصغيرة أوجد لهم أعمالا زراعية في أرضه وزوجهم وفتح لهم بيوتهم وذلك كله من عرق جبينهم ولكن بحكمته وإرادته ونصحه استطاع أن يقضي على كل لص وشقي في هذه العائلة.. استطاع أن يجعل منهم جميعا رجالا صالحين يعملون ويعيشون من كد عملهم.. إلا واحدا لم يستطع إصلاحه وهو أبو لبدة زرقا وطالونه غبراء.. كان متمردا سافلا في سلوكه ونفسيته حتى أنني أذكر وأنا في تلك القرية كرهت رجلا وامرأة.. الرجل وهو أبو لبدة زرقا.. والمرأة أم الرزق الحيتة.. أم الرزق الحيتة كانت خالة أبي متزوجة من عبدالرازق الحيتة والذي مات غريقا في ترعة البلد الكبيرة عند حنفية خليفة الأكرت.. كانت امرأة كريهة وكنت أكرهها كما أكره العمى خاصة أنها كانت تكره أمي.. لا أطيل عليكم يا سادتي.. المهم في كامل استغراقي في البحث عن واحد من أهل أبي ليساعدنا في محنة ولدي لم أجد إلا تلك الذكريات القديمة التي لا تقدّم ولا تؤخر إلا أن هذه العائلة أنجبت على مدار قرن من الزمان رجلا واحدا كانت كل

الرجوله والشجاعة فيه وهو عمي إبراهيم عوض.. هذا هو الرجل الوحيد الذي كان سيضحى بحياته من أجل ابني لو كان موجودا معي في الليلة الغبراء التي اعتقلوا فيها ابني.. كان هذا الرجل سيضحى بعمره من أجل ألا يأخذوا الصبي من حضن أبيه.. وكان مجرد استرجاع هذه الذكريات والتصورات في محاولات بيني وبين نفسي للوصول إلى خرم إبرة استطيع أن أعيد ولدي إلى بيته.. كان ذلك الرجوع إلى الماضي في قريتي كفيل بأن استجمع قواي النفسية والمعنوية لمواصلة الحياة بعد مأساة ولدي.. وأن أتأكد من أنه لا أحد يأتيني بولدي إلا الله وحده وأني بعد الله الأول والآخر ربما أستطيع بمجهوداتي إذا أراد الله أن أعود بطفلي إلى حضني.. ورحت في بكاء شديد وكان ذلك في الساعة التي تقترب من آذان الفجر.. ولما ارتفعت المآذن بنداء الله أكبر صليت ونزلت إلى الشارع أسير وحيدا بغير قصد حتى بلغت ميدان الحجاز في مصر الجديدة.. وفي هذا الميدان جلست على دكة محطة المترو المتجه إلى مساكن شيراتون.. تأملت السماء الواسعة بعيون باكية وحملت في كل المركبات التي تسير على الأرض حولي.. ولم أجد بعد طول تأملي شيئا قد يوصلني إلى أي شيء حقيقي في هذه المدينة الذي تاه أهلها واحدا بعد الآخر والتائهون القادمون أهل هذه البلدة جميعا لن تستطيع أي مدينة احتوائهم.

.. وكنت أتغيب عن عملي كثيرا في المرحلة الأولى لاعتقال محمود، وانتويت بعد تفكير طويل أن أفتح الخواجة صاحب الشركات التي أعمل فيها المدير المالي حتى يراعي ظروف في هذه الأيام ولا يعتبر ذلك تقصيرا مني.. وفي مساء أحد الأيام ذهبت إلى شارع الموسكى حيث يقع مكتبه وسط محلاته ومخازنه.. واستقبلني مندهشا لأن مسائل العمل كلها يتم مناقشتها في الهاتف وبادرني بعد أن جلست أمام مكتبه :

- خير يا أستاذ صبري.. فيه حاجة..

- لا أبدا هوّ أنا حصلت عندي مصيبة.

- يا ستار... .. ونادي السكرتيرة لتقفل باب مكتبه ونّبّه عليها بعدم دخول أحد أو استقبال أي تليفون يخصّه..

.. وحكيت له باستفاضة والدموع تكاد تنفجر من عيني كل ما حدث ليلة اعتقال إبني وما بعدها.. وراح يضرب كفا بالأخرى :

- إيه ده بس دا طفل.. إرهابي إيه.. دا حتة لو عمل حاجة ما يعتقلوهش.. شوف يا أستاذ صبري أنا تحت أمرك عايز فلوس.. أرجوك والله الخزنة تحت أمرك إذا كانت الفلوس تتطلع ابنك أقسم بعيسى والكنيسة أنا مستعد من جنيه لميت ألف..

- ياه أشكرك أشكرك.. إنت عارف شعورك دا عندي بالدنيا كلها.. أنا معايا فلوس ولو احتجت هاجيلك..

- صحيح يا ريت أعمل حاجة معاك ..

- هوّ أنا يهمني إنك تعرف الظروف اللّبي بامر بيها وأي وقت أتأخره الصبح هاكملّه بالليل..

- شوف يا أستاذ صبرى بالأخلاق والإنسانية والرجولة بقولك ولا يهّمك.. بس أنا عايز حاجة واحدة إن الشغل ما يتعطلش وإن الإدارة المالية تمشي وبس والتقارير المالية الحلوة ما تتقطعش لأن أنا بقيت أعرف كل حاجة عن شركتي.. شوف أنا ليّ النظام المحاسبي يمشي ويننفذ وما ليش دعوة حتيجي إمتي المهم حلوة الشغل تستمر والنظام المالي يتنفذ وأنت صاحب النظام واعتبر نفسك صاحب مصلحة في أن الشركات دي تمشي وتنجح..

- ياه دا كده كثير أوي عليّ.. كل ده هايكون على ما يرام وسأبذل قصارى جهدي يوميا علشان النظام المالي ييقه على طول مية مية..

- طيب إنت ليك عندي حساب تصميم النظام المحاسبي..

- بعد الكلام ده مافيش حساب بينا بقي..

- لأ معلش دا تعبك ولازم تاخذ حقك دلوقتي بالذات..

- بلاش يا خواجه إحنا بقينا إخوات..

- علشان كده .. إن كنتُ أخواتِ إتحاسبو ..

.. سكت صبرى قليلا وشعر ببعض الخجل .. فقال

الخواجة :

- لو عايز تريّحني قول..

- أنا باعمل النظام لأي شركة بعشرة.. بس عندك أنا مش

عايز حاجة بعد روك الجميلة دي..

- النهاردة الفلوس راحت البيت.. بكرة الصبح هابعت

ليك العشرة وفوقهم بوسة..

- دا كتير والله.

- دا شغل .. كفاية دلوقتي ما حدّش بيسرقني..

وصافحني في حرارة وانصرفت مسرورا .. وفي طريقة الممر

المؤدي إلى الباب الخارجي قابلتني السكرتيرة سلوى بوجهها

الجميل وشعرها الذهبي وأكتافها البالغة النعومة.. والتي هللت

لوجودي في المكتب وبادلتها نفس المشاعر حتى أني قبّلت يدها

ممتنا لمشاعرها الرقيقة وزاد ذلك من سروري وأزال كثيرا من

أحزاني على ولدي..

.. وخرجت مرة أخرى إلى شوارع الموسيقى الضيقة

وقطعتها بصعوبة حتى وصلت إلى شارع بورسعيد لاستقل

تاكسيا إلى شارع متحف المطرية.. وهناك قضيت بقية الليل في عمل متواصل خاصة مع ترتيب الأعمال وتعريف كل محاسب بتقاريره وكيف يعدّها ويضعها على مكثبي حتى يتم عمل التقارير بشكل يومي دون تعطيل وارسالها لصاحب الشركات

.. حكيت لزوجتي كيف كانت روح صاحب الشركات نحوى فقالت بصوت محزون وكأن ذلك تاريخ الوطن منذ أن ولدت مصر :

- إن ذلك قليل مما يحدث في علاقات شديدة وقوية داخل هذا المجتمع، إن أمي كان لها طيلة عمرها صديقة وحيدة اسمها مدام تريزا لم تمر هذه السيدة في يوم بأزمة إلا ولجأت لأمي، وكذلك أمي إن أول من تسأله العون هذه السيدة إذا وقعت أمي في أي شدة، وهكذا طول العمر كانت أقوى العلاقات الاجتماعية بين امرأتين تدور خلف مسجد سيدنا الحسين في الجمالية بين هذه السيدة وأمي.. كانت متزوجة من رجل يملك محلا لتصليح الأحذية والحقائب.. كان لهما بنتا واحدة تزوجها شاب مسلم.

.. الوطن واحد وكلنا واحد عدا الغباء والجهل ..

- ليس غريبا على هؤلاء أن يخلقوا الأحداث ليفرّقوا الناس ويجعلوهم فرادى، وطبيعي أن يعتقل هؤلاء الأطفال..

- لو كنت أعرف أنني سألد ابني كي يعتقلوه ما كنت تزوجت أبدا.. إنني لن أحبل مرة أخرى..

- لقد أصبح الناس جميعا يقعدون في بيوتهم ويندبون نكباتهم ويكون ويقولون كلاما حكيما.. لقد تحول الناس جميعا إلى ندايين وباكين وهذا لن يؤدي إلى شيء.. إننا يجب أن نحطم الأغلال والقيود..

- كيف ونحن نخاف الإعتقال.. نحن لا نملك إلا الكلام في زمن رديء يعيش الناس فيه مثل الكلاب.. يتركونا نتكلم كي نزداد ضعفاً ومن يتكلم لا يعمل..

- إنني أخاف عليك من أحزانك.. تتحدثين في كثير من المرارة وكأن كل الطرق في حياتنا قد سُكِّرت..

.. وامتعضت ولم تتفوه بكلمة لكنه أخذ كف يدها وقبله..

فقالت وهي تترع يدها من يده :

- ليتك تتركني وحدي.. .

- لماذا لا تنامي معي الليلة ربما يأتي الله بالفرج..

فقالت في كثير من الغتاة :

- أعرف أي فرج تريد..

- ليس من الذنب أن نروح قليلا عن أنفسنا..

- للأسف أنت رجل قليل الإحساس..
- ليس في هذا خطيئة ولا جرم.. إنني زوجك وفي حاجة إليك.. إرحمني قليلا..
- الرحمة ليست عندي.. إنني بعد اليوم لن أعطيك شيئا وأغرب عن وجهي ..
- أنت للأسف امرأة ناقصة.. أنا فعلا سوف أغرب عن وجهك ولن أمسك بعد اليوم حتى ولو عاد ابني.
- أتمنى.. أتمنى هذا.. اتركني ..
- .. فوجئت بالصغير محمد يقف خلف الباب المغلق ويبدو أنه سمع كل شيء فقلت له في عصبية :
- عيب عليك أن تقف هنا..
- لا تؤاخذني يا أبي كنت أريد أن أسمع شيئا عن إسلام..
- وماذا سمعت..
- سمعت أن أمي حرّمت نفسها عليك..
- وما رأيك في المصائب التي تتزل فوق رأسي..
- أعرف ماذا تريد يا أبي.. إنك تريد أن تذيب شيئا مما أصابك..
- إن الحزن يا محمد يكاد يدمر رأسي..

- أمي ليس عندها شيئاً يذيه.. لقد سألتها في يوم لماذا تنامي في سرير محمود ولا تغادريه .. لماذا لا تنامي في سرير أبي كما كنت.. وسكت..

- ماذا قالت لك ..

- قالت لأنني لا أريد أن أرى سرير محمود خالياً..

- وما رأيك فيما وصلت إليه أمك..

- شيء مألوف يا أبي أن تموت الأم من أجل ولدها.. ولكن..

- ولكن ماذا يا محمد..

- وصلت حالة أمي أنها تحسد الكلاب والقطط على حررتها.. إنها لن تعطيك شيئاً وعليك أن تصبر..

.. وقبّلت محمد وأخذته إلى فراشه حتى ينام..

ومرّت أيام والحال هو الحال.. وفي يوم هاتفني السيدة قوت الرضوان حرم خالي ع المستشار وكان صوتا همسا كأنها تخاف أن يسمعها أحد:

- صبرى.. اسمع.. إنت عارف د ع الدين فودة

- أيوه .. ابن عم أمي ..

- تمام.. ليه صلة بمكتب حقوق الإنسان في مصر.. إنت عارف ليه..

- ليه..

- كان ماسك في يوم سكرتير اللجنة المصرية للقانون الدولي.. روح له إحنا مش هانخس حاجة..

- أنا مستعد أروح آخر البلاد بس أوصل الحاجة..

- خد تليفونه وكلّمه هوّ ساكن في الدقي.. عرفه إنك ابن الحاجة حميدة فودة وخالك ها يكلمّه النهاردة ويديه فكره عن الموضوع.. يمكن يعمل حاجة..

.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى د. ع الدين فودة وهو أستاذ الاقتصاد السياسي وسكرتير اللجنة المصرية للقانون الدولي سابقاً.. استقبلني كما يستقبل الخال ابن اخته وحكى له بالتفصيل ما حدث وكان ردّه خانقاً ومحبطاً. حيث قال في صوت مبحوح :

- هذا هو الخط الذي نسير عليه ولا فائدة من قانون دولي ولا حقوق الإنسان.. كل شيء يتم إنتهاكه في عز النهار وتقول حقوق الإنسان.. إنها لافتات وشعارات جوفاء ولا فائدة، إنهم يعملون ما يريدونه كأن كل شيء خططوه أو هو

مخطّط لهم وينفذونه بلا أي خجل فليس هناك شعب ولا
ناس ولا حقوق ولا كرامة، إنهم لا يعملون حسابا لأي أحد..
إنهم يضربون الناس بلا تمييز وبلا عقل.. لا يهمهم شيء لقد
استعبدوا كل الشعب، وأصبحوا هم في ناحية والشعب في
ناحية..

.. وتكلم الرجل كثيرا عن القانون والحقوق والناس
والاستبداد كأنه يلقي محاضرة حتى أنني مللت حديثه المطول..
ولكنه اهتدي أخيرا إلى طلي فسكت بعض الوقت وقال :

- المكتب في المنيل.. جنب كوبرى الروضة المتجه إلى الملك
الصالح.. هناك الأستاذ فريد أبو عرفه أنني خالك وعلى
العموم دا كارت مني إديه له.. وكتب على ظهره هذا الرجل /
صبرى دردير ابن أختي أرجو أن تبذل قصارى جهدك في
مساعدته.. د. ع الدين فودة..

.. وانقضت لحظات فيها وضع صبرى الكارت في جيبه
وشدّ على يد الدكتور مصافحا وشكره وانصرف على أن
يذهب إلى مكتب حقوق الإنسان في اليوم التالي لعلّ وعسى
يصل إلى شيء..

.. وكالعادة وصلت لبيتي وحكيت لهم ما حدث بيني وبين
الدكتور وأني ذاهب غدا إلى حقوق الإنسان.. وكانت أم
محمود في غيبوبة مستمرة إذا تكلمت فدموع تنصب على
وجنتيها وإذا استمعت إلى حديثي فبعيون زائغة شريدة..

.. ولا أعرف لماذا كنت أخرج من بيتي قبل طلوع الشمس، كنت أهوى المشي في الشوارع الخالية من الناس، وكان هناك هاتفاً يصاحبني كأنه ابني ويحدثني ويمشي بجاني طالما الشوارع خالية من المارة ، ولا أحد يعرف كم كنت أعتقد في أن حديثي مع محمود كان شافياً لنفسي التعبه وأن الظلم الذي ألمّ به لا يعرف مداه إلا الله وأن الله يرى هذا الأب الحائر والمكلوم على ولده الذي إنتزعه من بين أحضانه في ليلة غيراء.. وأن الله يرى كل ما يفعله البشر من آثام، وأن قرية تلوانة تنام كأنه لم يحدث شيئاً لحفيدها، وأن قرية شنشور هي الأخرى تنام رغم أن طفلا لها قد اعتقلوه، وكان صبري يعتقد أحيانا أنه يجب أن يعم كل البلاد إذا نزل الظلم على بيت فإنه يجب أن تخرج مسيرة من القرية أو القريتين اللتان مسهما الظلم، أن تخرج مسيرة صامته تحمل شكواها إلى المسئولين في المدينة عما وقع من ظلم قد مسّ طفلا صغيرا أو امرأة أو فتاة أو رجل.. وكان يتصور أنه في ظل تقدم الزمان بالبشرية أن يكون الناس قد وصلوا إلى قدر كبير من الوعي والشفافية .. ولكن هذا لم يحدث، إن الصورة التي عليها بشرية هذا الزمان صورة مزيفة للمدنية، والمدنية الحقيقية هي مساحة النور والوعي والإدراك بكل ما هو حق والدفاع عنه مهما كلف من نفس أو نفيس، ولكن للأسف هذه الصورة والمضمون لما يجب أن

تكون عليه البشرية من وعي غير موجودة على الإطلاق، لكل جماعات الناس في شارع ما أو مدينة أو قرية تحكمها المادة الجردة من كل قيمة وأن العدل بين الناس أصبح مقطوعا تحكمه المصالح ولا يحكمه العقل العادل وأن الناس جميعا غارقين في ظلام لا ينتهي.

وكان صبرى يهرب دائما من الأحياء الشعبية، وإذا ما تخطى في يوم شارع جسر السويس إلى حي مصر الجديدة وجد الساحة الواسعة التي تستقبله وتشدّه لمزيد من الحياة البعيدة عن المشاكل، وكان يدرك تماما أنه لو كان يقطن في حي مصر الجديدة لما ذهب إبنه إلى الجامع ولم يعتقل، فهل مساجد أو زوايا أو جوامع الأحياء الشعبية قد علّمت بعلامات حمراء خطيرة، وهل يُعتقل الأطفال والأبرياء في الأحياء الشعبية أكثر من غيرهم الذي يقطنون في الأحياء الراقية، ولماذا يُعتقل أبناء الفقراء أكثر من أبناء الأغنياء وهل المال يحمي الناس من الظلم ويبعد عنهم ظلمات السجون. أم أن سطوة من يمسكون بالكرباج يجدون أنه من السهل عليهم التروّل إلى الأحياء الشعبية والتنكيل بأهلها أيا كان نوع التنكيل ويصطادون منها ما يريدونه لتحقيق أهدافهم أو لتخويف الجموع الكثيرة من الشعب..

.. كان صبرى في هذا اليوم الذي يجب أن يذهب فيه إلى مكتب حقوق الإنسان على وشك الإغماء مما وصلت إليه حالته النفسية، وكانت الساعة تقترب من التاسعة حينما كان جالساً على أحد مقاعد مترو شيراتون وكان يجب عليه أن ينهض من استغراقه وأن يعود قليلاً ماشياً بقدميه إلى ميدان الحجاز ليستقل الأتوبيس السياحي المتجه إلى حي منيل الروضة من الأحياء العزيزة على قلبه لما كان يزور حالته أسماء حرم المستشار كمال الجرف وكيل عام النيابة الإدارية في مصر.. كانت حالته تحبه كابن لها وكان زوجها فاضلاً في كل علاقاته مع أقاربها وكم كان كريماً مع صبرى أثناء دراسته الجامعية في حل أي مشكلة تقابله في تجارة الزمك حيث كان الرجل صديقاً شخصياً لمعظم أساتذتها خاصة الدكتور الجزيري والدكتور رفعت المحجوب و.. .. كانت لصبرى أيام جميلة وقوية عاشها وسط أهله جميعاً والذين أحاطوه بكل الحب في كل مراحل حياته.. أقاربه من ناحية أمه فقط.. فكيف لرجل مثله يتمتع بحب وقوة اجتماعية ترعرع .. وعاش فيها طيلة عمره.. كيف له اليوم في بأس ألم به.. بأس شديد ويشعر بأنه وحيداً يواجه هذا الظلم وحده وأن الجميع يذهبون بعيداً عنه ويتركون كرباج الظالمين يناله في قسوة..

ورغم ذلك شعر بقوة وهو يدخل البناية وصعد في المصعد حيث يقع المكتب وهناك قابل السيد فريد.. وقدم له كارت الدكتور فودة وحكى له ما حدث لابنه.. وقدم له الرجل

مشروبا باردا وحكي له عن حقوق الإنسان في بلاد العالم
الراقي وكيف حال حقوق الإنسان في مصر وأنهم يواجهون في
عملهم صعوبات كثيرة مع السلطات وفي النهاية فإنهم يقفون
مكتوفي الأيدي أمام كثير من القضايا التي تواجههم ويعجزون
عن حلها في ظل سيطرة الاستبداد والتعسف..

وبعد مرور وقت طويل وصبري يحكي مع المسئول.. وعده
الرجل بأنه سيبدل قصارى جهده هو ومن في المكتب من أجل
خاطر الطفل وأن الدكتور فودة هو أستاذهم جميعا ولن يتواني
الجميع في خدمته..

* * * * *

.. وشعرت وأنا أعود من حي المنيل إلى عملي في سنتر
النعام أن شيئا كبيرا يتهدد في داخلي ويبعث في قوة كأن شيئا
ينسكب من شعاع نافذ إلى قلبي، وأن كل الذي بذلته من
مجهود في محاولات لإخراج السجين سوف تصل كلها إلى
سراب.. إذن الذين ذهبت إليه جميعا منشغلون بمياتهم مهتمون
بوظائفهم إنهم شريحة من المجتمع المدني الذين يخدمون أعمالهم
ويغضون البصر عن أي شيء يحدث حولهم حتى ولو كان هذا
الشيء مؤلما.. وعدت إلى المركبة المكيفة حتى وصلت إلى
كوبري القبة ومنها استقلت تاكسيا إلى مقر عملي، كنت
أستغرق مع كل أحوالي التي مضت منذ انتزاع ولدي وبنفس
قوة إستغراقي في الجانب الآخر أنفقها في عملي حتى أصل به
مع المحاسبين إلى الدرجة العالية في الكفاءة كما تعودت مني
إدارة شركات الخواجة، وكنت أشعر أن سماء صافية من حب

الله تظللني وتحيم فوق رأسي ظلا يكسو كل حياتي ويشملها رغم ألم اعتقال الطفل الذي لن أنساه أبدا.. وكنت أسير على صفحات حياتي برقة بالغة وبقوة في الوقت ذاته وفي أي جانب أذهب يقترب مني صفاء السماء.. وكما كنت أرى من بعيد أن السماء يحضنها الأفق الممتد، كنت أرى أن ظل السحاب الرقيق الذي ينساب من السماء بطول رأسي ووجهي ويمسّ نبض قلبي في عطف شديد، كان هناك سرا لا أعرفه بين كل هذه الأطراف المتشابكة حولي، وأجمل شيء أن يشعر الإنسان في بلد يغطّ معظم أهله في أحوال معيشة سيئة وعقول ذات أفكار جاهلة ومتخلفة، أن تشعر وأنت في هذا الخضم الكثيف من الظلمات أنك تعيش في شفافية وأن يكون بينك وبين الله شيء جميل وشفاف وصافي ينور حياتك، وكنت أحاول دائما حجب هذا السر الذي يمنح ذاتي تلك القوة لأننا في بلاد يحسد الناس فيها بعضهم البعض على التراب..

.. وكنت دائما أتذكر صورة أبي الشيخ الحشن والحكيم في نفس الوقت وكيف لهذا الرجل الذي نبت في بيئة مليئة بالحدق والكراهية وأن حالته تلك السيدة المؤذية أم الرزق وأن من أهله الشقي والفتوة واللص.. كيف لرجل نبت في هذه البيئة أن يكون صالحا، أتخذه مثلا أمامي حتى تقوى نفسي ولا أهنم حتى أصل إلى نهاية أمري وقدري في تلك البيئات المختلفة التي تعايشت معها خلال مراحل حياتي، وإنني لما نشأت في قريتي وكان بيتنا بعيدا عن بيوت أقاربي حمدتُ الله أن بيتي كان

يقع وسط بيوت القطان وكنت أحب أهلها أكبر من حبي لأهلي، وترعرعت طفولتي مع طفولة أطفال الصاوي والقطان الذين وجدت معهم وبينهم الحب والدفء والأمان وكانوا جميعا يتسابقون على التقرب مني وحبي ومصادقتي وأنا كذلك.. وكنت أخاف من كل أطفال عائلتي ولا أندمج معهم وأحذر دائما من حارة أبو سمك الذي كان أهلها جميعا مثل الغجر.. كيف ترعرعت محفوقا بالمخاطر من حولي وكبرت وسط هذا الجهل وساعدني على ذلك حب بعض أقاربي لي مثل ابنة عمتي الحاجة أم سلامة وابن عمتي عبدالحميد الهلالي وابنة عمتي مجيدة رغم خشونة طباعها لكن كان لها قلب يتمنى دائما أن ينمو ويكبر ابن خالها.. كانت البيعة كلها كراهية يتخللها مشاعر نادرة من الحب المتقطع ولكنني كنت أعتمد في أساس طفولتي على علاقتي الأصيلة بأطفال وأهل الصاوي والقطان وكأني واحدا منهم..

.. كنت شديد الاستغراق في طفولتي لأغرف منها بعض الحب وتدفعني جذورها الأصيلة لأقاوم ما أنا فيه من ألم في بلاد لم يعد فيها إحياء أي أمل.. والآن مات أحبباء طفولتي عبدالحميد وحداد ومحمود وعبدالواحد وعبد العزيز جميعهم ماتوا ولم يعد يجيا هناك حول بيتنا القلم غير قليل منهم ضعفاء وهم بقايا من الأحباب الذين ماتوا.. فكيف لي أن أعود إلى قريتي وأنا لا أستطيع تحمّل الأحزان والذكريات.

.. كان بيتي دائما حزينا وكنت أشعر أن كل ما فيه يخنقني والصغير محمد يلاحقني بالأسئلة الحرجة وفي هذه الليلة قبل أن أنام والصغير كعادته ملتصقا بي أينما ذهبت حتى أنه يقف خلف باب الحمام ليستكمل أسئلته واستفساراته... وقبل أن أدخل في فراشي هاتفني أخي محمد سامي ليبلغني أنه نجح في الحصول على زيارة محمود في طرة.. وبأنه سوف يأتي الآن ومعه عديلة لطيف كريم لاطلاعي على التفاصيل.. وبعد نصف ساعة وصلا واستقبلتهما في لهفة وكم كانت أم محمود والأطفال سعداء بهذه الخطوة.. وكان لطيف كرجل إعلانات حلو اللسان صاحب كلمات معسولة مجاملا رقيقا وساعده على ذلك أيضا أنه عاش في السويد قرابة عشر سنين قبل أن يعمل في جريدة الأهرام ويقدم مع أهله في الشرقاوية بشبرا..

.. رحبت بهما وشكرت لطيف على تعبه معنا فقال بصوت مبسوح :

- لا يا أستاذ صبرى إن ابنك هو ابني وأنا ليس لي أعز منكم، أقسم بالله أنه منذ حدث هذا الخبر المفزع إلا وكلمت كل واحد في الأهرام أعرفه حتى أصل إلى شيء من أجل انتزاع محمود من ظلماته..

وردت عليه أم محمود كأنها لا تصدق أنه حصل على زيارة :

- صحيح يا أستاذ لطيف جبت زيارة

- طبعا .. طبعا الحمد لله .. بس هي المشكلة لإثنين بس ..

- وماله .. أنا مش هاقدر أروح لإبني وأشوفه في الوضع ده
لأني ممكن أموت .. الموقف هاييقه صعب أوي .. وعلى فكرة
مش عايزة أخته أو أخوه يروحو دلوقتي .. ممكن أبوه وأخويا
مدوح بكفاية أوي .. وبعدين يرتبها ربنا.

وردّ لطيف عليها مشفقاً :

- خلاص اللّبي يريحك .. أنا عايزك بس تطمّني وتهدي
والله محمود هاييجي بس طوّلي بالك .. على العموم أنا بكره
الصبح هاروح مع ابن عمي الدكتور ياسر مخصوص لواحد لواء
في الداخلية علشان نشوف إيه الممكن نعمله أو يساعدا فيه ..

وردّت بنفس اللفظة وكان لطيف قد أحيا أملا في داخلها :

- والله يا ريت ربنا يخليك أد كده ها تتعب لينا ..

وكان أنحي محمد سامي صامتاً حزيناً ولكنه طفق وقال لها :

- الأستاذ لطيف أخويا وأخو صبري مفيش تعب ولا
حاجة .. هوّ خدوم بطبعه ..

وأخرج لطيف كارت العميد إيهاب صلاح من جيبه وقدمه

لصبري هامسا :

- دا اللي ها تدخلو بيه.. هاتديه للمخبر أو العسكري
اللي على الباب يدخله للمقدم محسن مسئول أمن الدولة
عن سجن استقبال طرة.. التوصية مكتوبة خلف الكارت
وقراها صبرى بصوت مسموع :

- سيادة المقدم.. محسن بك رمضان.. يهمني أمر السيد/
صبرى دردير ونجله محمود أرجو مساعدتهم.. العميد.. إيهاب
صلاح - مارس ٢٠٠١..

.. وكان شيء من الصمت المحزون قد توغل في النفوس
لكن الجميع تنفس الصعداء لما ظهرت بارقة أمل في أن يروا
الصبي.

.. دقائق وانصرف محمد سامي ولطيف كريم - ولأول
مرة ينبعث نشاط غير عادي في جسد وروح أم محمود وتقوم
إلى المطبخ لتجهز لابنها طعاما ونزل صبرى لشراء الفاكهة التي
يحملها معه إلى ابنه في الصباح.. وتحدثت أم محمود مع أخيها
مدوح المصور السينمائي تحكي له ما حدث وكان شديد
الرغبة في أن يكون أول زائر لابن أخته.. وقال لأخته ماذا
تريدون مني أن آتي به لمحمود.. وبعد نقاش عن ما يجب أن
نحمله للصبي في أول زيارة اتفق مع صبرى أن يأتي هو
بالحلويات من ميدان التوفيقية وأنه سوف يحضر إلينا الليلة
ليبيت معنا ليلته على أن نقوم في الصباح مغادرين بيتنا قرابة
التاسعة لتكون في طرة البلد.. أتوستراد .. سجن استقبال طرة

في حدود العاشرة صباحاً.. وتقريباً لم تنم الأسرة ساعة من الليل وقام الجميع بعد آذان الفجر بقليل ليقوموا بالصلاة جماعة بما فيهم الصغير محمد.. وتناول الجميع فطاراً خفيفاً وشايًا وراحت الأم تعييء الطعام الذي قامت بطهيه.. وكانت تقبل كل قطعة طعام وهي تضعها في الحقيبة وتحضنها بدموعها الساخنة لأن محمود سوف يلتقي بقبلاها ودموعها وهو يتناول طعامها.. حتى وصلت مشاعرها أنها كانت تربت بأصابعها في رقة بالغة على كل قطعة من طعام ملأت بها ثلاث حقائب متوسطة الحجم.. وساعدنا محمد الصغير في حمل متعلقات الزيارة حتى أسفل العمارة ووقفت الأم وابنتها تشاهدانا ونحن نضع الزيارة في سيارة ممدوح الدايو.. وانطلقت المركبة مع كل الدعوات الرقيقة إلى حيث يسكن الإرهابي الصغير محمود في سجن استقبال طرة.. وظلّ ممدوح يهز رأسه ويتبرم بشفتيه كأنه يريد أن يقول الكثير ولما وجدته حائراً قلت له في تودّد :

- أترى أن تقول شيئاً ..

- كثير .. كثير علىّ ابننا أن يكون في هذا المكان.. هل تعرف ما الذي أتمناه.. إنني أتمنى أن يفقد محمود جزءاً من عقله حتى لا يشعر بكل ما يجري حوله وحتى لا يفقد كل عقله..

- لا أفهم..

- كيف يتحمل طفل مثل محمود ما حدث له.. لو جمّعت كل أطفال العالم ووضعتهم جملة واحدة في مكان محمود لن

يستطيعوا تحمّل الحدث الفظيع وهرولوا جميعا في فزع ليلقوا
بأنفسهم في بحر عميق من شدة الحدث..

- إلى هذه الدرجة فكرت في هول الحدث ..

- في صباح أمس قال لي مخرج كبير إنه من مدة يسمع بأن
هناك هوجة تجري في البلد، وأن ما حدث لابن أختك وكثير
من أطفال البلد.. هو مجرد رسالة إلى أمريكا تقول نحن شديدي
الحرص على مكافحة الإرهاب لدرجة أننا نعتقل الأطفال
للقضاء على المنابت حتى يرضوا عن النظام ويطمأنوا أن لهم في
مصر خير الأصدقاء..

- يقولون أن الدين لله.. والوطن للجميع.. وأنا أقول فعلا
الدين لله.. ولكن الوطن ليس للجميع.. الآن أدركت مثل
اليقين أن البلاد تذهب إلى عبودية شاملة من أجل أن يبقى
السلطان على كرسيه مرضياً عنه بأي ثمن..

- كانوا يقولون من ضمن شعاراتهم تحالف قوى الشعب
العاملة.. أين هذا الشعب العامل.. لقد ذهبوا بالجميع إلى
البطالة ثم بعد ذلك يعتقلوا أطفالهم..

- إن الظلم والفساد والبطش والبجاجة تقود الأمة جميعها
إلى العنف والقتل والإرهاب.. إن إرهاب النظام فظيع .. وأن
بلادنا مغتصبة ويعرف الناس ذلك وعليه فأنت تجد أن الجميع
يساقون إلى القهر والفقر والانهيار..

- أريد أن تبحث معي على الآتي بين أسرتنا وأسرتكم..
من يطلق لحيته.. من يرتدي جلباباً قصيراً.. أنت يا أستاذ
صيري تكتب أشعاراً عن المرأة والفجور.. أنا أقوم بتصوير
إعلانات عارية..

- لا أحد.. نحن أسرة عادية سوية ليس فيها أي تزمت أو
تعصّب.. معظم أصدقائي مسيحيين ولا أحب في الوطن كله
قدر ما أحببت في أي مواطن من صدق وحسن معاملة..

- الخلاصة لقد بدأ النظام يضرب الناس جميعاً بلا تمييز.. إنه
يستعدي الوطن كله.. لقد أصبح نظاماً أعمى لا يدرك ماذا
يفعل.. ولا يعرف من يعتقل..

- أنا أكره هذا النظام واحتقره..

- هذا تعبير يسود مشاعر الناس جميعاً في الوطن..

.. كانت العربة تحترق طريق الأتوستراد بسرعة وسط
المركبات وتهيأ لي أنني أسمع عجلاتها تصرخ وتصوت وأن
أصحاب المركبات يفسحون لنا الطريق رافةً بحالنا وكي نرى
الطفل بسرعة في بيته الحديد، وكانت ههيوّات كثيرة تلعب
برأسني وكان ظلاماً شديداً ينسلّ بين العربات في هذا الطريق
الموحش الذي يحضن المدينة قرب جنوبها حيث يحفه جبل ممتد
على يساره وعلى يمينه مباني عتيقة وأسواق قديمة واسطبلات

للبنغال والحمير وزرائب للخنازير ومدابغ جلود.. طريق على
جانبيه قسوة بالغة ووحشة قاتلة تمنى وأنت تقترب من نهايته
أن تعود كما كنت في بدايته.. وهذا ممدوح من سرعة السيارة
وبعد قليل توقف عند مجموعة من الناس تتجمع على يمين
الطريق قرب سور يحيط بأبنية كثيرة في داخله.. أشار بيده نحو
هذه المجموعة قائلاً :

- فين سجون طرة ؟ ..

تقدم أحدهم إلينا وقال :

- عايزين سجن إيه.. جنائي ولا سياسي..

ممدوح : عايزين سجن الاستقبال.. وتلعثم قليلاً ثم أردف :

- سجن استقبال طره السياسي..

هزّ الرجل رأسه وقال وهو يبتسم :

- شايف لفّة السور الجاية لف معاها أول باب على
اليمين هوّ دا مدخل المعتقل السياسي كله..

ممدوح : هوّ فيه غير الاستقبال..

الرجل : فيه المزرعة والعقرب.. كل السياسي جوّه ..

ممدوح : استر يا رب..

الرجل : يا رب .

ممدوح : أمال الحتة دي اسمها إيه ..

الرجل : شق التعبان ..

ممدوح : هنا على الشمال ..

الرجل : أيوه ..

ممدوح: يعني إيه شق التعبان ..

الرجل: معلش أصلها حته سودة.. كلها على بعضها من أولها لآخرها..

وشكر ممدوح الرجل وانطلق بالعربة وكسر على اليمين ودخل في شارع يتجه إلى حي طرة وعند أول باب على اليمين توقف.. وهروا إلينا عسكري بصوت جهوري :

- يا بيه مش هنا.. إركن بعيد الناحية الثانية.. دا باب البشوات..

- يا حسرتي والله دا بتاع البشوات.. والبشوات دول مين..

- الضباط يابيه.. معلش يا بيه دي أوامر.. وشاور بيده هناك ولازم الجانب الثاني.. جنب السور هنا للبشوات بس ..

- على العموم ربنا يبارك لك.. إنت غلبان..

- أيوالله يا بيه أنا غلبان.. ربنا يسترها معايا وخلص أيامي على خير ..

- عشان إنت غلبان ها ربيحك..

- حتى خارج الأسوار احتلوا الشوارع وقسموها لهم..
هكذا ردّ صبري حتى ركن ممدوح العربة بجانب سيارات
الزائرين وحملنا حقائب الزيارة ودخلنا في طابور طويل مع
الناس - وكان علينا أن نجتاز بابا ضيقاً يفضي بنا إلى غرفة
صغيرة بها مجموعة من الجنود والذي قام أحدهم بتفتيش
حقائبنا، فتشها وهو يحس كل كيس كأن به متفجرات
وشعرتُ بمهانة شديدة عندها تذكرت حياتي في الجندية أثناء
حرب الاستنزاف وكم قضيت مع زملائي أقسى أيام الحياة من
أجل الوطن.. يأتي اليوم الذي يُعتقل فيه ولدي ويفتَش
حقائبي عسكري جلف لا يساوي ثلاثة تعريفة.. وأيقنت تماماً
بأن الإنسانية اتهانت في هذه الأرض ولا توجد أي اعتبارات
لأي قيمة أو مبدأ وأن الإنسان في لحظة مهما كانت قيمته
يصبح كلباً أجرباً ضالاً في بلاد أعلن فيها القضاء على
الإرهاب من المنابت وبتطبيق هذه السياسة يصبح مئات من
الناس وخاصة الأطفال ضحايا تطبيق هذه السياسة المهنية..

.. وقفل سعادة العسكري الحقائب ونظر إلينا شذرا فقلت
له ونفسي مملوءة بقوة من في الأرض جميعا :

- يا حسرة على العباد.. تعالی يا ندابة إندي.

ارتبك العسكري وغير فظاظته في لحظة لشعوره بأنني قوي
وأنة من الممكن أن يكون ورائي أحد.. فقال :

- يا بيه وأنا مالي أوامرو تعليمات.. لو ما عملتش كده
أروح في طوكر..

- بس برضه مش بالفضاعة دي.. هوّ حد شايفك.. خليكو
لطاف مع الناس..

- والله يا بيه ما تعلمناش كده.. كنا قبل منا نحش الداخلية
يمكن تربيتنا كان فيها حاجات كويسة.. لكن لما دخلنا
علمونا القسوة والتجرد من الكلام اللي حضرتك بتقوله.. ما
تأخذنيش يا بيه أكل عيش إحنا خدّام الداخلية.. إحنا غنم
البشوات وعلشان نعيش لازم نحش النجيلة من على صخر
الجبل.

- يعني إيه..

- يا بيه.. زي ما بيتنكل بيّه أنا بنكل في الناس..

- طيب وبعدين يعني إنت قلت كلام حلو أهه..

- معلّش يا بيه.. يلعن أبو دي شغلانة اللّي رماني على
المر اللّي أمرنه.. ما كناش لاقين في بلادنا ناكل وهمّ
استغلوا الحتة دي.. بيحبيوا الناس الواقعة علشان ييقوا عبيد
ويطاوعوا كلامهم بالحرف.. نظام.. نظام يا بيه.. أنا إشر
أكون علشان تلومني.. معلّش أنا آسف على طريقة تفتيشي..
سامحني..

- معلّش خلاص بس بالراحة شوية على الناس.. الناس

دي كلها مجروحة شوية رق.. شوية..

- حاضر يا بيه.. بس ممكن البطاقة مع بطاقة البيه عند
العسكري اللي قاعد على المكتب مجرد هيسجل بيانها..

.. وتعاطف معي العسكري وخرج معنا حتى يتكلم ويعطينا
فكرة عن كيف سندخل إلى سجن الاستقبال وأشار إلى مبني
تحيطه حديقة قاحلة :

- دي الاستراحة إقعدو فيها لغاية ما يجي الطفطف... ..
وانقلب إلى غرفة التفتيش..

.. وفي أثناء هذا الحديث العنيف حتى تصالح معنا
العسكري.. كان ممدوح يضحك.. مرة يقهقه وأخرى يتسمم
ويقول بين الفينة والفينة :

- يا راجل لا تؤاخذه.. هو غصب عنه.. إنت عايز إيه من
بهام زي دي.. كتبر خير الدنيا إنه عرف يصلح معاك في
الأخر..

.. جلسنا في الاستراحة المزدهمة بأهل المعتقلين.. وجوه
كثيرة من شدة الحزن والمعاناة وكل واحد وواحدة له قصة مع
معتقله.. من الرجال والنساء من طبقات المجتمع الغنية ويظهر
ذلك من ثيابهم وحقائبهم التي يحملونها.. وآخرين من طبقات
متوسطة وكثيرين من الفقراء ويظهر ذلك من القفف والمقاطف
التي يملأونها بمختلف أنواع الطعام.. نساء وفتيات جميلات
أنيقات وكذلك شباب، ونساء وفتيات غلابة من المقهورين من

تحت.. من القرى والأزقة والحواري من كل أحياء القاهرة والإسكندرية من قبلي وبحري .. بوتقة شاملة فيها كل أنواع الشعب المصري.. ورجال ونساء وطاعنين في العمر ويتأوهون من شدة الجهد الذي بذلوه حتى وصلوا مع آخرين من ذويهم إلى سجن طرة الذي احتوى الجميع.. وكان هناك عدد ليس بقليل من المنتقبات منهن الأنقيات ومنهن المبهدلات.. وكان الجميع من يجلس في الاستراحة ومنهم من يقف ومن يشتري من البوفيه ومن ينتظر خارج المبنى يتأهب لأن يكون له مكانا في الطفطف.. وكانوا يندفعون للصعود ومعهم أحماهم الثقيلة حتى يمتلأ الترام الصغير الذي ينطلق إلى الداخل لتوزيع الزائرين.. حيث سجن المزرعة في المقدمة.. ثم سجن العقرب.. وهناك سجون أخرى لم يكتب عليها أية لافتة ولكن كان يتزل إليها زائرين.. ثم يمر الترام الصغير أمام حظيرة كبيرة تربي فيها عجول الداخلية.. بعدها بقليل سجن الاستقبال.. ثم يعود الترام إلى الباب الرئيسي ليأتي بآخرين.. كان علينا أن ننتظر أننا وممدوح حتى تهدأ الأمور ولا نتزاحم بهذا الشكل المهين ونحن نركب الترام.. ولما جاء الطفطف في المرة الرابعة استطعنا أن نركب دون أدنى بهدلة.. تذكرة الداخلية في ترامها بجنيه.. طبعاً سلخ برّه وسلخ جوّه وكل ده علشان العجول تتخن وبيقه لحمها طري.. من دقته وافقله.. وتعيش الداخلية ببلاش.. كله

بلاش في بلاش وعلى الناس بالدم.. من لا يحمل العصا في
بلادي ليس له نصيب في أي شيء.. وهي كده.. يا تلحق
ياماتلحقش.. هكذا كنت أهزي وممدوح يسمعني ويتسمم..
وكانت المقابر التي تتاخم سور سجن العقرب العالي هي مقابر
قديمة يبدو أنها من مدة لم تفتح.. ربما تكون هناك أوامر
لإلغائها.. لأن دفن الموتى لا يجوز في حرمة ومهابة المعتقل
الكبير..

.. وانطلق الطفطف يجوب أرجاء السجن الكثيبة وكلمنا
رأيت أنه لا حدود وأنا ارتمينا في واد سحيق لا يعرف مداه إلا
الله.. قلت عوضي على الله بصوت مسموع.. حتى انني قلتها
أكثر من سبع مرات..

ومن شدة ضيق الزائر الذين يركبون في عربتنا قال
بعضهم مؤيدا لرجائي.. أي والله العوض على الله.. ولما كنا
نقترب من سجن الاستقبال كانت هناك سيده في الخمسين من
عمرها مكلومة منكفئة على نفسها رأيتها تبكي في شدة
وتداري دموعها ولاحظت أنها بمفردها وأمامها جوال كبير
ملأته بالزيارة.. تعاطفت معها واقتربت منها ونحن نترل
وساعدتها في حمل متاعها حتى دخلنا تحت مظلة استراحة
الزوار.. كان الظل ضيقا لضيق حجم الاستراحة ورائحة من
وسخ تهب على الزوار وكثير منهم يسدون أنوفهم من شدة
رائحة الصنّان والبراز.. وسرعان ما هربت أنا وممدوح وأخذنا

السيدة معنا إلى ظل شجرة في مدخل مكتب صغير يتبع إدارة السجن وهزّ ممدوح رأسه وقال :

- إنت عارف الريحة دى جاية منين..

- منين ..

- شايف الأوضه المفتوحة هناك اللي في آخر الاستراحة.. مليانة قرف..

- مليانه وسخ..

- يعني الناس المزنوقة من الزوار هايروحوا فين.. بيخشوا أي حيلة تداريهم ويعملوها..

- وليه ما بيعملوش دورة مية بسيطة للزوار..

- ليه هم الزوار دول مين.. دا ناس كلها ولاد كلب دول أهل الإرهابين..

- ربّهم وذلمهم وعذبهم..

- يا نهار إسود إحنا فين..

.. وسرعان ما انتبه كلانا أننا لسنا من الزوار وراح ممدوح يهاتف لطيف كريم في محموله :

- إحنا وصلنا ها تكلم العميد بهاء..

- أيوه خمس دقائق اقبل.. ها كلّمك تاني..

وبسرعة إنكفأت على السيدة في ود وهي تفترش الأرض

وقلت في حنان :

- بتعيطي أوي ليه..
- إنت عارف أنا ليه مين جوّه ..
- مين ..
- ولدين .. واحد سنه خمستاشر سنة والثاني أربعتاشر ..
- وليه خدوهم الاثنين ..
- علشان ولادي كانوا بيروحوا الجامع مع بعض كل وقت
وعرفت بعدين إن دا خطر جدا وقال ياخويا الداخلية بتطبق
سياسة.. سياسة القضاء على البغو ..
- تقصدى المنايت..
- أيوه.. أيوه النبت ..
- أبوهم مجاش معاك ليه..
- أبوهم ميت.. ميت من زمان ..
- ما فيش حد ييجي معاك.. حتى يساعدك في الشيل..
- كل أهلي بعدوا عني قالولي شوف ولادك عملوا إيه..
- يا حسرتي..
- معلهش لي رب..
- ربنا عمره ما هيسيك..
- هوّ دا الأمل الوحيد.. وانت جاي لمين..

- لايني .. سنه ستاشر سنة..

- يا ضنای یا قلبی.. کمان.. فیہ ولاد صغیرین جوہ

کثیر..

- دا بیصبرک شویہ ..

- یا ریتهم كانوا سابو لي واحد..

- ربنا مش هایسیبهم.. الصبر یاستی ..

.. ورفعت الأم رأسها وشكرته، وكان صبری یرى ممدوح

یتكلم فی المحمول ویبدو علی وجهه علامات البهجة، كان

لطیف کریم قد أخبره أن واحدا من الداخل سوف یخرج إلینا

الآن وأبلغه أيضا أن الزيارة ستتم فی مكتب المقدم محسن

رمضان أو مأمور السجن كما أخبره العمید بهاء..

.. كان الزوار المزدحمون عند باب سجن الاستقبال

مندهشون لما رأوا عسكري يتقدمنا ويشيخط :

- وسّع .. وسع للباشا.. إتفضلوا یاباشوات..

وداخلني شعور بالقوة وفي نفس اللحظة شعرت بالرجل

وكان الباب ذو ضلقتين خشبيتين ضخمتين مطلوسة بسواد

كسواد محمة الفرن.. ودخلنا بصعوبة من شدة الزحام خارج

الباب واجتازنا عدة غرف یمينا ویسارا حتی أقصى اليمين حيث

تقع غرفة المقدم الذي قابلنا باهتمام وهو يرتدي ملابس مدنية،
وجلسنا في مواجهته على مقعدين من الجلد الناشف وبادرنا
بترحيب وظيفي يخلو من مشاعر الناس المدنيين الذين إذا رحبوا
بأحد رحبوا بصدق وقال :

- العميد بهاء غال عندنا.. واحنا أي خدمة من طرفه .

فقال ممدوح :

- ربنا يخليك يا بيه وتابع وكأنه يهرج .. هو الواد الصغير
دا عامل إيه عندكم..

المقدم - على فكرة أنا عارفه.. دا واد صغير أوي.. ليه ما
حشتهوش..؟

وكدت أنفجر في وجهه ولكنني سرعان ما أدركت أنني
في بيته وأن الذي يجلس فيه سجن سحيق وأنه هو صاحب
الكلمة هنا - قلت وأنا أكظم غيظي :

- نخوشه من إيه سيادتك ..

- إبعده..

- نبعده إزاي ..

- إبعده شوفو كان بيروح فين ..

- بيروح المسجد ..

- كان يصلي في البيت..

- وش عرفني إن المسجد... إن المسجد.. وسكت ..
- هي كده من زمان.. هو إنت مش في البلد ولا إيه..
وشعر ممدوح بأن الحديث يخدم بين صبرى والمقدم فدخل
ملطفاً :

- يا باشا إنت كلامك كله صحيح.. إبننا مش مترى .. يا
باشا إحنا متأسفين على تعبك معنا.. وعلى اللي ابنا عمله..
دا عيال بايظة والله يا بيه..

- مش كده.. حضرتك تبقه مين ..

- خاله ..

- بتشتغل إيه..

- مصور سينمائي ..

- طيب يعني أهله بتوع دنيا وبتوع فن.. وطفق يضحك ..
يعني أهله بايظين.. طب ليه الواد مطلعش بايظ زيك..

- أي والله كلامك صحيح يا بيه.. هو فيه أحسن من
البوظان في البلد دي.. العيل المفروض بيقه في حاله.. ماله ومال
المسجد هو المسجد ناقص عيال..

- إسمك إيه ..

- ممدوح.. ممدوح عبدالعزيز.. آخر فيلم كنت مسدير
تصويره فيلم الباحثات عن الحرية..

- ياه فعلا.. إنتو ناس المفروض بعيد خالص عن المواضيع دي!!

سعد ممدوح لشعوره أنه أخرج المقدم من التنشئة التي حدثت بينه وبين صبري.. وقال صبري في الزحمة :

- معلش الواد طلع بايظ.. لما يطلع هانريه صح..

.. ودخل علينا فجأة العميد ع. منصور مدير السجن فعرّفه المقدم محسن رمضان بأننا من طرف العميد بهاء من أمن الدولة فرحّب بنا الرجل ثم قال موجهًا كلامه للمقدم :

- أي خدمة عايزينها ..

المقدم : أبدا.. ليهم ابن هنا..

العميد : تبع جماعة؟

المقدم : دا واد صغير أهبل لموّه والسلام

العميد: حط نفسه في محيط ..

وجاملته ف كلامه لأننا لسنا في حاجة إلى صدام مع أحد :

- المشكلة المحيط واسع مش هانلاقيه.

العميد : إحنا دايمًا بنقول للناس خدوا بالكم من عيالكم..

- على فكرة كل قرابي اللي في الشرطة لواءات وعمداء حاشوا ولادهم من الجوامع من مدة.. طيب دول خدو بالهم

من عيالهم واحنا بعيد ما نعرفش إن فيه هوجة.. يا بختهم أنقذوا
ولادهم علشان عارفين لكن إحنا اتاخذنا على عمانا..

- العميد: معلش نصيه.. ياريت سلامي لسعادة العميد..
قله بس مأمور السجن.

وانصرف العميد تحت بند علاقات مشي حالك دا بس
علشان العميد بهاء اسمه جاملنا كل حاجة ليها تمن وأهم حاجة
أهم يجاملوا بعض، ولو إحنا مش من طرف حد ماكنش حد
عبرنا.. يا حسرة على القيم اللي حلت محلها المنصالح
والزيف وشيلني وشيلك.. وظل علينا الطفل لأول مرة يلقي
الأب نظرة على ابنه.. شك أول الأمر أن يكون هذا الشاحب
الأصفر ولده.. لكنه هو تبرز عظام وجهه كأنه منذ مدة يقطن
في محيط من الثلج.. يرتعش.. يرتعش رأيت نبض قلبه الرقيق
يبرز فوق عظامه التي يظهرها جلبابا أبيضاً وسخا يرتديه، تائه
شريد الذهن والمخبر بجواره يأتي به إلينا فهول إليه خاله منفعلا
غارقا في بكائه ليحتضنه بقوة. فانسأل الولد في أحضان خاله
كأنه عود كبريت، ولما ائهمر الطفل في عويل منادياً.. خالي..
خالي.. حبيبي.. لم يستطع المقدم مقاومة الموقف فانسأل خارج
مكتبته.. وكاد الطفل أن يقع لما تركه خاله لاحتضنه وأخذته
باكيا بين أحضاني فاعتصرت بقايا من الضلوع الواهنة كعظم
دجاجة مريضة وراح محمود يردد بابا.. بابا.. أنا عملت إيه..
قل لي عملت إيه.. والله ما عملت أي حاجة.. بابا صدقني..
أنا عايزك إنت تعرف كده.. هم عمرهم ما هيصدقوني.. كل

اللي يقولوه إن مجرد رحى الجامع بيقه عملت.. وإني كنت
لسه هاعمل التخين بعدين.. هم رأيهم كده يا بابا.. هم
وظيفتهم تليس تليس التهم يا بابا.. بس أنا صغير ماستحملش
تطبيق سياساتهم الجامدة دي يا بابا.. أنا حاسس إني عمري ما
هطلع من هنا يا بابا.. خدني يا بابا خدني معاك يا بابا..

وفي رقة بالغه حملته لأجلسه في حنان بيني وبين خاله وقلت
وأنا أريت على ظهره :

- ما تخافش يا بني.. ربنا معاك.. إحنا مش هانسيك..
إهدى.. قول حسبي الله..

- أنا طول وقتي يا بابا بقول حسبي الله ونعم الوكيل.. ماما
ما جتش ليه.. إزي ماما.. ماما بتعيط عشاني.. قل لها أنا
كويس يا بابا.. أنا عارف إن ماما هاتموت عشاني.. أنا عايز
ماما.. عايز ماما..

- هاتيحي المرة الجاية..

- ما جتش ليه يا بابا معاكم.. كان نفسي أحط راسي
على صدرها وأعيط..

- يعني أنا ما نفعش يا محمود.. حط راسك على صدري
وعيط..

- ما ينفعش يا بابا.. أنا عايز صدر ماما..

وتعجب المقدم من كلام الولد وتفرّس في وجهه ولو ترك نفسه على سجيتها لقال :

- يا حرام والله دا طفل.. دا فعلا فيه غلط حصل..

وفي صوت خفيض انخيت على ابني وقلت :

- حققوا معاك في إيه..

- ولا حاجة.. انت بتروح فين.. إنت بتقعد مع مين..

الشيخ في الجامع قال إن .. إنتوا كفرتوا الحاكم.. مش إنتوا رفعتوا ايديكم لما الشيخ قال.. مش كده الحاكم كافر.. ولما عذبوني يا بابا في قسم السلام بالكهرباء.. كان التعذيب شديدا كنت أشعر بأني قريبا من الموت.. فأهيت العملية القذرة وقلت للضابط.. يا بيه كل اللي بتقوله صحيح.. أنا وافقت الشيخ علي كل كلامه.. علشان أخلص يا بابا.. يعني أقول ولا أموت.. الموضوع يا بابا بالنسبة للضابط كان شغل ولازم يخلصه كويس علشان بيعتنا لاطوغلي واحنا التهم لابسانا بصحيح.

- والتهمة إيه يا بني..

- محاولة الانتماء إلى الجماعات الإسلامية..

- وانت يا محمود عارف كثير بقه عن الدين..

- أنا ما كنتش عارف أروح فين كان عندي وقت فراغ..

فقلت أروح الجامع أصلي وأسمع أي حاجة من اللي يقولها

الشيخ خالد.. مش أنا قلت لك يا بابا وديني نادي الشمس
قلت لي دا أربعين ألف جنيه اشتراك.. وضحكت وقلت يا بني
أنا راجل من الشعب.. وقلت اجنا كنا في البلد نروح نلعب في
ملعب المدرسة الإعدادي ببلاش بيقة أزي أي أذفع تمن فدان
علشان ابني يلعب.. وقلت لي روج الحراك يا بابا الغب ببلاش
مع أولاد الشعب.. رحت الحراك كان الأعراب بيجزوا ورائنا
ويضربونا بالطوب.. ما لقيتش أي حاجة تلمني غير إني أروح
الجامع أسمع كلام ما سمعتوش قبل كده ..

- يعني أنا ما قلتش لك كلام عن الدين خالص..

- بتقولني صلى وبس.. يعني إيه شرع يا بابا..

- أصل الشرع دي كلمة كبيرة أوي معناها حكم الله..

الحق والعدل والحب بين الناس..

- برضه مش فاهم..

- يا بني أنا ما قدرش أقول لك تفاصيل.. شرع الله

بالتفصيل مكتوب في كتب الشريعة اللي بيدرسها بتوع

الأزهر.. ومش مطلوب منك ولا مني أن أكون فقيه.. لكن

مطلوب منا كلنا نحب عملنا ونحسن بين الناس حتى ولو بكلمة

حلوة.. والعدل بين كل البشر والحرية وحب الوطن.. هو دا

الدين كل دين في الدنيا نزل من السماء بيدعو إلى المودة والخير

والحب والسلام بين الناس وبس ومش مطلوب منا أكثر من

كده.. وأقسم لك بالله أنا سني خمسين سنة ولا أعرف شرع الله إلا في هذه الكلمات البسيطة..

- يعني شرع الله أنا ماليش دعوة بيها خالص.

- يا بني لما تكبر تعرف كل حاجة.. والكتب فيها كل حاجة.. وكل الناس في مصر بتطبق شرع الله.. يعني معظم الناس بتحاول تعمل اللي ما يغضبش ربنا وإن ربنا ييقه راضي عنها.. الناس بتعمل اللي يرضي الله بالفطرة والناس دي كلها ما قرتش أي كتب في الدين..

- يعني ما كانش لازم أعرف الحاجات دي ولا أسمعها..

- أبدا.. يعني إنت عرفت حاجة عن الشرع اللي بيقله أي شيخ..

- أبدا.. طيب ليه بيسيوا الناس الجمانين دي تتكلم في الجوامع ليه..

- والله.. اسألهم.. يمكن يكونوا عايزين يعملو شغل..

- طيب الناس دي كبيرة على وعي في اللي يعملوه.. بس أنا ذنبي إيه.. أنا ما عرفش أي حاجة.. ليه يا بابا سببتني أروح الجامع طالما فيه خطر جاني هنا..

- والله يا بني لو كنت أعرف إن فيه خطر ما كنتش خلّيتك رحت الجامع.. وبعدين إنت من إمتي بتروح الجامع..

- من شهرين بالكثير ..
- مصيبة وحطت علينا يا بني ..
- الله يلعن كل اللسي ليهم دقن في مصير كللها...
- لا يا بني مش كده .. ما نقدر شي كنعميم ..
- أنا بكرهمم يا بابا .. هم اللسي أجاوني ..
- إنت مجرد سمعت وما عملتش حاجة ...
- ياريت ما يخلوشي أي واحد مربي دفته يقعد يتكلم مع عيال وأطفال تاني .. أنا نفسي مافيش طفل يدخل هنا تاني بالزور والبهتان اللسي حصل لي ...
- كل حاجة ليها حل يا محمود ..
- الحل إهم ما يخلوشي بتورع الديقون المجاذيب اللسي لابسين جلابيب قصيرة وعاملين خزعات ما لهاش أي لازمة وبعيدة عن الندين .. لأن الندين في الأول والآخر سلوك ومعاملة .. ما فيش حد محتاج كلامهم ولا خطبهم .. الناس دي كلها يمنعوهم من المساجد .. المساجد للصلاة بس .. وما فيش داعي للعب العيال ، وما فيش داعي برضه لأن الجوامع تبقية مصيدة لشغل أمن الدولة .
- وتنهد ونكس رأسه نحو الأرض .. فتابع معه والده بقية الحديث:

- أيوه يا بني صح بتقول كلام كبير أوي أمن الدولة لازم يستغل صح ويخللي الشعب يحبه ولازم يعمل لصالح الشعب ولأمن الشعب.. أمن الدولة هو أمن الشعب وأمن البلد كلها هو للأمان .. أمن البلاد كلها مش أمن يخوف الناس وينتهك حرمان الناس والبيوت ويعتقل الأبرياء والأطفال.. أمن الدولة لازم يكون فيه دراسات علمية وعملية وإنسانية يشتغل عليها.. هي مش فوضى.. بالشكل ده هاخلكي الناس كلها تعيش بالخوف وتكره بلدها وتخللي كل واحد يشعر تماما بأنه ليس له وطن.. يعني لما أي وطن يتعرض لاعتداء وانتهاك أجنبي مين ها يدافع عن الوطن بحب.. الشعب كله هو اللي هيدافع وأمن الدولة مش ها يقدر لوحده يدافع عن البلد.. ما تخلوش الناس تفقد وطنيتها بهذا البطش والتنكيل والظلم .. حاسبو شوية واعرفوا إنكم بتقطعوا في الوطن وبتهربدوه بس الغرور مش مخليكم دارين بأي حاجة.. ارجعوا شوية وفكروا وحاولوا تفكروا من جديد علشان سلامة وأمن البلد.. ما تخلوش الوطن غلاية بتغلي وبتزيد لهيها واطفوا النار اللي تحتها خلوا الغلاية نار باردة.. خلوها مية مثلجة اللي يشرب منها يرتوي وينحي لبلده لأن بلده بتسقيه وكفاية كي ولهيب للبلد.. .. وكان المقدم يروح خارج مكتبه ويعود ليقعد وكأنه يمارس عمله ولكنه في الحقيقة كان يمثل أنه يعطينا فرصة للحديث

مع ابتنا بحرية وفي نفس الوقت يريد أن يسمع محور الحديث مع
ابننا.. ولم يتمالك نفسه من كلام أبو محمود وقال يتصنع
الذوق وأنه من أجل خاطر العميد :

- الكلام دا خطير أوي.. يعني أنا سمعته كله.. بس غلشان
خاطر العميد بهاء سبتكم تتكلموا براحتكم.. لكن والله الكلام
تؤاخذ عليه يا أستاذ..

فقال ممدوح :

- والله يا سيادة المقدم الكلام اللي قاله أبو محمود غلشان
يقوي بيه نفسية ابنه وبعدين دا طفل قال كلام كبير أوي فرد
عليه أبوه.. والله لو تأملت كلام أبو محمود اللي قاله فعلاً
لازم تخلّو الناس تحب بلادها.. ولازم.. ولازم.. انتو بتزعلو
من الحقيقة ليه..

المقدم : بكفاية لغاية كنده.. والله فيه أمن الدولة في
لاظوغلي روجو للمسئول هناك وقدموا دراستكم بخصوص
المواضيع دي.. أنا هنا بعيد خالص عن الكلام ده.. أنا ما
خدتش ابنك اللي خده رائد من قسم السلام..

صبري : كتر خيرك إنت عملت اللي عليك وأكثر -
لا تؤاخذني أنا أب ومجروح وقلت اللي في نفسي فيه وسامحي
لو كنت غلطت..

المقدم : ما فيش حاجة .. تبغه قول للعميد بهاء إنت قلت
إيه .. علشان يعرف أنا زيكم إزاي وعلي العموم إحنا كلنا
عارفين الناس بتقول أكثر من كده .. على فكرة باق من الزيارة
عشر دقائق.

مدوح : فيه أكل لمحمود ممكن ياخده.

المقدم : أوي أوي .. بس اسأل محمود هاتدي الأكل لمن ..

محمود : لأمير الجماعة ..

صبري : ليه .. يعني إيه أمير ..

محمود : واحد كبير في الزنزانة يقولوا عليه أمير والنظام
ماشى كده أي واحد يجيله أكل يعطيه للأمير ثم الأصغر فالأصغر
والباقي من الأكل يعطوه لصاحب الأكل ..

صبري : والكلام ده في عرف مين ..

المقدم : إحنا ساينهم جوه عاملين دولهم الخاصة بيهم ..

صبري : كمان يادي المصيبة هذا يعتبر اغتصاب لكل ما هو
إنساني .. وهو ابني هيقدر على كده .. إذا جوه فيه بطش أكثر
وظلم أكثر .. وبلاوي سودة ..

مدوح : يعني واحد زي ابننا كأنه يقدم كل شيء قربان
لألهة الزنزانة .. وأنتم تسمحون بذلك .. طيب ليه ساينهم
يعملو كده ..

المقدم : برضه مش أنا.. هي كده من زمان ..

صبرى : أقسم بالله.. هذه ظلمات الجاهلية .

المقدم : علشان تعرف إن لنا حق ..

صبرى : ليكم حق مع التيوس اللي جوه.. لكن ابني لأ..
وبعدين حاطين ابني مع ناس كبار ليه.. علشان يتلوث والظلام
يغطيه.. إيه اللي بيحصل دا كده ابني ها يدمر .. أطلب نقل
إبني في زنزانة بما صغار مثله.. علشان خاطر الإنسانية قبل ابني
ما يروح منسي.. يعني لو إبنك ترضى كده..

المقدم : هو ابني من الجماعات..

صبرى : ملعون الجماعات اللي في مصر كلها .. أرجوك..

المقدم : روح للرائد اللي خد إبنك وقله إبي مش من
الجماعات..

صبرى : لأ أنا هاروح لربنا.. دا فعلا ابني راح المحيط..

.. وشرد الصبي وكان أكثر ضعفا ورأيته نحىلا هزيلا كورقة
تقطعها الرياح.. واحتضنته بقوة وكدت أدخله في ضلوعي ولما
وجدني شديد الرغبة في ألا أتركه قال وهو يمسكني من
ظهري :

- يا بابا كل شيء له نهاية.. وأجمل شيء في الموضوع كله
إني ما عملتش حاجة.. أنا مغسول بتمية البراءة أمام الله..

وقلت وخاله يأخذه من حضني :

- أد كده كلامك كبير ..

وقال وخاله يحضنه موجهها كلامه لكلينا :

- أنا جوّه مش بفكرّ إلا في الله رغم أنني لا أعرف
تفاصيل شرعه.. أفكرّ في الله بقلبي..

.. ولما تركه خاله وقف بيننا وأردف :

- إن قلبي يشده نور غريب لدرجة أنه يجعل ظلام الزنزانة
وضيقها ضياءً واسعة.. إن كل ما يحدث حولي مسرحية هزلية
من شدة ظلام ما يحدث حولي سواء من إدارة السجن أو من
الشيوخ.. إنني دائما أضحك في داخلي وكأنني أسخر من هذا
العالم الذي ولدت فيه.. وهل يدخل أطفال العالم مثلي عالما
مثل عالمي في بلادهم..

.. أبي إن هؤلاء الشيوخ ليسو من البشر.

.. هل كانت لهم بيوت تربوا فيها مثلي..

.. كنت أسمع عن حثالة الناس في أي مجتمع.. أكيد هؤلاء

حثالة بلادي..

.. إن اليد التي جاءت بهذه الخثالة هي اليد التي جاءت
بالبراءة هنا ..

.. لا تخزن يا أبي إنني قوي ولكن من ناحيتك حاول أن
تخرجني من هذا الظلام..

وأمسك بيد خاله وابتسم وقال وكأنه يهزر معه :

- يا نخالي شوف رقاصة عندك أو عريانة متن يتسوع
الإعلانات يمكن تقدر تخرجني..

وانترع محمود الضحك من صدر كلينا الحزين وهز ممدوح
رأسه كمن سيحاول بهذه الطريقة وقال :

- حاضر يا محمود.. والله اقتراح كويس.. وليه لأ..

.. وكان المقدم في هذه اللحظة يعود إلى مكتبه وهو يبتسم
ابتسامة تعود عليها مع كل زائر كوسة وقال :

- تحت أمر البهوات عايز حاجة تانية يا محمود ..

وشكره كلانا وصافحناه. وخرجنا من مكتبه ومحمود يتقدمنا
ومعه المخبر الذي يحمل حقائبه ودخلا في رواق طويل واختفيا
وكان كلانا بقلبه الواهن وعينه الزائغة الشريفة النظرات تودّع
الصبي من ظهره والذي كان يلتفت إلينا ويلوِّح لنا بكف يده
حتى اختفى في ظلام الرواق السحيق..

غادرت سجن الاستقبال بشعور بائس يكاد يمزق صدرى على ولدي.. وكان ممدوح يهدئني وهو يداري دموعه حتى وصلنا إلى البوابة الكبيرة لكننا خرجنا من الباب الصغير للزوار، ولما انطلقت بنا العربة في طريق الأوتوستراد المتجه إلى حي العباسية كانت يد ممدوح ترتعش طول الطريق وكانت عجلة القيادة تكاد تفلت من كفيه، وظللت أدعو لولدي وأدعو على من أخذوه واهموه وسجنوه حتى وصلنا إلى جامعة عين شمس، ونزلت أنا لأكمل الطريق إلى جسر السويس حيث منزلتي وذهب ممدوح إلى أحد مواقع التصوير لاستكمال تصوير فيلم سينمائي.. وفي البيت وجدت زوجتي متلهفة لسماع كل شيء عن ولدها بالتفصيل.. وحكيت لها كل ما حدث مرآت حتى تطمئن على طفلها وراحت تدعو له كما فعلت وتدعو عليهم إلا أنها راحت تكرر بصوت عال:

- ياه أد كده كبرت يا محمود.. يعني كنت بتحاول تنتمي للجماعات الإسلامية واحنا مش داريين.. ما كنتش أعرف إنك خطير أوي كده.. يا ترى طالع لمن لأبوك اللي عمري ما (برأه) أبدا من معرفته بنسوان غيري.. وأحلف بكل الإيمان إنه بيكتب الشعر علشان بيعرف نسوان.. يعني أبوك بتاع نسوان.. وخالك بيصور العرايا في الإعلانات والأفلام.. يعني إنت يا بني من تحت وفوق ابن ناس عايشين الدنيا وبس.. إيش

معني إنت طالع خايب كده ما طلعتش بايظ زي أبوك ليه.. يا
حسرة عليهم طيب لما تعتقلوا العيال ما تشوفوا أهاليهم مين..
لكن كل اللي عايزه أعرفه لما كنت بتحاول تنتمي
للجماعات الإسلامية ما عرفتش ننتمي ليه.. كنت بتترحلق
على السلم اللي إنت طالعه ولا ربيت دقنك وملت ناس
حواليك ونزلت فيهم يا شرع.. دا إنت مش حافظ من القرآن
غير الفاتحة.. قوللي محاولة إنتماءك كانت إزاي نقسي أعرف
كنت بتحاول وهم شافوك يا سلام على يقظة الأمن.. دي ناس
فعلا بتعرف تعمل شغل إزاي علشان يوصلوا ويترقوا على
رقاب الأطفال الأبرياء.. تعالوا يا ناس آدي الجمل وآدي
الجمال.. إبنى كان بيحاول إزاي..

وتركت الزوجة تولول وحدها في البيت.. لقد كان جو
البيت حزينا ومؤلما.. تركتها وذهبت إلى عملي في ستر
الخواجة.. جلست في غرفتي الزجاجية والتي منها أرى أكثر من
ثلاثة عشر محاسبا ومحاسبة حولي في نصف دائرة يقومون
بأعمالهم، ولما جلست إلى مكنتي جاءتني المديرية التنفيذية ماريانا
بالكثير من الأوراق والتقارير والبيانات والتي كتبتها على
الكمبيوتر لاطلع عليها وأوجهها.. وكان مكتبها الصغير وعليه
جهاز الكمبيوتر يقع في نهاية غرفتي الكبيرة قريبا من الباب..
كانت لها بعض الملامح التي تجمعها مع المحاسبة مني مصطفى

والتي كانت تعمل معي في فرع وزارة النقل والمواصلات بمدينة
الموصل بالعراق منذ أوائل الثمانينيات.. لكن ماريانا تتفوق
عليها في الكثير.. أكثر منها علماً ورشاقة وثقافة وأشيك في
كيفية ارتداء ملابسها الجميلة والتي تظهر جمالها الرائع في رقة
بالغة.. كنت عندما أتحدث إلى ميني في العمل أو في أي أمور
أخرى تأخذني إلى تحت.. لكن ماريانا كانت تأخذني إلى
أعلى.. هذا الشعر الأسود الفاحم الذي يتدل على كفيها
كشجرة ظل، قسماات وجهها كشعاع ينعكس من خلاله كل
دلالات السحر التي تنسدل على ثغرها كالبسمة السحرية التي
لا تنتهي.. أشياء في وجهها الجذاب أقوى من أن يقاومه كاتب
أو شاعر.. كانت رواية أو قصيدة شعر لم تبدأ بعد.. وكانت
توقد النار في داخلي في بروز صدرها النافر والتفاف أردافها في
استدارة عود القصب الذي كلما حاولت ثنيه إنثني وتقع منه
العسل الأبيض.. ولما كنت أفكر في سبب نجاحي الباهر في
هذه الشركة كانت ماريانا هي العامل الأول في نجاحي في
إخلاصها في العمل.. وفي توددها الحميم نحوي.. وأنفقت وقتا
كبيرا لماذا تظهر لي كل هذا الود والاهتمام وتتفاني في عملها
إلى درجة كبيرة جدا ليكون في أجمل وأقوي صورة أمام
صاحب الشركات.. فهي المديرية التنفيذية لكل الشركة
وسكرتيري وهي المحاسبة الإدارية الأولى وأكفأ من يعمل على

الكمبيوتر.. وهي الحماية عني وعن الحق وهي العين النافذة في تشغيل المحاسين ومراقبة أعمالهم.. ومع كل ذلك فهي شديدة التدن.. فعندما تنتهي من بعض أعمالها تقرأ في كتاب دينها، ولم تكن مترمته أو متعصبة ومجاملة.. هي مصر الراقية قبل عام ١٩٥٢.. وعندما كانت تسمع آذان الصلاة يصدق من المساجد تقول لي.. إن قلبي ينشرح.. وكانت ماريانا تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما من مواليد برج الحمل.. وهي من مواليد إحدى القرى في الدلتا.. وفي مرة قالت : إن التي ولدتني داية تدعي أم هاني.. وكنت أندهش أن الداية التي ولدت ماريانا هي نفس الداية التي ولدت في القرية شلبية وستية وإبراهيم الطنبي وفوزي المورجي وغيرهم من أشراف وأجلاف أي قرية.. وقلت في نفسي وليس السر في الداية ولكن السر في الولادة.. ولما كنت أستغرق في حياتي اندهش أن الذي أحزنتني وأنزل السواد في حياتي أناس من مصر وأن الذي يسعدني ويهز حياتي ماريانا وهي من مصر.. فهل ينقسم الناس في مصر.. أناس يمسكون العصا ويعتقلون الأبرياء وفي نفس الوقت يعتقلون أشقياء وسفلة أصحاب الخزعيلات والذين يلوثون دين الله بذقونهم العفنة وملابسهم القصيرة و.. و.. وشعب آخر يتجمل الذل والفقر والحرمان والبطالة والجهل والمرض.. وشعب ثالث في الوسط يعمل في شركات المدينة

ومصانعها وبنوكها وهؤلاء يمثلون المجتمع الوسطي والمدني
الراقي والذل ما زال متماسكا رغم أنه بدأ ينهار في صور
وأشكال أخرى.. وإن ماريانا إحدى الصور الجميلة التي ما
زالت واجهة مصر تتزين بها.. والغريب كيف تضعون ماريانا
ومن هم في مثلها في كفة واحدة مع ستيه وشلية والطنيني
والموريحي.. أو كيف تضعون الطفل البريء محمود مع شيوخ
من بيئات منحلة يتمسحوا بالدين ويلوثونه بمعتقداتهم المريضة
وأفكارهم الجاهلة.. كيف تضعون الطفل البريء مع الشيوخ
في زنزانة واحدة..

.. ومرّت الأيام.. وفي يوم أودعتها سر الذي حدث
لابني.. وزاحت تبكي بكاءً شديداً في مكثي ولكن دون أن
يلحظها أحد وهي تضع وجهها أمام شاشة الكمبيوتر وكأنها
تندمج في العمل.. وفي يوم آخر أودعتها سر أن زوجتي تمتنع
عني لحزنها الشديد على ولدها ولخوفها أن تلد ولداً آخر
يعتقلوه.. وكلما أودعتها شيئاً من أسرار حياتي بكت من كل
قلبها وبدأت تحيطني برعاية أكثر واهتمام أشد وود أقوى مما
كان عليه من قبل، وفي كل يوم تتكلم معي في أمور كثيرة حتى
عرفت كثيراً من حياتي.. وجاء يوم قالت لي في رقة بالغة :

- أريدك ألا تحزن.. أريد أن أسرى عنك وأن أكون قريبة
منك حتى أدفع عنك البأس الشديد..

.. وقلت وأنا أمعن النظر في دفتر أمامي وهي كأنها
مستغرقة في عملها بالحاسب :

- أنا جد ممتن لمشاعرك الطيبة نحوي ونحو قصة ابني وكل
شيء في حياتي.. وأنا كثير في داخلي يشعر نحوك بالألفة
والراحة..

- أجمل ما فيك صوتك القوي.. نبراته.. أعماقه.. بجأحك
في عملك .. حزمك .. رقتك.. مشيتك.. كل شيء فيك
رائع.. هذا في جانب.. أريد أن تترك كل هذا.. تعال الآن
ناحيتي.. أريدك أن تهتم بي.. أن تعبرني شيئا من اهتمامك..
أريدك أن .. وسكتت .

ثم أبعدت وجهها عن الشاشة قليلا ورجعت خطوة
بالكرسي الدوار والتفت بوجهها إلى الخلف نحوي وكأنها
حريصة على أن تودعني سرا ولا يسمعه أحد .. وهمت :

- أقول لك عني شيئا لا يعرفه أحد هنا..

وأصغيت لها :

- أنا سيدة.. أرملة منذ أكثر من عشر سنوات.. زوجي
مات في حادثة.. وأعيش مع أمي..

.. ثم تقدمت مرة أخرى حتى لاصق وجهها وجه الحاسب

ثم تابعت تقول :

- ليس لنا أحد في القاهرة.. نعيش أنا وأمي في مدينة كبيرة كهذه وحدنا.. ليس لنا صلة بأحد.. حتى الأقارب منهم من مات ومنهم من هاجر ومنهم من لا نعرف عنه شيئاً..

- لا تخزي يا ماريانا على شيء.. كل إنسان في هذه المدينة يعيش وحيداً حتى الذي له أقارب وأهل.. أصبح الناس في هذا الزمان فرادى وكأن شيئاً قويا يتسمهم.. وسوف أكون لك أمنيًا على ما أودعته عندي من سر..

- لقد أودعته كل أسرارك.. فكيف لا أودعك سرّك.. إنني في حاجة لأن أتكلم معك كثيراً..

- لماذا لا تزورنا في البيت.. إن أمي تعرف عنك كل شيء.. عندما أعود إلى أمي كل يوم ليس لي حكاية معها إلا الحديث عنك..

- يشرفني أن أزوركما في البيت ويسعدني أن أرى والدتك.. ويسعدني أكثر حديثك عني..

- قلت لك أننا لسنا لنا أحد.. ومن كثرة كلامي عنك فإن أمي تشتاق لأن تتعرف عليك..

- أنا تحت أمر الجمال.. إنه لشرف لي.. لك أن تحددني اليوم..

- أنت الذي تحدد.. نحن نستقبلك في أي وقت تشاء..

.. عصرت ماريانا ورقة براحتها وكأها تلتقط سعادتها
فرحة بأناملها الرقيقة..

.. ومنذ لحظة هذه الدعوة وابتهج قلب صبرى وراح يفكر
في شيء آخر سعيد أدخل السرور إلى قلبه.. حزن شديد على
ولده وسعادة بالغة بدعوة ماريانا.. إنها امرأة فيها كل معاني
وسمات الأنوثة.. إنها المحاسبة المثقفة.. هي العون في العمل وهي
المرأة التي يذهب إليها خياله حتى قبل هذه الدعوة.. فمنذ أن
قست عليه زوجته ومنعت عنه معاشرتها وهو قد لجأ بالفعل إلى
ماريانا نفسياً وتلقائياً يفكر فيها..

.. كانت الربيع هو برباينه ينزرع تحت رموشها.. هي
اللحظة الجميلة والخطوة في وقعها كأها دقات قلب والشعر
المنثور على كتفها لولاه لعادت قبلات كل العاشقين جوفاء..
هي طائر هائم فوق سفح جبل يطل على نهر صاف.. هي
السنابل والزهر والشجر الظليل والقمر الذي ينير الليل.. هي
ليل العاشقين ونهار المحبين.. هي النبع الذي يرتوى منه الحب ..

وفي يوم قال لها :

- يا خط الكحل في عينيك ..

- إنه يسكن فيها من أجلك ..

- من أين اشتريت الكحل؟

- من سوق الحب ..
- وهل هناك سوق للحب.. وأين؟ ..
- لقد أقمت سوقا للحب في قلبي.. ومن هذا السوق
تكحلت.. ولولاك ما تكحلت..
- إنني لم أبع الكحل مرّة في حياتي.. فكيف يكون عندي
سوقا للكحل..
- المرأة تتكحل للرجل الذي تحبه.. ولولا الحب ما كان
الكحل في عيون المرأة..
- منذ متي تكحلت ..
- منذ أن رأيتك بدأت أحب كل شيء في حياتي.. وبدأت
في تكحيل نقطة من عيني وفي كل يوم أزيد نقطة بمقدار ما أراه
كافيا لأن تلتفت إلي.. ولما وجدتني أجذك مليء قلبي تكحلت
في كل عيوني وأصبحت عيوني كلها كحل..
- أنت يا ماريانا أريج العطور..
- وأنت ظلّي وسماي ..
- أنت نسّمات الطيب على قميص حريري..
- أنت تسحرني بكلماتك..
- ولولاك بدون ماريانا الحسناء ما كانت قصيدة جي..
- وأنا لك.. أقسم أن تكون لي وحدي.. عسدي يا
صبري

وفي أول خميس بعد هذا الإطراء الذي منحه كل منهما
للآخر.. ذهب صبري لزيارة ماريانا.. وعندما دخل بيتها شعر
أنه يعبر بوابة الأحزان إلى بوابة أخرى.. كان بيتها من طابقين
تلفه حديقة صغيرة داخل سور عال يحضنها من الجهات
الأربع.. حديقة شبه جرداء غير معتنى بها.. شجرة مانجو عتيقة
يمينا وشجرة ليمون على اليسار غير أن النجيل الأخضر الكالج
قد انتشر في أرجائها بدون تنسيق في أرض مشققة من شدة
حاجتها إلى الماء.. باب الحديقة حديدي ثقيل مرتفع بارتفاع
السياج زينت ضلفته بزجاج سميك في الجزء العلوي منه.. دفع
الباب الثقيل ودخل ثم أعاده مقفلا كما كان.. دخل الباب
الرئيسي للبيت وترك الطابق الأرضي المقفل وصعد للطابق الثاني
فوجد بابا خشبيا كبيرا وعليه لافتة.. منزل السيدة ذكية
الديب.. هذا هو.. كما وصفته ماريانا له كيف يدخل وكيف
يصعد من الباب الرئيسي فيجد الطابق الأول مقفلا ثم يصعد
إلى حيث باب البيت الذي تعيش فيه السيدة ذكية وأبنتها
ماريانا.. هكذا وصفت له وبكل دقة نفيذ ونجح حتى صعد
إلى باب بيتها وطرق الباب..

وكان شيئا يطرق رأسه ودقت نبضات قلبه كشاب في
العقد الثالث يذهب إلى حبيته.. احتضنت ضلفة الباب وهي
تفتحه ووجدته أمامها كالصرح ومدت له يدها مصافحة
وشدت عليها بقوة فأمسك كل منهما كف الآخر وسكتا فرفع
أناملها برقة إلى فمه وقبلها وأسعدها ذلك وكادت تطير من

فرط سعادتها وقالت بصوت عال وكأها تعلن نبأ وصوله إلى كل قطعة أثاث في البيت :

- ماما.. الأستاذ صبري وصل.. صبري يا ماما.. ..
تقدمت خطوة وأدخلته غرفة صالون فسيحة تكتظ بالمقاعد الفخمة المرصع جنباتها بمياه الذهب القديمة والتي كلما مرّ عليها الزمن لمعت وتألأت .. جلس ورحّب به وقعدت في مقابله لحظة ثم دخلت إلى والدتها وهي تنادي بصوت خفيض ماما.. ماما .. وراح يتأمل أرجاء الغرفة الكبيرة والتي عملاً حيطانها لوحات لمناظر طبيعية وقصور وشوارع لمدن أوربية قديمة.. وكان يتوسط اللوحات صورة لرجل مصري يرتدي جلبابا ويلف رأسه بشال عريض.. هو رجل ريفي أو صعيدي.. قد يكون والد ماريانا أو جدّها.. وكان وجه الرجل لما راح يدقق النظر إليه فيه شيئا استوقف صبرى فأخذ يتمعنه بين الفينة والأخرى وكأنه رآه من قبل، مرّت دقائق بعدها حملت إليه ماريانا صينية كبيرة امتلأت بثلاثة أطباق.. كيكة ومكسرات وثالثها تشكيلة من الحلوى.. ثم حملت إليه دورقا من صاج يصعد منه دخان شراب ساخن يبدو أنه شايا وحوله جلاسات فارغة وملاعق وسكرية وصينية أخرى يتنوع فيها البارد.. بيسي.. ميراندا.. سفن.. وقال لها صبرى وهي تروح وتحيء وهو مندهش :

- أليس لك أن تهدأي .. ماهذا الذي أتيت به .. إنه يكفي
لأكثر من عيد ميلاد.. أرجوك .. كفي لا تأتي بشيء آخر..
أين ماما؟..

.. ولما دخلت عليه كان صوتها وعبارات الترحيب قد
سبقتها قبل أن يراها أمامه..

- أهلا أهلا.. أهلا بالغالي.. نورت بيتنا يا غالي..

.. ونورت فقام إليها وانحنى قليلا وصافحها وانحنى ثانية
ليقبل يدها واستطاعت أن تأخذها من يده وهي تردد..
أستغفر الله يا بني.. أستغفر الله.. كما قالت ماريانا أكثر :

- راجل أد الدنيا.. وزى الفل.. أنا مش مصدقة إن النور
كله في بيتنا..

صبرى - لأ والله.. إنت كل النور...

- ربنا يبارك لك يا حبيبي.. ماريانا حكمت لي كل
حاجة.. إنت أكثر من كل حاجة.. وربنا بيختريك وها يجيملك
ابنك.. منهم لله ..

.. سيدة تقترب من نهاية العقد السابع - عينان واسعتان
بهما بقايا كحل ولكن تحت رموشها ذبول ويبدو أنها قد
حزنت على زوجها كثيرا لما مات وتركها في عمر الزهور
وكانت ماريانا وقتها في الخامسة.. وراحت السيدة تقطع من

قرص الكيكة في طبق صغير لتضعه في يده وتنتقي من المكسرات خلاصتها في صحن آخر وتضعه في يده و.. و.. حتى شعر بأنه لا يستطيع واستحلفها بالكفاية وراحوا جميعا يحتسون البارد.. ولم يكن يشد انتباه صبرى أي لوحة بقدر ما كان يحلق ويمعن النظر إلى صورة الرجل الذي يرتدي جلبابا ويلف رأسه بشال عريض وكان شاربه كثيفا ومطويا حول شفثيه كأنه شارب ديك بربري.. ولما لاحظت السيدة الكبيرة ذلك على صبرى قالت مشيرة باصبعها نحوه:

- هذا أبي..

- راجل أد الدنيا.. كأني رأيت من قبل..

- إذا كنت قد رأيت فهو رآك..

- من أي بلد أنتم ياسيدي

- من بلد قريية من بلدكم ..

- يا سيدتي .. هذا جد..

- يا أستاذ صبرى أنا رأيتك وانت صغير..

- كيف .. وتلّفت حوله وكبرت الصورة للرجل وتذكر

الماضي قليلا.. ألبس هذا هو.. هل تعرفين يا سيدتي أن هذا

الرجل بالتمام.. والكمال يشبه رجلا كان صديقا لكل أهلي..

إنه شبيه برجل يدعي الديب عطية إبراهيم ..

.. وضحكت السيدة بقوة وراحت في نوبات من الضحك
العالي.. ولما هدأت قليلا قالت وهي تمز رأسها وكأنها وجدت
ماضيا عزيزا عليها في وجود صبرى :

- قبل أن تأتينا عرفتك من أنت ومن أبوك وأعمامك..
وكل عائلتك .. يا صبرى أنت الماضي الذي حضر ولن نفرط
فيه.. إن أحدا في هذه المدينة كلها لم يدخل بيتنا وليس من
السهل علينا أن يدخل بيتنا أي أحد..

- ياه يا سيدتي .. وهل قمت بكافة التحريات عني قبل أن
أتيك..

- نعم .. كانت ماريانا تحكي معك وعندما تعود تقبول
حديثك معها بالحرف والنص.. ولما تأكدت أنك صبرى دردير
أبو وافية.. كان لابد أن تأتيني .. وأن تأتي ماريانا بك..

- معنى هذا يا سيدتي أنك تعرفين أهلي جميعا..

- وأعرف أمك وأعرف أمك لبيبة وخالتك مجيدة وخالتك
منصورة..

- ليس معقولا يا سيدتي وتعرفين زوجات أعمامي..

- وتضحك إذا قلت لك وأعرف الحاج حسين وعبدالعال
والحاجة أم سلامة.. والحاج محمود..

- إذا يا سيدتي .. عمي الدين عطية إبراهيم .. من يكون
لك..

- أبي .. أبي ..

وقام إليها صبرى يضحك وكأنه يبكي وأمسك بكفي يديها
وراح يقبلهما بينما راحت هي في بكاء شديد.

- أنا من شنشور من حارة توفيق سيد أحمد.. وكان بيت
أبي من أكبر بيوت الناحية القبلية .. حتى أن عمي دردير
وحداد كانا يستقبلان المسلمين والنصارى مع أبي.. كان أبي
يحل مشاكل المسلمين مع أعمامي ومشاكل المسيحيين مع
بعضهم البعض مع أعمامي.. خاصة إذا كان كل من
المتخاصمين يسكنان في الناحية القبلية قرب بيتنا..

- أشعر وكأنني وجدت بلدي كلها في بيتك..

.. وكانت السيدة تتناول طعامها وابتسامة ممتدة على
وجهها وماريانا جد سعيدة بالتاريخ الذي لم تكن عاصرته..
وكنت أشعر وأنا أتناول الطعام الفخم معهما أنني في ملأه:
مريان.. وراحت تنثر ذكرياتها:

- في مرة ذهبت إلى الحقل مع أبي.. فحملني أهل الملاة على
أكتافهم وأرسلوا معي كل أنواع الفاكهة والخضروات من عمي
دردير البطيخ وعمي حداد الذرة المشوية والعنب من الحاج
حسين الجوافة والكمثرى ومن عبد العال السمك والخيار..
لكن الشيء الغريب والجميل الذي رأيته بعيني هو سنابل ..

- سنابل القمح..

- سنابل ابن الحاج أبو شاطية.. شاب يرتدي قميص
الفلاحين الزهر ويربط وسطه بحزام من التيل، كان له وجه
يشبه حبة تين الحمير المستوية.

- ماذا فعل سنابل ..

- انني لم أكن حتى أتصور أن الريف به من الرجال مثله.

- أحاول أن أفهم يا سيدتي..

- لقد أخذني في قاربه ليعرفني على أسرار البحر وكيف
يصيدون السمك وكان يريد أن يوقع بي في غرفة على شاطيء
البحر ولكنني هربت منه علنا حيث كنت أجري قاصدة البيوت
وهو يجري خلفي يريد أن يجرني إلى عشة أخرى وسط الحقول
ويغتصبني.. لكنني فلتحت ووصلت إلى حيث يجلس أبي بين
الرجال.

- هناك رجال طيبون غيره.. للأسف سنابل هذا كان
خطيرا لم يترك امرأة صياد جميلة إلا ونالها..

- انني لم أر رجالا آخرين..

- صاحب كازينو الشجرة سيد محمود، وأبو العز عبدالمنعم
حداد، وحمدي مرعب الصيادين وثروت تاجر المواشي ومحمد

عبدالرسول شاعر الفلسفية، واسحق تاجر اللبن وسيد حسين
محب المقاضي وعبد العزيز القناني. ونساء كثيرات ساقطات،
هذه الملائة مينة باحكايات والنوادر.. هذه الملائة كانت مسقط
رأسي..

- وهذه ادلة فيها أرض أبي وفيها أحب الناس أبي
وأحبهم..

- في زمان هذا العقد الذي بدأ من عام ١٩٥٢.. كان
لوجه الحياة صفة واحدة والناس يعيشون في أمان على غذائهم
وحياهم.. وبعد عام ١٩٥٢ بدأت الأوراق تسقط في زيف
بجموعة من العسكر سرقوا البلاد ونهبوها وبعد أكثر من خمسين
عاماً وصلنا إلى الصفح في كل شيء وأصبحنا بلداً بلا إيراد لا
صناعة ولا زراعة ولا إنسانية..

- وفي وسط هذا الجو اختفينا من القرية وهربنا إلى هنا
وسط مدينة كبيرة.. مات أبي وأمي من قبله بكثير.. ولما كان
كل شيء حولنا مخيفاً انكمشنا وقلنا بابنا علينا إلى أن يرسل
الله لنا مخرجاً لنعيش حياة أفضل.. وكنت دائماً أبحث عن
الجدور لنحتمي فيها أنا وابنتي.. حتى الرجل الذي وجدنا
ونشعر الآن أننا سنحصل على الأمان في كنفه اغتفلوا طفله..
لقد فهمت منذ أن علمت من ماريانا عن حكايتك أنه لا يوجد
خرم إبرة واحد يلجأ الناس إليه ليحصلوا على أي أمان.. والآن

السؤال في كل البيوت وماذا بعد؟.. ألا يتوقفوا قليلا عن الظلم والبطش حتى يجد الناس مساحة ولو كانت ضيقة جدا لسيروا منها بعض الضياء..

- آه يا سيدي كل ما لديك من مشاعر وألم تجاه هؤلاء هو عندي وعند كل الناس وكلما أفكر فيه الآن أن أجد واسطة لنقل الطفل مع صغار مثله..

- فكرت مثلك.. لي صديقة لها ابن برتبة عميد في مصلحة السجون سوف أكلمها بهذا الشأن والآن.. وقامت إلى الهاتف... ..

- إزيك يا حبيبي .. عاملة إيه في الدنيا.. من زمان ما سمعتش صوتك..

- إحنا كويسين.. ماريانا كويسة.. وأنتم وبتك وابنك.

- أنا لي عندك طلب مهم.. ولد صغير خدوه اللي ينتصوا في نظرهم.. مش عارفة مين؟ أمن الدولة.. يا ريت مرة يكونوا أمن دولة بصحيح.. شوف يا حبة عيني ستاشر سنة خدوه من حضن أبوه وعذبه في السلام وبعدين خدوه لاطوغلي قعد فيها شوية.. وبقاله شهر في طرة..

- بتهمة إيه.. التهم عندهم مرصوصة وجاهزة.. آل تهمة محاولة الانتماء لجماعات إسلامية..

- إنت عارفة كل اللي عمله الواد إنه قعد شهر يصلي
الفجر في الجامع دا كل تاريخه مع الدين.. والولد عمل كده
علشان يسد الفراغ زي أي شاب صغير.. كان عايز يروح
نادي الشمس أبوه ما قدرش يدفع أربعين ألف جنيه للنادي..
الولد راح يلعب في التراك اللي جنب فندق السلام العرب
كل يوم يجروا وراهم بالطوب.. وهكذا..

الولد لقي الحاجة الوحيدة المفتوحة مسجد صغير جنب
البيت راحه.. سمع كلام جديد عليه لأول مرة في الدين اللي
بيتجول بين أصحاب الدقون.. خلاصة الحكاية مرشد في الحتة
عمل بشغل على العيال معاه خمسة زيّه بلغ الرائد المسئول عن
أمن الدولة في السلام بأن العيال دي بدأوا يحترفوا الجامع
وبيقعدوا حوالين الشيخ بعد الصلاة.. آدي كل الحكاية كان
فيه شعار في الوزارة بتحققه أمن الدولة وهو القضاء على
المنابت ويجب تبليغ الرسالة لكل بيت وحرارة وشارع في
مصر..

بدأوا في حملات كثيفة ورهيبه وعشوائية في لم العيال الصغيرة
اللي تروح الجوامع.. يعني السواد راح في الرجلين.. هم
نفسهم ضباط أمن الدولة قالوا دي هوجة علشان تحقيق سياسة
معينة وهي القضاء على المنابت.. آدي كل الحكاية..

- اللي عايزاه منك إنك تكلمي ابنك العميد منير ينقل
الولد مع عيال صغيرين زيّه..

- أيوه قاعد مع ناس كبار في السن وذقتهم تبلط الأرض..
الولد ها يتلوث من الناس دي.. أيوه نفسه لو حطّوه معاهم
ها يلطّوه ومش ها يقدر عليهم..

- يعني ها تكلّميه.. يارب ينجيك.. اسمه محمود صبري
دردير.. سجن استقبال طرة.. كفاية.. طيب ها تردّي عليا
إمي.. يومين تلاقه.. ربنا يخليك ليا.. مع السلامة يا حبيبي.

وجلست السيدة مرّة أخرى بينا وهي جد سعيدة بعد انتهاء
مكالمتها مع صديقتها.. تهدّجت أنفاسها قليلا وهزّت رأسها
وهي تجيل بصرها نحو صبري وقالت:

- إن شاء الله ها تعمل حاجة.. يا رب..

وكانت ماريانا تروح وتجيء وهي تحمل الأطباق الفارغة إلى
مطبخها وابتسامة عريضة كست وجهها بالرضا والسعادة اللتان
لم تشعر بهما من قبل.. وكان صبري يثني عليها بأرق كلمات
الشكر والتناء على واجب الضيافة الذي قامت به نحوه والحفاوة
البالغة التي نالها من هذا البيت الكريم.. وفي رقة بالغة استأذنت
السيدة الكبيرة صبري في أن تليخل إلى غرفتها لتستريح قليلا؟

- شوية يا ابني العزيز.. ادخل أرتاح كأنك في بيتك..
خليك مع ماريانا ما تمشيش.

.. وارتدت ماريانا ثوبا رقيقا شفافا، وجاءت إليه تجلس في
مقابلته ولما وضعت ساقا على ساق كان الثوب يزداد جمالا
وهو يكشف قليلا من ساقها ولولا جمال جسدها ما كان
للثوب معني أن ترتديه.. فإذا ارتدت ماريانا ثوبا من خيش
تبدل الثوب وأصبح من حرير.. هكذا كان الجمال ينطق من
كل شيء فيها.. وجهها الملائكي أشنودة جميلة وثرها سحر
وخميلة وصوتها في الحديث سلاسل من ذهب ورضا بما شهد
في قصور العجم وعيناها النجلاوان قمر ينير الليل وفجر
وعجب.. وشعرها المنثور على كتفيها.. لولاه ما كان للعشاق
طريق وجسد وما كان لليل ضياء من قمر.. آه يا ماريانا ما أنت
إلا سحر وصحب.. آه يا ماريانا هل أنت خيال جاءني لأعبر
أحزاني على ولدي أم أنت واقع جميع قد وقع..

هكذا حلّت به وحلّ بها.. أرخت بجسدها فوق المقعد
فاهتز كأن سلاما لامسه فاستسلم واكتظت أسنانها
وارتعشت.. تفسّخ شيء في كيانه لما وجد نفسه يرتمي على
صفحة وجهها وقالت في همس بالغ الرقة :

- تعال يا صبري.. قبلي.. ضمّني..

وشعر برغبة جامحة نحوها كمن يريد أن يجفف أحزانه بريقتها
أو يبلل شجنه برضاها..

قام إليها وجثا بركبتيه واحتضن ساقها بجسده وانحنى قليلا
وقبل يدها ثم احتضنها بكلتا يديه فاستسلمت لحضنه وانكشف
قميصها عن جسدها وتسلفت يده برشاقة تحت شعرها المنثور
على كتفها وراح يدغدغ جيدها بلهفة ورقة كأنه يدخل
بستان زهر، ولم تنظر إليه ودعته وهمست مرّة أخرى :

- خذني إلى الأرض .

وحملها كما دعته فانكشف الجسد المثير كله أمامه.. كان
الحريق في جسده شديدا وهي الفرسة الجاحمة عادت يمامة
مستسلمة له وبين ذراعيه تدعوه أن يشعل حريقه ويطفئ
حريقها وتفتح فيها ما كان مغلقا وارتعشت ساقها بين يديه،
ودعته صامته.. دعته بطاعة كل جزء في جسدها
لجسده.. وكانت ترمقه في إندهاش بعيون ناعسة حاملة منادية
كأن موسيقى تعزف من بين رموشها تدعوه أن يستمر في
عزفه.. تدعوه أن يعزف أكثر مما يعزفه العازف بجيتار..

كمن تقول له.. هذا جيتاري بين يديك فأين عزفك..
تبعثرت أوراقها وساعدته بأناملها الرقيقة في خلعها.. ومن
يكتب الأوراق ثم يعيدها ومن يمرر القبلات على أسرار
الجسد.. ولما طبع قبلاته هنا وهناك فوق أسرارها همست للمرة
الثالثة: أنت الرجل الذي عرف أسرار جسدي .. كنت أشعر
أنك ستكتشف أسرارهِ فساعدتك وخلعت أوراقِي..

أدركت أنها أمام رجل حقيقي فتركته يعزف ألحانه،
وفتحت له كل أسباب وينابيع الحب في أعماق قلبها وصرخات
جسدها الذي بات يصرخ منذ سنين يبحث عن رجل.. ولم
يكن في المدينة إلا قليل يعرفون العزف.. المدينة كلها مدينة
تكتظ بالرجال والنساء.. ولكن إذا كان شغلنا الشاغل هو
البحث عن رغيـف وغموس للعيش.. الناس فيها يطفحون جهداً
ويشبعون ذلاً حتى تصل اللقمة إلى أفواههم.. فكيف لهؤلاء
الذين يعيشون في شقاء.. كيف لأي واحد منهم والهـم قد اعتراه
أن يغرف وأن يخترق جسد امرأة كعازف يهنأ بالعيش ولا
يشغله البحث عن رغيـف للعيش.. ولهذا كوّن الأثقياء والفقراء
حبا خاصا بهم تحفه جدران التوتر والخوف من كل جانب
فكيف يكون هذا حبا.. إن مدينة عازفة بالحب ولا يشغل
أهلها نكد الحياة تختلف تماما عن مدينة مثل مدينتي ينهار فيها
كل شيء.. فكيف لمدينة تحيا بدون حب.. وكيف لمدينة تحيا
بحب مريض.. الحب في مدينتي يخاف أن يولد.. الحب في
مدينتي حب موتور خائف جائع وإن عاش يُعتقل..

.. ولم ينتهي العزف طول الليل حتى بزغ الفجر وكان
يشعر بكثير من الخجل عندما انتهى ١٥٠، ولكنها كسرت
نحمله وقالت وهي تأخذه إلى حمام البيت :

- خذ حمامك وتعال إلى غرفتي..

- أليس لي أن أذهب!؟!

- لا تخرج من بيتي اليوم.. لن تخرج إلى مدينة يخلوا الناس فيها من أي شيء.. أخاف أن تصبح مثل أهل المدينة.. إن في بيتي مدينة جميلة لن تتركها أبدا..

ولأول مرة تدخل عليه عارية تماما إلا من قميص شفاف قصير، استلقت بجانبه في دلال وراح يقبل يدها ونفير جسدها ينادي نفير جسده فخلعت قميصها لتحصد جسده بدون موانع، وشعر بأنه في جزيرة بعيدة عن العالم لا يسكنها إلا هو، وماريانا.. وتعلقت عيناه بمرموش عينيها التي راحت تناديه بقوة فراح يقبل جبينها وشعرها وأهداها حتى لقي شفيتها وكانت تتلوى وهي تعصر شفتيه وتكوررت من تحته كمنحلة تمصّ العسل من زهرة لاتنضب، وكانت تتلوى كالفراشة ويقبض جسدها على جسده ولم يكن يستطيع أن يتعد من إعصار جسدها المذهل.. عود قصب ينثني وغصن بان يقطعق.. تارة تنفرد وأخرى تنكمش وثالثة تقفز.. ربيع يفتح وأرض تنشق عن الخصب ورياح العشق تطير.. الورد لا ينتحر مع الذين يعرفون الحب، ولكنه يذبل في أيدي العابثين، ونعومة الأنامل تعزف على أوتارها فينبعث اللحن الجميل وأشواك الزهور لا تجرح من يروى أغصانها.. كان يشمّ أريج البنفسج في همسها ويسمع أنين

السواقي التي كان ينام عليها وهو طفل فيحلم بأن عالما من
الحب ينتظره في مدينة كبيرة لكنه لم ير أبدا أنها ستكون شديدة
الفقر..

وعند الظهر تيقظا قليلا من سكرات الحب فقالت وهي
تمسك يده وتقبلها:

- كم أنت بديعة ياملاة مريان.. أنجبتك.. أنت يا صبري
ملك الحب.

- هل كان أحد يتصور أن من ظهر جدك الرجل الذي
كان يرتدي جلبابا ويمتطي حمارا أن يكون له حفيدة مثلك..
إنني لو ذهبت إلى كل العالم فلن أجد امرأة في جمال فتنتك..
والله إنني اندهش كيف لكفر مريان يشنشور أن تكون له
حفيدة بديعة.. رحم الله عمي الديق عطية إبراهيم..

- رحم الله عمي دردير أبو وافية لأنه أنجب رجلا مثلك..
إن رجلا بهذه الرقة يكون له مثل هذه الفحولة.. إنه سر من
أسرار الله أن يكون هناك رجال هكذا. لو كان في كل قرية
رجل مثل صبري دردير لذهب الفقر والجهل والمرض عن كل
أرجاء القرية.. ولو كان في كل بيت رجل فيه نسبة قليلة في
فن حبك مع المرأة لما كانت هناك دعارة في أي قرية..

- إنك تبالغين يا جميلتي.. إن الحب موجود في كل مكان
وليس كل الرجال والنساء من مريان و لو كان الفقر يذهب

بوجود رجال مثلي كما قلت لاستعانت كل دول العالم الفقيرة
برجال.. المشكلة أن الرجال موجودون في كل أنحاء
العالم.. ولكن المشكلة في سر الحب وسر الجسد.

- إنني لا أستطيع أن التقى بكل امرأة في قريتي حتى أخرج
الفقر من دارها..

- أنا أعرف أنك لن تستطيع ذلك.. ولكنك تستطيع أن
تمشي في القرية وتدعو الرجال لفن الحب، وفن الجمال وفن
اللقاء وفن...

- إن الفقر لا يخرج أبدا من ديار فيها رجال ونساء في
غيوبة.. لا بد لأهل الديار من يقظة، وأن تعود القرى كما
كانت تزرع القمح والقطن والذرة فوق قباب الأفران ولا بد أن
تعود أعواد الحطب والقطن والقصب إلى حيث كانت في كل
دار، وأن يخرج الفلاح إلى حقله بعد صلاة الفجر..

- هذه دعوة يعرفها الناس جميعا ويدعون لها.. لكن هل
هناك سر لفحولة الرجال..

- ما أستطيع أن أقوله أن أمي كانت تطعمني من الحمة..
بطاطا مشوية من الحمة وبطاطس وكعك من الحمة ناهيك عن
الفطير والمخروطة وحليب الدست والقشطة وربما يكون السر

الكبير كامن في أن أمي وأبي أَرْضَعُونِي لَبْنِ حَمَارٍ مَخْلَطًا بَلْبِنِ
فَرَسٍ بِجَانِبِ لَبْنِ أُمِّي، وَهَذِهِ كَانَتْ وَصْفَةَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ لِأَبِي كَي
أَعِيشَ.. يَا سَيِّدِي رُبَّمَا يَكُونُ السَّرُّ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَوْ
بَعْضِهَا..

قليل من الوقت وراحت ماريانا في نوم عميق واستطاع
صبري أن يذهب إلى بيت أبنائه في هدوء بعد أن قفل الباب
عليها ولا يعرف ماذا يقول لهم عن الليلة البارحة أين كان؟..

ولما دخل بيته وجد زوجته نائمة ومحمد يأخذ درسا في
الإنجليزية عند زميل له، وبسنت في فراشها يقظة تحاول أن
تنام.. دخلت غرفتي ونمت نوما عميقا. وعندما استيقظت لم
يسألني أحد أين كنت الليلة البارحة، وعندما كنت أستعد
للذهاب إلى عملي قبل المغرب أخبرت زوجتي وأولادي بأنني
مسافر الليلة إلى البلد في أمر ضروري وكان رد زوجتي دائما
بعد أن أصبحت شبه قعيدة في البيت تجيب على كل
شيء.. طيب.. طيب.. فلم يعد يشغلها أي شيء في الدنيا
مهما كانت أهميته غير التفكير في ابنها والدعاء له والدعاء
عليهم.

في العمل وجدت حبيبي ماريانا تنكفيء على الحاسب
وتؤدى عملها برحابة وسعة، واستقبلتني بابتسامة ظلت تكسو

وجها طيلة وقت العمل هذا المساء .. وانشغلت بترتيب وتنظيم التقارير، والتحليل المالية التي أقوم بإعدادها والتعليق عليها لتقوم ماريانا بكتابتها على الحاسب في شكل خرائط ودوائر وخطوط بيانية تظهر مدى نجاح أو إنكسار في فروع الشركات المختلفة.. لكن بعد أن قطعنا وقتا طويلا في ذلك أدارت ماريانا حديثا متقطعا بيني وبينها حتى انتهينا من عملنا في الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل..

... هربت مني وأنا نائمة.. هل أنا مزعجة إلى هذا الحد؟؟

- أنت تعرفين أنك أغلى وأحلى ما في حياتي.. لكنني بعد أن اطمأنتت عليك ووجدتك في نوم عميق كان عليّ أن أذهب إلى بيت الأبناء لاطمئن عليهم وأعود..

- هل سألتك زوجتك أين كنت؟

- لم تسألني عن شيء إنها غارقة في أحزانها ويبدو أنها لا تدري بشيء حولها..

- كيف؟

- كلما قلت لها شيئا.. تقول.. طيب.. طيب وخلص..

- أخاف أن تلقاها وأن تعود علاقتك بها قبل أن يذهب

ولذلك..

- ألم أخبرك أنها اتخذت قرارا بعدم معاشرتي أبدا حتى لا
تلد ولدا يُعتقل.

- النساء تتغير أحوالهن من حين إلى حين.

- ياماريانا بعد أن ذقت شراب المانجو هل أذهب لأشرب
الخروب.

- أرجوك.. أنت لي وحدي وإذا ذهبت مني إلى أي امرأة
في الدنيا سوف أقتل نفسي.. فأرجوك أن تكون حريصا على
حياتي.

- سوف يبدأ يومنا بعد الانتهاء من العمل.. إننا جهزنا لك
اليوم غداء طيبا.

- وهل ستأخذيني كل ليلة إلى بيتك.

- إنك لن تذهب إلى بيت آخر غير بيتي بعد اليوم.. لقد
حجزتك لنفسني ولن تستطيع أي قوة في الوجود أن تأخذك
مني.. ولن تكون حرا بعد اليوم في أن تذهب هنا أو هناك إلا
بأمر مني..

وراح صبرى يقهقه.

وبعد منتصف الليل نزلا من السنتر واتجهت ماريانا لعربتها
وهو يتبعها من بعد.. وبعيدا عن شارع متحف المطرية ركبت
عند ناصية شارع مظلم ولما لحقت بها ودلفت بجانبها انطلقت

مازيانا بسرعة مجتازة ميدان الحلمية. حتى إذا بلغت الميدان الصغير قبل كوبرى المطرية دخلت المركبة بيسلوا متجهة إلى البيت الحديد في حدائق الزيتون، ونزل صبرى ليبلغ هذا الباب الحديدي الثقيل فدخلت بالسيارة حتى قرب بباب البيت الداخلى ونزلت وقفلت أبوابها ثم انقلبت لتقفل الباب الحديدي مع صبرى ولفت حول ضلفته الجزير وأدخلت في حلقاته القفل وأحكمت قفله... وهزولت وكانت تضحك وفتحت الباب وخلفها صبرى وهي تقول تعال... تعال... لقد قفلت عليك كل الأبواب ولن تستطيع القفز من السور.. لقد سيجه أي بالزجاج المكسور حتى لا يستطيع حرامي محترف اجتيازه.. تعال.. لقد دخلت ولن تخرج.. سوف يتم القبض عليك.. وراح يقهقه مزحة أخرى وهو يصعد خلفها الدرج وقال وهي تطرق الباب:

- ألا يكفي القبض على ولدي..

- باسم الحب قبضت عليك.. لا تحزني الآن.. ليثني ما نطقت بالكلمة التي تعني الكثير.. بالابتسامة العريضة والكلمات الحلوة والأحضان. استقبلته السيدة الكبيرة وقالت بعد أن جلست بجانبه:

- في لفة أنتظر كما.. حمد الله على سلامتك.. على سلامتكم.. أ يوجد محاسب في مدينتي ومديرة تعمل بعد منتصف الليل؟

- اتفقت مع صاحب العمل يا سيدتي الفاضلة أن أنجز عمله بلا تأخير.. شركات كثيرة وتقارير مالية مهمة يجب إنجازها يوميا حتى يمكن اتخاذ القرارات الإدارية الصائبة وفي الوقت المناسب.. وهذا ما يرضي الطرفين ويكفي أنه وافق على أن أعمل في أي وقت تقديرا لظروف ابني..

هزت السيدة رأسها دلالة على صحة كلام صبري وقالت وهي تشير إلى المنضدة:

- هذا خروف مشوي وأرز جاءني به عامل المطعم.. أظنك ترغب في مثل هذا الطعام الدسم..

- ياه يا سيدتي ولماذا كل هذه التكلفة.. يكفيني قطعتان من اللحم..

- لا.. لسنا بخلاء.. أريدك أن تتذكر أيام أمك عندما كنت صبياء.. كان الناس في القرية من بحري لقبلي يقولون.. سيدتان في القرية خير من يقدم الطعام لأبنائهما... أكيد أنت تعرف من هما:

- أريدك أن تقولي أنت يا سيدتي كلماتك مثل الشاهد في طبق شفاف..

- أمك الست حميدة فودة والست ستيتة الصاوي.. كلاهما كانتا من أكرم نساء القرية وكانتا أشهر سيدتان تشتريان طيور سوق الخميس من الفلاحات..

كان الطعام شهيا وبقي منه الكثير فحملته السيدة الكبيرة إلى المطبخ وكانت الساعة الثانية والنصف فانتقلها إلى غرفة الصالون وجلسنا ثلاثتنا نتحدث ونتسامر حتى بلغ الوقت الرابعة، بعد ذلك أخذ الحديث مأخذاً الجدا حين بادرتنا السيدة قائلة :

- أظن يا بني أن العلاقة بينك وبين ماريانا أصبحت حميمة جدا وأنه عليك..

- وسكنت وهي تبتسم إلى صبري فقال :

- إنني دائما يا سيدتي أهوى أن تكلمني كلامك.. وخير لي دائما أن تقولي ما تريه خيرا لي.. فإنني لن أجد في مدينتي كلها من يحبني أكثر منكما..

- وعليه يا صبري فإنت تثق فيما أقوله والمهم أن تعمل ما أراه صحيحا لك ومارينا..

- نعم يا سيدتي.. إن ما تحكمني به أتفذه فورا..

- طالما تستطيع وأن يكون في تنفيذ هذا الشيء خير لكلانا..

- أكيد.. أكيد يا سيدتي..

وصمتت برهة.. ثم قالت وهي تنظر إلى كل وجهه :

- تزوج ماريانا يا صبري..

- آه يا سيدتي لقد نزعني مني ما كان يتعلق داخلي وما
كنت أنوي مفاتحتك فيه.. وكنت أظن أن أطلب ذلك فيكون
لك رأيا آخر..

- كيف يا صبري. وهذا مطلب كل أم.. أنا وابنتي في
حاجة إلى رجل مثلك.. لقد جمعنا الأرض كما كانت تجمع
أبي وأبيك.. ولو تتأمل قليلا كيف أراد الله أن يجمعنا بك..
وكيف أن عملك في هذه الشركات وعمل ابنتي فيها.. كيف
لكل هذه الأقدار أن تجمع من كانوا في مائة مريان منذ عقود
طويلة أن تجمع الأبناء والأحفاد في كيان واحد مرة أخرى، أن
تكون الصدفة وحدها في مدينة يتوه فيها الناس أن تجمع بينك
وبين ابنتي بهذا الحظ الجميل من القدر.. لو تأملنا قليلا كيف
جمعنا دروب الحياة ووفقت بيننا أكيد هذا من رضاء الله
علينا..

- كلام كبير وحديث هائل يا سيدتي.. وأنا أتفق معك
في كل كلمة فيه.. أيرضيك يا سيدتي أن نتزوج الآن..

وضحكت السيدة ملاً فيها وقالت :

- وكيف لأحد أن يتزوج في مثل هذه الساعة من الصباح
الباكر؟

- غدا بعد الظهر يا سيدتي..

- هذا مناسب لكلينا.. هل تدعو أحدا..

- لا.. يكفيني نحن وبعض الناس الإلازمين لإتمام مراسم الزواج..

- افعل ما تريد.. ونحن لن ندعو أحدا.. لا نعرف أحدا حتى يحضر معنا.. يكفينا أن يكون الله معنا.

.. وتم الزواج بلا مراسم.. وتم الزواج بما يرضي الله..

وبدأت أتحرر من أحزاني.. كان ألمي على ولدي يقبض على قلبي ويكاد يشطر شيئا من عقلي.. لكنني وبمرور الأيام بعد الزواج من ماريانا شعرت بأنني حرا حتى من قيود تلك الأيام.. وأن الله جعل لكل إنسان في بأس رحمة تنقذه من بأسه ولكن ليس كل الناس يرون هذه الرحمة..

وفي يوم كنا نجلس ثلاثتنا في المساء وزن جرس الهاتف وكان المتحدث السيدة أم العميد الذي يعمل في مصلحة السجون وتحدثت مع أم ماريانا كثيرا وفجأة نادتنى السيدة الكبيرة وهي تمسك بسماعة الهاتف قائلة؟

- السيدة عزيزة تريد أن تقول شيئا..

وتناولت الهاتف من يدها قائلا في رقة:

- آلو.. أهلا ياسيديتي..

- أهلا يا حبيبي.. كان الله في عونك.. ابني سأل عن كل

حاجة عن ابنك.. لكن هوّ دلوقتي هايقدر يجيب زيارة وبعدين

حكاية نقله في زنرانة مع صغار مثله.. ها يعملها بس شوية..

- ياه إلى هذه الدرجة ..

- إنت فإكر إيه.. على فكرة إوعى تفكر إن ضابط الشرطة يقدر يعمل كل حاجة.. ياعزيزي يا بني.. إن ضابط الشرطة يخاف من فوق ومن تحت.. يخاف من النقل ومن العقاب من رؤسائه ومن أي خطأ حوله حتى لا يتحملة في آخر الأمر.. لا تصدق إن قلت لك أنه خائف على زوجته وعلى أولاده وعلى مرتبه الذي لا يكفيه.. كل شيء حول ابني يخافه، وهذا حال أي ضابط فكيف يحقق لنا أمانا وذلك ناتج عن الإدارات المرتعشة والمرتبكة وعن السياسيات.. لا تظلم ضابط الشرطة إنه يعيش حياة متوترة غير مستقرة وهذه طبيعة أعمالهم.. وحينما تكون هناك قسوة في تصرفاته ذلك ناتج عن القسوة التي تدفعه لهذه القسوة..

- يا سيدتي الفاضلة ربما أنت تتعاطفين مع ضابط الشرطة لتعاطفك مع إبنك..

- صدقني يا أستاذ صبري هذا هو الحاصل..

- أفهم من هذا أن ابنك العزيز سوف يأتي لنا بزيارة..

- في خلال أيام..

- وموضوع نقله إلى زنزانة أخرى صعب عليه..

- ليس ذلك تماما.. ولكن ربما يكون ذلك سياسة لأمن

الدولة في المعتقل.. ولكن سوف يأتي بها.. وعلينا أن ننتظره بعض

الوقت ليفعل هذا..

- يا سيدتي لك مني جزيل الشكر وهذا كثير على.. هل
تريدين السيدة زكية ..

- نعم اعطها لي ..

في الأيام التي مضت منذ اعتقال ولدي ترسخت العبودية في
داخلي وبدأت أخاف من كل شيء وملائي إحساس بأن كل
واحد في بلدي وحش وأن الناس جميعا حتى الفقراء بدأوا
يعتدون على بعض بأشكال متعددة لم تكن موجودة من قبل..
وتركوا المجتمع يأكل بعضه بعضا.. وإذا كان هذا شعور يحتوى
داخلي وأنا إسمحو لي في وظيفة مرموقة كمحاسب ومدير مالي
معروف في معظم شركات القطاع الخاص بكفأتي وكنت
مرشحا لأن أكون عضوا في مجلس الشعب عام ١٩٨٤ والذي
رشحني لخوض هذه الانتخابات من خيرة الناس في محافظتي
وهم الدكتور محمد أبو الغار وسعد عطية وتوفيق محاريق عمدة
فيشا وهم جميعا من الناس الذين يملكون نفوذا اجتماعيا في
بلادهم ونواحيهم.. نفوذ اجتماعي طبيعي. بمعنى أنهم يملكون
حبا طبيعيا من جماهير عريضة في المجتمع المصري.. ناهيك عن
أني عضو في اتحاد كتاب مصر منذ عام ١٩٩١ وعضو نادي
القصة المصري.. وخضت تاريخنا مشرفا عندما كنت أعمل

محاسبا بالعراق في أوائل الثمانينيات مع المخابرات العراقية
وأشاور حزب البعث العراقي.. حينما كانوا يدعونني للعمل
في مخابراتهم بإغراءاتهم، وكم كنت أمني أن أتعاون معهم إذا
كان عملي هذا ضد عدو حقيقي للإنسانية واسمحوا لي مرة
ثانية أن أسرد باختصار الحوار الذي دار مرارا وتكرارا مع
ضباط المخابرات العراقية في مدينة الموصل:

الضابط : نحن نعرف أنك محبوب في الدائرة وأنتك تقيم
علاقات اجتماعية طيبة مع معظم العاملين في خدمات برق
وهاتف الموصل..

صبري : هذا صحيح إنني أحب الناس لأنهم زملائي وعلاقتي
بهم جميعا من أجل إنجاز عمل مالي قوي ومن المعروف أنه لا
يمكن لأي جماعة أن تنجح في عملها دون أن يكون هناك
بعض من الحب والمودة بينهم.. أنا من أشد الناس الذين
يؤيدون إقامة علاقات طيبة بين الناس..

الضابط: من أجل هذا جئنا لك نحن نعرف أنك محبوب بين
العاملين في الدائرة.. وعليه فإننا نريد أن نتعاون معنا.

صبري : كيف.. لا أفهم؟

الضابط: أنت تعرف أن الشعب العراقي فيه أكثر من
عشرين قومية ومذهب.. الشيعة والسنة واليزيدية والأكراد
والتركمان وأحفاد النمرود.. و.. إنك الوحيد الممكن أن

تعرف اتجاهاتهم وأسرارهم حتى نستطيع أن نحكم قبضتنا على
هذا المجتمع المختلف..

صبري : ما المطلوب مني بالضبط؟

الضابط: أن تكتب لنا تقارير عن هؤلاء الناس واتجاهاتهم
وآرائهم خاصة تجاه قائد القومية العربية سيدي الرئيس صدام
حسين ..

وقلت منافقا لأدراي الحقيقة بداخلي :

- هذا الرئيس الفذ هو حقا القائد والبطل ونحن جميعا نحبه
وأنا مستعد للتعاون من أجله..ولكن صدقني يا عزيزي أن كل
الناس بمختلف اتجاهاتهم يحبونه.. وفي أي وقت وجدت أي
اتجاه ضده سوف أبلغكم..

وكانت الحقيقة غير ذلك ..أن الجميع بكل اختلافاتهم
يكرهونه كرها شديدا وأن الظاهر يحبونه من أجل أن يعيشوا
وأن يستمروا في وظائفهم وحياتهم..لأن الجميع في شعب
الموصل يعرف تماما أنه لو قال رأيا حرا بسيطا أو حتى كلمة
ولا تعجب النظام فإنهم يأخذونه من بيته في وضع النهار ولا
يعود أبدا.. كان حكم المقصلة والقهر والاستبداد في أشد
صوره.

..وظلّوا في هذه الحوارات والضغط حتى استحلّفوا بي
بأن يوقعوني في فخ نصبوه لي..وذلك لتأكدهم تماما بأنني أراوغ

وأرفض التعاون معهم.. وأحلف بالله بأنني لو كنت إنسانا
وضيعا وحقيرا ولم أترقي في بيت لتعاونت معهم ولطارت
عشرات الرقاب معي في الدائرة رجالا ونساءً حيث إنهم كانوا
جميعا يثقون في ويحبونني ويبيحون لي بما في نفوسهم وكرههم
الشديد للنظام..

وفي يوم من الأيام شعر بي صديق موصلي بأن هناك شيئا
يدور حولي وفتحني في الموضوع:

- ياعزيزي صبرى.. من هو الشاب الطويل الأنيق الذي
يأتيك ويجالسك في العمل ويحكى معك في همس وزياراته لك
شبه منتظمة..

- والله ياعزيزي أبو ذكري.. إنه ضابط مخبرات..

- وماذا يريد منك..

- يريدني أن أتعاون معهم..

- على من؟

- أن أكتب لهم عن اتجاهات الناس في الدائرة نحو القائد
وحزب البعث و..

- هذه مصيبة بلادنا.. إنه لأسف شديد على العصابة التي
تحكم بلادنا..

- لا تخف علي يا عزيزي إنني أراوغيهم منذ أكثر من أربع

سنوات..

- إذا طلبت مني أن أبعدهم عنك من الآن أبعدهم..
- كيف يا عزيزي وهل لك مثل هذه القوة في بلد عرّاه صدام حسين ونكّل به..
- نعم.. سوف أفضيك سرا.. ابن خالي لزم.. العميد خليل شاكر يعمل أمين سر المخابرات العراقية..
- والله.. صحيح..
- آي والله.. دعني أبعدهم عنك..
- لا تخف يا عزيزي عليّ إنني ناجح في مراوغتهم حتى الآن..

.. ومرت الأيام بعدها حتى أوقعوا بي وأثاروني في الحديث وسجّلوا حديثي معهم.. وتم اعتقالني في يوم ١٩٨٣/٩/٥ من عملي.. ما هي التهم التي دخلت بها المعتقل.. وكيف كنت جاسوسا للمخابرات النمساوية وكيف كان حال أسرتي في مدينة غريبة وكيف نقلوني من معتقل الموصل إلى معتقل بغداد.. هذا موضوع كبير ومهول في أحداثه ربما أتطرق إليه عندما أتأمل الحياة حولي في بلادي وتسرح ذاكرتي فيما مضى.

.. لكن لماذا تذكرت وسردت تلك الأحداث.. هل ورثت إبنّي الاعتقال عني.. ولماذا أنا دون أحد من أقراني وأهل بلدي

الذي يعتقل في بلد غريب.. ولماذا يعتقل نظام صدام حسين الشرفاء ومن لهم مباديء.. وكيف أكون جاسوسا على شعب العراق.. هل هذا نظام الشرفاء الذين يحكمون بلادهم بالحديد والنار.. إن أجهزة الأمن المصري بكل تنوعاتها لم تعرف هذه التفاصيل وماذا يحدث للمصريين في بلاد العرب أو أنها تعرف ولا تفعل شيئا.. وهل لو كانت أجهزة الأمن هذه تعرف قصتي ونضالي في مقاومة المخابرات العراقية وحتى لا أضرب بأحد من شرفاء الموصل.. هل يميز النظام المصري بين مواطن هو خير عنوان لمصر والمصريين ما كانت تعتقل ابني البريء.. وهل نصيب الشرفاء في بلاد العرب جميعا أن يتم اعتقالهم واعتقال أبنائهم لأنهم أصحاب مباديء ولا يقومون بأعمال تساعد وترضى النظام..

وبكيت على حال بلادي وحال بلاد العرب لأن المواطن فيها ملطشة لا أمان ولا حياة ولا حرية ولا ديمقراطية ولا عدل.. وكان عليّ أن أعبر تلك الأحداث المؤلمة التي كانت قدرتي في مدينة الموصل وأن أعيش واقعي المؤلم في بلادي.. ورحت أفكر وأقول لنفسي.. كما زرع الله واحدا مهما يعمل في المخابرات العراقية وساعدني من خرم إبرة في أن يتم الإفراج عني من هذا المعتقل الرهيب.. لكنك واحدا من الموتى الذين يعودون في صناديق إلى مصر.. إن الله قادر على أن يسبب الأسباب لانتزاع ابني الطفل البري من برائن معتقل الظلام في طرة..

وأقول للذين قاموا باعتقال إبني إن أي واحد منكم لو ذهب إلى مدينة الموصل وتحدث مع شعبها الطيب.. لتركوا حكايات المصريين جميعا في مدينتهم وحكوا له حكاية البطل كما يطلقون عليه خاصة بعد خروجه سليما من أغلال وقيود صدام حسين.. سوف يقولون لكم جميعا.. إن المحاسب صبرى دردير المصري الذي كان يعمل مسئول التدقيق الداخلي والميزانية لخدمات برق وهاتف الموصل منذ عام ١٩٧٩ وحتى نهاية عام ١٩٨٣.. كان بطلا وكان الله معه حينما رفض كل إغراءات المخابرات لكي يكون جاسوسا على الشعب الموصل.. لقد فدى رؤوس كل أصدقائه في الموصل من المقصلة وراوغ وتصادم حتى تم اعتقاله.. ولولا أنه راعى الله في حياته وخفاف على كل أصدقائه الأبرياء من الذبح.. ولأنه ناضل وراعى الله لما أنقذه الله بالعناية الإلهية من ظلمات معتقل بغداد ولعاد إلى بلاده في صندوق كما كان يعود أهل بلده كل يوم إلى القاهرة.. عادي جدا أن يتوه الشرفاء.. وعادي جدا أن يساق كل من له تاريخ مشرف إلى التيه والظلام..

ولأول مرة أحكي عن أحداثي المؤلمة في العراق بعد ربع قرن من مغادرة أهل الموصل، وليتني ما حكيت ولو حكيت لمئات مجلدات عن أحوال القهر والسفالة والانحطاط التي كان يمارسها نظام صدام حسين مع الشعب العراقي.. أشعر أنني خسرت

كثيرا عندما تكلمت لأن كلامي لن يكسر جناح القهر الذي
يتنشر.. وكان خير لي أن أصمت لأن الصمت خير من
الكلام.. وأن يذهب الإنسان في غيبوبة ليتجنب جو الحياة
المعتمة خير من الحياة في زمن رديء..

كلمة الله الأولى هي الإنسان.. عزة الفرد وكرامته وعدله وحريته.. ولقد خلقنا الله فرادي ليكون كل منا مسئولا عن نفسه في دنياه وآخرته.. وجئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة.. القرآن الكريم.. فليجتمع الناس جميعا من أجل رفعة بعضهم البعض وعلى الإنسان أن يرتقي بنفسه وأن يخترق بما استطاع ظلام تلك الحياة للوصول إلى بصيص من النور ينقذ بها حياته، وعليه كانت قيمة الولي أو المسئول تجاه الأفراد الذين يتولى أمورهم.. ولكن في مجتمع يحشدون فيه الناس إلى الظلام وأن يكون صراط الناس الزور والبهتان فهذه هي الطامة الكبرى التي ابتلي بها مجتمعات كثيرة.

عندما يأخذ الجند ولدي من أحضاني وهو بريء ويسدخلوه في ظلمات لا تنتهي فإنه الظلم قد حل كظلمات الليل البهيم.. انفصل عن أهله وناسه.. طغى وتكبر واستبد.. إنه إن كان يدري بالقمع والقهر الذي يحدث وسأكت عليه فهذه مصيبة وإن كان لا يدري بشيء وفي غيبوبة فهذه مصيبة أكبر وعليه أن يذهب.. وإذا طال الوقت والظلام ينتشر والطغيان يتفشى والناس تائهون.. فإن الله ينهي هذا المشهد الأليم بكوارث.. حدث في زمان مضى في مصر..

تحولت مياه النيل إلى دم لمدة ثلاثة أيام وانتشرت الضفادع والحشرات في كل الأراضي وهجم البعوض.. ماتت كل مواشي البلاد وانتشرت بقع النار الكبيرة في كل مكان ومات الزرع واجتاح الجراد كل ناحية وهبط ظلام كثيف غطي الأرض كلها.. وبدأ الصراخ والعيويل والندب والبكاء والألم في كل بيت في مصر.. كل هذا أنزله الله في بلاد كان العدل والحب والحرية والحياة معدوم فيها.. فنحن لا نريد أن تتزل بنا كوارث. أخرى من الله لنتقم من الظالمين.. فليكف الظالمين عن ظلمهم وقهرهم وقمعهم واعتقالهم الأبرياء والأطفال.. ونحن جميعا ننتظر بزوغ الشمس التي فيها يخرج ابني من ظلماته وكل الأبرياء.

* * * * *

كان الليل الطويل في بيتها عمر مديد وأضواء غرفتها ساحر وكانت تجلس أمام البيانو وتلامس بأصابعها الرقيقة تقسيماته فتنبعث النغمات التي تريح نفسى وتأخذني بعيدا عن أي ألم.. كانت النغمات تأخذني إلى حياة أخرى فيها أري أنفاس سدرها ربيع وصوتها برنينه العميق يجعلني أنظر إلى الدنيا بكسل شئونها دون أية عقد.. وشعرت بالتعب بعد وقت طويل من القرف.. وقمت وحملتها إلى الفراش ومسحت على جنيها وكنتفيتها ثم رحت أقبلها حتى نامت..

وفي ضحى اليوم التالي ذهبت مازيانا إلى الشركة على أن
الحق بها بعد الظهر.. ولما دخلت بيت الآباء وجدت جدهم
من أهمهم وهي سيدة طيبة من ميت غمر.. جاءت إلى ابنتها
صباح اليوم بعد أن علمت بدخول محمود المعتقل فجاءت
بصدقها لتكون بجوار ابنتها في نكبتها، وكان الجميع حريصون
منذ دخول محمود في قدره الجديد على ألا يخبرها حتى لا تحدث
مضاعفات لصحتها.. لكنها أخيرا علمت من ابنتها فجاءت
إليها جد محزونة وهي تضرب بيديها فوق صدرها :

- ياويلك ياخراب بيتك.. ياروح ستو يا حبيب قلبي..

وتبكي ..

وليتني ما جئت، فما إن دخلت عليهم قالت السيدة :

- هو أنت دعيت عليه.. دعيت عليه..

- ليه أدعي عليه..

- سمعت إنك دعيت عليه مرّة ..

- مش مشكلة مرّة غلبي فيها وانتهي الموضوع من

ساعتها..

- ليه يا صبرى أهو دخل السجن.

- يا ريت نتكلم كلام أحسن من كده.. خلينا نقول

نطلع الولد إزاي..

- خلاص .. طيب إدعيله.. أنا عايزه أشوفه..
- عن قريب فيه زيارة..
- إعمل حسابي فيها وتبقه قوللي قبلها علشان اجّهز حاجات ليه..
- ضروري..
- لو فيه فلوس عايزها ومحمود يطلع بلّغني..
- إنت أميرة يا حاجة..
- هاقعد معاك يا بنتي يومين وهسافر ميت غمر..
- ليه يا ماما خلّيك معانا..
- فيه عضو مجلس شعب مجدي أخوك عارفه من بلد جنب ميت غمر.. نروح له ماحدث عارف وأسأل قرابي هناك عن سكة ممكن نطلع محمود وارجع على طول..
- يا ريت يا ماما أهو مجدي تاجر يمكن يعرف حد، بس ارجعي على طول واقعدي معايا..
- يومين تلاتة بالكثير وآجي مش ها سيبك لغاية ابنك مبا يطلع..

ومضى يومان بعدها سافرت جدة محمود إلى ميت غمر لتبحث عن طاقة نور مع أقاربها وأهلها هناك وقابلت عضوا في مجلس الشعب والذي أخذ بيانات حفيدها ووعدها بأن يعمل

أي شيء من أجله، ثم عادت مرة أخرى إلى القاهرة ولكن إلى بيتها في حي الحسين بجانب البناية التي فيها مصلحة الموازين والدمغة.. قابلت في يوم سيدة من حي الجمالية كانت عضوا في مجلس الشعب وسألتها ماذا تفعل، وصلتها السيدة وهي من عائلة القاضي بالجمالية إلى أحد أعضاء مجلس الشعب والذي كان تاجرا مشهورا للفحم قبل أن يدخل المجلس.. ولما ذهبت إليه وعدها الرجل بقوة بأنه في خلال يومين سوف يأتي لها زيارة.. ..

وفي اليوم التالي جاءها زيارة لعدد خمسة أفراد وأعطاهم كارت باسم العميد/ م.ح ويعمل في مصلحة السجون.. طارت السيدة من الفرح وحملت معها كمية من اللحم والفراخ وغادرت بيتها فرحة سعيدة إلى بيت ابنتها في جسر السويس.. وهلت السيدة وهي تدخل البيت قائلة :

- ما يجيها إلا نسوانها.. ما يجيها إلا نسوانها.. وكسادت تزغرد..

وهرولت إليها ابنتها :

- خير يا ماما .. خير.. جيتي إيه..

- زيارة.. زيارة كلنا هانروح بكرة.. بكرة..

- صحيح يا ماما.. من مين ..

- عارفة الحاج الباجوري تاجر الفحم..
 - أسمع عليه يا ماما.. بقه تاجر الفحم هايحيب زيارة..
 - يا بنتي إنت في نومة دا عضو مجلس الشعب من مدة..
 - بقه ده عضو مجلس شعب..
 - بفلوسه يا بنتي تبقه كل حاجة.. يا بنتي إحنا مالنا.. المهم خدمنا وآدي الكرت أهه اللي ها ندخل بيه..
 - خلاص ياماما خلاص.. ربنا يخليك يا ماما..
- .. ولظروف عملي في هذا اليوم تطوع ممدوح خال محمود في الذهاب معهم للزيارة.. وكان الفوج الصغير مكون من الأم وبسنت ومحمد والجدة وخال الأبناء.. وفي المساء حكوا لي كيف دخلوا.. وشعر جميعهم بأن صاحب الزيارة كوسة كبيرة في مصلحة السجون.. أجلسوهم في غرفة وحدهم وفرشوا لهم حصيرة كبيرة وكان المرشدون والمرشدات منبهرين لمظهر أصحاب الزيارة.. ولم يخفي أحد منهم إندهاشه بأنهم بدأوا يعتقلون أولاد ناس.. أولاد ناس غير غالبية الناس أهل المعتقلين الآخرين حيث المستوى الاجتماعي الضحل والفقير المدقع.. ووصل بالمخبرين والمخبرات الذين يرتدون ملابس مدنية أن كل واحد منهم دخل وحده على أهل محمود ليقول كل منهم نص كلمة واحدة مفادها :

- أي خدمة .. احنا تحت أمركم .. إحنا تحت أمرك يا محمود .. اقعدوا براحتكم .. وما كان من جدة محمود إلا أن تضع في يد كل منهم مخبر أو مخبرة عشرة جنيهات حتى وصل مجموع ما وزعته في هذه الزيارة أكثر من مائة وخمسين جنيها ..

وكم كانت حكاوي الأم والجددة والحال وبسنت ومحمد الصغير عن كيف لقوا محمود وكم كان البكاء واللقاء شديد الأثر في نفوسهم وفي نفس وليدهم الذي أخذته نوبات البكاء الشديدة على فترات وكيف كانت أمه تحضنه وتضع رأسه على صدرها وتقبل يده .. كثير من الأسئلة والتساؤلات والدموع والإنفعال جمع بينهم جميعا حتى وصل وقت الزيارة أكثر من ساعتين وكله بالفلوس والكوسة .. حتى أن مأمور السجن جاء إليهم ليلمح كوسة العميد / م. ح صديقه وكذلك المقدم مسئول أمن الدولة .. وكان أشد الحوارات واقعية مع محمود وأهله :

- قاعد مع مين

- مع سبعة كبار عني بكثير ..

- بتعرف تنام ..

- من الزحمة بنام على جنبي والبلاط سقعة أوي والبطاطين قليلة ومتقطعة .. فيه ناس وسايط بيحبيوا لأولادهم مراتب سفنح .

- بسيطة ما حنا واسطة برضه وهانجيب لك اللسي انت

عايزه ..

- الأكل زبالة..
- يعني بتجوعوا..
- الأكل الملكي متوفر من يوم للتاني فيه زيارة لواحد في الزنزانة، فيه واحد من المترلة بيعيله أحلى سمك..
- يعني ماشية..
- يانهار يا ستو إنت جايه ثلاث شوله..
- كل حاجة في الدنيا فيها.. كل يابني وحاول تنسى وربنا كريم انتقامه عزيز.
- عايز فلوس ..
- وفي لحظة أخرجت أمه وجدته وخاله مجموع خمسمائة جنيه..
- لأ مش عايزها كده.. ابعثوها بحوالة باسمي تبقه رصيد لي في الكانتين بكفاية ميتين..
- خدها كده أحسن وأسهل..
- ممنوع الفلوس معايا.. لما يفتشوا بياخدوا الفلوس..
- ليه مش قاعد مع العيال اللي كانوا معاك..
- تقريبا عايزين العيال يتأثروا بكلام الشيوخ علشان يقولوا في الآخر.. بص شوف العيال تستاهل.. شوفوا أفكارهم..
- إحنا ماظلمناش حد..

- والشيوخ يقولوا إيه ..

- أشعر أنه كلام مش فاهم فيه حاجة وأنا مالي ومال
الكلام ده.. جهاد إيه هوّ أنا أد كل ده.. هوّ بالزور بيرموا
الناس.. هوّ بالعافية وأنا طفل بقيت مجاهد.. دانا معرفش أي
حاجة لا أد السجن ولا أد الحبس ولا أد ضفر الشيوخ ولا في
حاجة لأن أكون نبت خطير هااعمل لما أكبر.. أكيد الناس دي
إتجننت.. أعتقد أنه ها بيقة خطير هاته زيبه وهو صغير وطلّعه
حطام.. طيب دا كله لما تقتل البراءة وزرع الحسب والخير في
قلوب الأطفال انت كده تبقه جدع أدام أمريكا يقولوا عليك
حتى الأطفال دخلوهم المعتقلات علشان حتى يقضوا على النبت
اللي ممكن يكون خطير بعد كده.. صحيح سياسة صديق
أحل صديق وأوفي صديق..

- مين قال لك الكلام دا كله يا محمود..

- هوّ دا بالضبط يا خالي.. إنت عارف دلوقتي أنا بكره
تلات حاجات.. وسكت..

- إيه همّه يا محمود..

- بكره شريف اللي قبض عليّ وبكره الشيوخ اللي معايا
كره العمى وبكره الضلّمة اللي اتقفلت عليه إلى أجل لا
يعرفه إلا الله.

- وبتحب إيه يا محمود بعد ما دخلت..
- ما بقتش أحب أي حاجة.. بحب أهلي بس بحب أشوف أهلي كل يوم.. لكن قبل كده كنت بحب كل اللي حواليه وكل الشوارع وكل الناس بحب كل بلدي..
- ولما تطلع من هنا تحب مين..
- مش هاحب أي حد.. ومش هاقعد مع أهلي تاني لأن بابا وماما سبابوهم ياخدوني.. هاروح بلد بعيدة فيها ما حدش يدخل عليّ يخدني بهذه الفوضى وهذه الغطرية وهذا القهر والظلم.. هاروح بلد فيها الأمان..
- ياه أد كده وصلت نفسيك يا محمود..
- ما عدش أي حاجة في نفسي يا خالي.. هو إنت فين علشان تتكلم عن النفسية.. علم النفس والنفسية والإنسانية والذوق والاحترام والحب والعدل دي حاجات مش في بلادنا ههائي.. بعد كل اللي حصل ده لطفل زيي وتقولللي نفسي.. نفسي اتحطمت كلها خلاص وأراهن لو لقيت حاجة جوايه حلوة.. إنها الإبادة يا خالي.. لقد أبادوا طفلا مثلي.. وشوف كام طفل زيي وكان بري.. أبادوا آلاف الأبرياء آلاف الأطفال وبالتالي أبادوا كل أهل وأصدقاء وأحباب هؤلاء الأبرياء.. إن الإبادة بكل معانيها دخلت بيوت غالبية هذا المجتمع.. والمشكلة أنهم لا يتوقفون..

- طيب ماترعلش أوي كده.. طول بالك والله هاتخرج
وتبقة زي الفل.. هذي يا محمود هذي.. هاييجي يوم يعرفوا
فيه إنهم غلطانين ويدوا للناس كرامتهم ويعيدو بناء اللي
إنهد..

- إن هؤلاء لا يعرفون البناء.. إنهم يحترفون القمع.. إسأل
اللي وقع واللي اعتقل واللي اتأخذ من بيت أبوه وأمه
وأخواته بكل سفالة وانحطاط.. مين يجيب حقي وحق أبوي
وأمي من الناس دي.. يعني انتوا ما حدش قادر يوقفكم ولا
يقول لكم عيب كفاية..

- ما حدش يا محمود.. هم اتسيبوا على البلد وخلص..

- تصدقي يا ماما أنا متهيأ لي إن البلد كلها في السجن..
وتقريبا هم هايدخلوا البلد كلها.. وانتم جاين بين الإدارات
القديمة للسجون شفتوا المسلح والطوب الأحمر شفتوا أد إيه
بينوا سجون جديدة..

- وش عرفك يا محمود.. إنت جوّه شايف حاجة..

- الزوّار بيقلوا كل حاجة بيشفوها وهم جاين أو
خارجين..

- ما فيش تحقيقات معاك يا محمود..

- لأ يا ستو.. العملية مرسومة وسياسة مخطط لها المهم
يجيبو عدد من الأطفال..

- تهتمك إيه؟

- محاولة الانتماء لجماعات إسلامية.

- وليه محاولتك ما بنححتش

- أصلى اترحلت عا السلم..

- وكل الناس دي اترحلت..

- أيوه.. يا ماما الظلم واسع وتفانيده وأساليبه وأباطيله

سهلة أوي.. وسهل علي كل واحد في الدنيا يظلم ويفتري..

حاولنا ولما فشلنا خدونا برضه لأن عندنا تطلعات جامدة

أوي.. والله يا ستو عمري ما رحت ميدان الألف مسكن

اللي جنبنا وفي مرة قلت لإيهاب تعال نتمشى لغاية الميدان

حتى نشوفه قاللي يا لهوي نتوه لأ يا محمود ولو بابا عرف

هايضربني..

- إيهاب مين..

- ماهو جه معايا ياستو.. واد من دوري وطول عمرنا من

إبتدائية بناخد دروس مع بعض..

- العملية عيال في عيال.. تهريج مسخرة حاجات زي

كده..

- إوعي يسمعوك يا ستي..

- يا ريت ياخدوني بدالك يا بني.. تعال شوف الكلام والله

لو خدوا الناس على كلامهم لكل الشعب المصري يدخل

السجن.. الناس خلاص فاض بيها..

- إنت ياستي عارفه كل حاجة..
- يعني إيه جماعات إسلامية يا محمود..
- الناس اللي بتلبس جلابيب بيضه..
- وليه لبست جلابية بيضه..
- في مرّة خالى إداني جلابية وقال حلوة في صلاة الجمعة لقيتها خفيفه واشترت جلابية تانية..
- البس زي أبوك يا محمود..
- يا ريت كنت زي أبويا وما رحتش الجامع إلا كل جمعه زيه..
- طيب إيه اللي خلاك تروح تصلي على طول في الجامع..
- مالمقتش أي حاجة تانية مفتوحة غيره..
- روح نادي ..
- بابا مش بتاع نوادي ولا جوامع..
- ما هو بابا مش ها يجيب أربعين ألف جنيهه علشان يشترك في نادي الشمس..
- دا فعلا حصل طلبت منه كده.. قال لي ما قدرش بعد كده انحرقت ورحت الجامع..

- كل حاجة أتقلبت.. يعني المشكلة كلها كنت عايز حته
واسعة تلعب فيها..

- هيّ دي كانت المشكلة.. لكن والله لو كنت أعرف إنهم
ها يقفشوا اللسي بيروحوا الجوامع وها يحصل لي ده عمري ما
كنت أروح أصلي في الجامع حتى صلاة الجمعة أصلها في
البيت.. مين كان يعرف المصيبة دي مستحبة لي فين..

- خلتهم يروحوا آخر الدنيا هانشوف مين اللسي ها
يكسب.. روحوا بحق اللسي إحنا فيه الله يتليكم بمصيبة..
- معلش يا ستي يا حبيبي.. أد كده بتحبيني..
- أمال أحب مين يا ضنا قلبي..

وراحت تبكي وتبعثها أمه وكانت تتشنج في بكائها.. حتي
الصغير محمد بكى وبسنت الطالبة في كلية آداب عين شمس
قسم عبري.. راحت تبكي ولكن بالعبري..

إلى أن جاء المخبر الأزعر معلنا انتهاء الزيارة والتي استمرت
لأكثر من ساعتين.. وقام الجميع يحتضن ضناه مودعا..

وهكذا بدأت الصورة تتضح فكل واحد يكربج للآخر
دون أن يدري وفي لحظة واحدة يجد الإنسان نفسه في ظلمة،
فلا كرامة لمواطن إذا خاف الضابط من الكريجة فراح يكربج
للمواطنين.. الكل يضرب بعضه فكان السقوط وانهايار المجتمع..

لقد أصبح كل إنسان يشعر أنه في محيط يغرق فيه حتى يصل لإنقاذ حياته فهل الجميع عادوا غرقى.. وفي أي نوع من الغرق نغرق.. إن الوطنية وحب الوطن ليس شعارات وأناشيد حماسية وهتافات.. عندما كبرت شعرت بأني كنت طفلا غيبيا وغلاما مغفلا وهي فترة التلمذة في المدرسة الابتدائية والإعدادية. وكأي تلميذ في بلدي في هاتين المرحلتين يكون التلميذ مغيبا وليس عنده إلا قليل من الوعي وأكبر شيء يستوعبه هو مايملي عليه من المدرسين.. صور للوطنية جوفاء لا تكون إلا في بلاد يحكمها العسكر لأنه من أين يأتي العسكري بأي جوهر.. هل يستطيع الجبان الذي يحيا في دائرة الخوف أن يتولد عنه أمن أو عدل.. هل يستطيع ضباط دولة العسكر أن يعتقلوا كل الشعب.. هل تخرجت من كليتك أيها الضباط لتعتقل الأبرياء وتنتهك حرمت البيوت وبأي قانون تعمل.. أنت في جانب وكل من تخرجوا في كليات مدنية أو كل المدنيين على اختلاف ثقافتهم وتعليمهم ودرجة وعيهم وجهلهم في جانب آخر.. هل تخرجت أيها الضابط لتقطع أو اصل الحياة بين أفراد المجتمع.. لتشوه الحياة.. وهل الأمن عندكم إعتقال وتنكيل وعنف.. ومن أين يأتي المجتمع المدني بالإمان.. وإذا كان المجتمع المدني مهدد كل يوم بكل بواعث الخوف فكيف لمجتمع مثل هذا يجب وطنه.. وكيف لمجتمع مثل هذا يدافع عن وطنه.. هل أنتم كفيلين بالدفاع عن الوطن وهل تحبون أوطانكم بترهيب الناس وتخويفهم وانتهاك حرمت منازلهم والسطو على أموالهم.. متى

تتوقفوا ومتي يكون لك استراتيجية أمن حقيقي ومتي يكون لكم حدود لا تتعدوها وكيف تحافظون على أمن الوطن الحقيقي.. وكيف ومتي تحترمون حقوق المجتمع المدني وحقوق الإنسان..

.. هكذا رحنت في غيبوبة التفكير العميق عندما سمعت منهم الحوارات الكثيفة والعميقة والمحنة التي دارت بين ابني محمود وأفراد أسرته.. ولما شعرت بأنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء سوى أن أكلّم نفسي وأبعث بهذه الرسالة إلى الجميع.. وأيقنت أن هذه الرسالة هي رسالة ذاتية لا تخرج عن إطار كون النفس تكلّم نفسها شعرت بأنني أضعف من الضعف..

.. نزلت من بيتي في جسر السويس متوجها إلى بيتي في حدائق الزيتون.. بيت ماريانا الحب والنور الذي يرحمني من قيودي وكلامي في سجن حياتي الكبير.. وكعادتها قابلتني بالبهجة ولما استرحت في فراشها كنت أشعر بأن قلبي ينقبض وأن وجعاً في صدري جعلني أقول:

- إنني أشعر بأن أنفاسي تحتنق في داخلي..

.. وضعت رأسها على صدري وراحت تتحبب.. ورحنت أربت بأناملي فوق شعرها الأسود المنسدل على ظهرها وأقول هامسا:

- لماذا هذه الدموع.. لماذا البكاء الآن..
- لا شيء.. ولكنني بدأت أضيّق من جو العمل..
- كيف.. هل حدث شيء..
- أحداث تخص جماعتكم..
- وهل لنا جماعة.. أي جماعة تقصدين..
- الجماعة التي يتزعمها محمد عبدالعزيز محاريق..
- محاريق مسئول الأرشيف..
- نعم..
- ما الذي حدث..؟
- افترض أنك صاحب شركة.. هل ترضي وتقبل نفسياً لجماعة من الموظفين المسيحيين أن يقيموا طقوس دينهم كل يوم من ثلاث إلى خمس مرّات في شكل جماعي وبصوت جهوري..
- العبادة شيء خاص بالعبد وربّه وليس لأحد أن يقيمها بشكل جماعي و جهوري لأننا لسنا في دار عبادة نحن في شركة..
- محاريق بشكل علني يجمع كل العاملين المسلمين في كافة الأدوار ويؤمّمهم كأنهم في مسجد وبصوت عالٍ مما إستفزّ بعض

الأخوة المسيحيين الذين ذهبوا إلى الخواجة معترضين بأننا لسنا في مسجد حتى يحدث هذا في اليوم عدة مرات.. وأبلغوه أنهم يشعرون أنه يعيشون في شكل دعوة وليس جو شركة..

- وماذا فعل الخواجة..

- طلبني في مكتبه وذهبت إليه اليوم في الموسيقى وأبلغني بكل هدوء بأن أبلغك وعليك أن تتصرف في الموضوع بالشكل الذي يرضى الجميع..

- يا للأسف.. العبادة ليست جمهرة ولا إثارة وإذا كان يعتقد ذلك فليس هذا مكانها وكل واحد له بيت يفعل فيه ما يشاء ودور العبادة موجودة..

- انتوي صبري أن يخلص الموضوع في صباح اليوم التالي، ولقد نغص عليه الموضوع ليلته وقضى وقته حتى الصباح مهموما قلقا، ولأول مرة منذ مدة طويلة يذهب إلى عمله في العاشرة صباحا وتبعته ماريانا وجلس إلى مكتبه يفضّ بعض أوراقه وتقاريره حتى تكتبها ماريانا على الحاسب في شكل أجمل كما تعودّ منها.. وبعد ان انتهت جولة من العمل في الحادية عشرة والنصف هاتفت ماريانا محاريق مسئول الأرشيف للحضور إلى مكتب المدير المالي..

ودخل عليه مرتبكا حتى أصبح يقف أمام مكتب المدير وقال وهو ينحني مظهرا طاعته:

- تحت أمرك يا بيه..

- أمري إيه إنت خلّيت حاجة..

وأخذ صبرى يجول بيضره في وجهه يتفرّسه شذراً ثم قال
وهو يكظم غيظه :

- شوف بقه أنا خدمتك في شركة باور عشان خاطر
حسن محاريق.. ولما جيت هنا جبّتك برضه علشان حسن
ونجيتك من فريد السبكي صاحب شركة باور ومن إذلاله
ليك..

- أي والله صحيح عارف يا بيه إنت مغرّقي بجمايك بس
هوّ فيه إيه ..

- هاجيب لك من الآخر.. وقت الجد جد.. إنت ليه
بتصللي جماعة وبصوت عال .. مش ده بيثير الناس هو إحنا
في جامع.. وقلت قبل كده بلاش كده من نفسي لحد ما الناس
إشتكت ليه بس المشاكل..

- هيّ صلاة ربنا يا بيه فيها حاجة دول ناس بيتلككوا..

- يخرّب بيت فيشا وحسن وانت هيّ كلمة واجدة..
تصلّي لوحدك وفي هدوء ولو كررت تاني هامشيّك من هنا لأن
إنت زعيم الناس دي واحنا هنا في شغل وبس..

- يعني ها يحوشونا عن الصلاة!!

- برضه غشيم وحمار إفهم.. صلي وخللي عندك دم دي
شركتهم إصحى.. صلي لوحدك مش بالشكل المثير ده .. يا
محمد إحنا في بيتهم فاهم.. وصاحب الشركة فوض الأمر لي
أعاجه.. إحمدوا ربنا إنه ما طردكش مرة واحدة..

- طيب حاضر خلاص.. خلاص يا بيه..

- كل ده يتم من النهاردة كل واحد في حاله ويصلي مع
نفسه..

- حاضر يا بيه حاضر.. وراح يرجع بظهره حتى ارتطم
بالباب الزجاجي وكاد يكسره وكررت ماريانا عليه الكلام..

- خلاص الموضوع إنتهي..

ورفع كف يده إلى جبينه كأنه يضرب تعظيم سلام لقائده
فابتسمت ماريانا وكررت ثانية :

- المهم دا ما يحصلش تاني..

وانصرف محاريق وانهمك صبرى وماريانا بعض الوقت في
أوراقهما ثم أخبر صبرى ماريانا بأن تبلغ الخواجه بأن كل
شيء على ما يرام وأن صبرى قد فعل كل شيء وأنهى
الموضوع.. ورد الخواجه عليها بكلمة واحدة كررها كثيرا..
أتمنى .. أتمنى ..

وجاء يوم بعد أيام كثيرة مضت أتانا العميد الذي يعمل في
مصلحة السجون بزيارة لمحمود، وكان لذلك أثر بالغ في إسعاد

السيدة زكية أم ماريانا لأنها كانت تريد أن تقوم بأي عمل طيب نحو صبرى وابنه محمود، ومنذ يومين والسيدة الفاضلة تعدّ من الطعام والحلوى والفاكهة التي ستحملها للصبي ما يكفي لإطعام فصيلة من العسكر.. وقمت بتعبئته في أربعة أجنحة ولما حان وقت أن نذهب في الصباح إلى طرة البلد كانت الساعة تقترب من الثامنة والنصف، وناديت أحد حراس العمارات المجاورة لحمل هذه المؤن إلى سيارة ماريانا، ولما بدأت المركبة تنطلق محترقة شارع العزيز بالله إلى شارع جسر السويس كانت السيدة الكبيرة ترد على تليفونها المحمول :

- أيوه يا بني يا حبيبي.. إحنا طلعلنا ..

- عسكري عند الباب منتظرنا وها يعرفنا إزاي.. لما نوصل
أرن له إسمه.. دقيقة أسجل غمرته إسمه دسوقي.. يعني إحنا طلعلنا
على ميدان روكسي أهه.. دقيقة ها نكون في صلاح سالم..
فيها نص ساعة لو الطريق فاضي.. هاندخل من الباب الكبير ها
يشيل كل حاجة معانا شيل كثير.. طيب الحمد لله معاه عربية
من جوّه ها يشيل فيها كل حاجة ويدخل بينا.. ربنا يخليك يا
بني كل ده عملته.. هانقعد معاه لوحدنا الزيارة ساعتين
وأكثر.. دا كثير أوي علينا يا حبيبي.. أدعيلك طول عمري مع
السلامة.. يا روح قلبي..

.. وتنفست في ارتياح وهي تقول :

- عملنا أذّا منا ..

- يعني إيه يا ماما ..

- كل حاجة متسهلة يا ماريانا ..

وابتسمت ماريًا وقالت وهي تضع كف يدها على بطن صبرى وقالت :

- حبيبي مبسوط .. مبسوط أوي ..

- الله إيدك حلوه خلّسها ..

- الله يا صبرى عيب أوي ماما موجودة ..

وقهقهت السيدة .. ملأ فيها لسعادتها مداعبة ابنتها لزوجها وقالت :

- خلاص يا ماريانا هيّ حبكت دلوقتي .. لما ترجعوا ..

- طبعًا يا ماما بجه يا ماماني أي وقت أداعبه وألاعبه أنبا عايزاه بس يخرج من المود اللي فيه واخذة واحدة دا دوري ياماما ويسيب بشأن محمود على الله وبس ..

وقال صبرى وابتسامته تفرش وجهه كله :

- أنا كنت من غيركم هاروح فين كان مين هايسعدي ..

مليتوا عليّ كل حياتي .. إنتو أكثر من أهل ..

- أنا وبنتي بالنيابة عن كل أهل البلد ..

- والله ياسيدي لا شك أن كل أهل القرى في الأصل لهم
قلوب طيبة ولكنها قلوب مسدودة.

- هل تعرف لماذا.. لأن أهل القرى عاشوا عقوداً طويلة
والقرية مقفلة عليهم وإذا خرجوا منها سرعان ما عادوا إليها
يرتادون جليباها.. إن عقوداً طويلة من زراعات فاشلة وقروض
من بنك القرية ومشاريع علف وهمية جعل أهل القرى يخرجون
من فشل ليعيشوا في فشل آخر.. وفي كل هذه السنين الطويلة
لم يصل الفلاح إلى شيء لأنه لم ينجح في يوم من الأيام لأنهم
كانوا يسوقون إليه بمشاريع تتبع سياسات فاشلة ولم يحدث أي
تنمية زراعية أو حيوانية ولكن الحدث الفاعل والسلي أن
الفلاح انفصل عن مهنته وهدمت البيوت القديمة وأفران الخبز
التي كانت تكفي كل بيت من كل أنواع الخبز.. عيش، بتاو،
فطير، كعك..

كل هذا تهدم وتعالى روح القرية.. ماذا ترى.. ترى ما لا يسر
عيني.. طوابير العيش أمام الطابونة.. يتقاتل الفلاح والفلاح
من أجل الحصول على رغيف خبز هزيل..

- من أجل هذا أقول لم يعد في قلوب أهل القرى شيء
طيب يناصرون فيه أي عدل أو يدفعون الظلم عن أي أحد من
قريتهم.. تفتت القلوب ولم تعد بيضاء ولذلك فإنك تجد الآن
الحقد ينتشر بينهم ومجموعات كثيفة من الناس تعيش في رقعة
ضيقة من الأرض وضائق الأرزاق بهم.. فكيف تطلين من ناس

جرى في المزيج الأخير من ليلة أمس جرح تبقى في نفسه ما عاش ولكن إلى من يذهب في وسط هذا الظلام داخل هذه الحيطان.. إنها موجات من الظلام الدامس الذي لا ينقشع إلا بقوة إله جبار ويدربكها ويهداها كما دك قرى وبيوت وعمار أهل الظلمين والمارقين والفاسقين من قبل.. وتساءل الطفل قائلاً في براءة :

- لماذا يسكت الله على هؤلاء.. لما يتركهم يعتقلون الأطفال والأبرياء ويتهكون حرمان البيوت.. لماذا كل هذا التاريخ الأسود لهؤلاء الظلمة ولا ينتقم منهم الله حتى الآن.. وقال بصوت مسموع :

- ألا تكفي حكايتي يا ربي العظيم.. حكاية طفل لا يعرف حتى الآن ما لون الأبيض والأسود في هذه الدنيا.. أسألك الانتقام.. الانتقام لي.. وأكد هناك أطفال مثلي بالمئات بين هذه الحيطان العفنة في بلادي هذا غير الأبرياء.. أكل هذا الظلم البائن لأبرياء بلادي المساكين بعد أحداث ١١ سبتمبر لتكون الرسالة قوية وواضحة لأمركا.. نحن هنا نضرب بيد من حديد على كل مواطن الإرهاب في البلاد حتى الأطنان جئنا بمس أحضان أمهاتهم حتى لا يكونوا إرهابيين عندما يكبروا.. هكذا يكون الإخلاص والوفاء.. هكذا تكون العمالة لأمركا.. أدركت الآن أنني ضحية ضعف سياسي مهين وضعف أخلاقي وإداري فظيع في إدارة بلادي.. وكان شيء طبيعي أن تقول لي يا أبي.. شيء طبيعي انهيار سياسي أدى إلى انهيار اقتصادي

مدمر وبالتالي كان الانهيار الاجتماعي.. نبت في بلادى الخوف
وزرعه الوهن الشديد في قلوب كل الأطفال والرجال والنساء
حتى الوليد الصغير من الحيوانات والطيور والحشرات.. إذا
أردت شتلة خوف تعال أيها العالم خذها من بلادى.. إذا أردتم
الضعف والفقر والحرمان والعوز والعري تعال خذها من
بلادى.. إذا أردت نساء عاهرات رخيصات تعال خذها من
بلادى.. كل ما هو مهين وحقير ونذل وسافر ومنحط تعال
واغرف منها في بلادى.. لم يذكر محمود في حديثه الخطير
الهامس أي كلمة عن الشرع أو الجماعات الإسلامية التي كان
يحاول الانتماء إليها ولم ينجح وباليته نجح حتى يكون هناك
مربر وحيد لوجوده بين هذه الحيطان، أقسم لكم يا سادة أن
محمود الذي مازال يصلى بين هذه القيود والأغلال لم يحفظ من
القرآن العظيم غير سورة الفاتحة والمعوذتين والنصر وقل هو الله
أحد.. وهي السور التي حفظها من أمه قبل أن يدخل الحضانة..
هو يعرف فقط الآن لماذا يصبر على الصلاة هنا ولماذا يصبر على
مناجاة الله هنا.. هو شيء وحيد أن ينقذه الله في يوم ويعود إلى
بيت أبيه وأمه.. هذه هي أمنيته وحلمه وطموحه أن يكون حرا
وأن يحاسب على شيء اقترفه وأن يعود إلى أمه ليكون رضيعا
من جديد والشيء الغريب الذي يراود خيال محمود منذ أن
عذبوه في مدينة السلام أن ينقذه الله من هذا الظلام وعندما
يعود إلى أمه يعرّي صدرها ويمسك بثديها ويرضع حليبها.. هل
حدث في عقله خلل أم أن هذه أمنية طفل حقيقية وطبيعية

وليس فيها من العيب شيء وعلينا أن نحترمها.. إلى من يبعث محمود بهذه الرسالة .. من يحقق لمحمود هذه الأمنية.. إن كل حقوق الإنسان وأصول القانون الدولي وكل الدساتير المحترمة في العالم لا تستطيع أن تحقق لمحمود أية أمنية.. إن كل هذه الحقوق الإنسانية العظيمة تصل إلى أعتاب بلادي وتقف ويصيبها الشلل التام.. إن أقوى شيء في بلادي هو الكرياج هو حيطان المعتقلات والسجون ولا يستطيع أي شيء إنساني أو أخلاقي أو يدعو إلى أي قيمة حقيقية أن يكون له أي وجود في بلادي .. على عتبتها ينكسر الحق ويذهب النور ليصبح ظلام.. على عتبتها يبدأ الانحطاط الإنساني في العصر الحديث.. كاد محمود يجن وانفجج من نومه القلق وهو يجد كف يد الشيخ عبد الجليل الذي يبلغ من العمر الخامسة والأربعين عاما وذقنه تكاد تلامس أصابع قدميه وهو يجلس.. كف يده يتحرك بخنان بالغ ورقة ترتعش بالشهوة الجاححة فوق إتيته وبدأ يقيق.. يا لهوي.. وشدّ الولد جسده قليلا في محاولة منه عسى أن يتعدد الرجل.. لكن فجأة ارتمي الرجل فوق الصبي وكأنه يحلم أو يمشل بأن وقع عليه فجأة وليعرف مرة واحدة مدى مقاومة الولد.. تأكد الطفل أن مقصد الشيخ حقيقي وأنه فعلا بدأ في إستدراجه ثم بدأ معه أول حركات العنف.. وبقوة رجل كبير تمكن محمود من قبضته لحظة وتجنب جسده ثم قفز فوق الشيخ بعد أن لكمه قبضة قوية بقبضته الصغيرة فوق رأسه وتلاها

بثانية وثالثة فتأوه الشيخ وانبري تحته خائفا وعمل كأنه يحمي نفسه من الصبي قائلا :

- مالك فيه إيه يا محمود إنت بتحلم.. حوش الولد يا عبدالعظيم..

.. وزعق الصغير وهو يهرس الشيخ تحته بقدميه وبدأ يبصق على وجهه وصوته يعلو حتي استيقظ أفراد الزنانة وراحو يمسون بالصبي متسائلين :

- فيه إيه يا عبدالجليل.. فيه إيه يا محمود..

.. سكت عبدالجليل وانزوى وزعق محمود : هوّ أنا مومس يا كلب.. يا راجل يا وسخ يا شرموط.. أنا راجل من ضهر راجل يا جرجارة الناس..

هزّ شيخ عبدالنعيم رأسه في أسف وقال وهو حزين :

- برضه تاني مرّة تعملها يا عبدالجليل قبل كده سترها المولى عليك.. لكن مش كل ولد صغيرها يسيك وها يخاف منك.. والله تستاهل اللي يجري عليك وأنا أول واحد شاهد عليك فضحتنا وفضحت الزنانة وكل الشيوخ..

.. ولم يكن لدى عبدالجليل سوى أنه انزوى في الركن بعيدا عن متناول ضربات الصبي وراح يتمتم.. كنت باطمئن عليك.. أصل سمعته بينازع فكرت إنه بيه حاجة.. كنت باطمئن عليه.. وانهار الولد وكأنه في شارع وشلح سرواله عنه ووقف فوق

الشيخ وراح يتبول على وجهه وعبدالجليل يستسلم قائلا وكأنه غلبان يستغيث.. شايقين شايقين أنا سايبه يعمل إيه..

.. وكانت كل الذقون في الزنزانة تهتز تحت وجوه أصحابها أنهم جميعا فرحين في حبث ولم يحاول أحد منهم منع محمود بقوة.. كانوا جميعا يكرهون عبدالجليل فتركوا الصبي ينكل به.. وكانت كلماتهم وكأنهم يحتمون في الدين.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. كان خزيا وعارا وضعفا واختياء يسرى بينهم جميعا وكان الوحيد الشجاع هو ذلك الطفل الذي ناضل عن شرفه في قوة دون النظر ما جزاء فعله هذا من إدارة السجون.. لم يكن يعرف غير دين اللحظة فدافع عن نفسه به.. وتهدجت أنفاس الصبي ووقع على الأرض منهارا وراح يصرخ ..

- ياولاد الكلب طلعتوني من هنا .. أنا مش من هنا.. أنا غير دول..

- أنا راجل أنا ماليش في كل الكلام ده.. إنتوا حاطنسي هنا وجبه للشيخ..

- إنتو بتصبروا الشيخ وتعملوا نفسكم مش شايقين.. هو إنتو هنا عايزين الناس تخلص على بعض.. سؤال مين يجاوبني عليه برّه أو جوّه مين يجاوب إنتوا بتحطوا أطفال زيّ مع ولاد دين الكلب دول ليه.. نفسي حد يرد عليّ.. نفسي حد يقول

الحقيقية.. نفسي حديقول لي أي حاجة.. أنا عايز حقي ياوولاد
دين الكلب.. الدين منكم كلكنم بريء.. أنتوا كلكنم ظلام
العصر دا كله من أوله لآخره.. وتشنج الصبي وراح يهزي
بالكثير الذي لم يعرف أحد له معنى وكأنه انجذب..

.. استيقظ الجميع وراحت جنيات السجن في كل زنزانية

تتناقل ما حدث في الزنزانية رقم ١١ وما فعله الطفل البطل

بالشيخ وكان آخر من علم بالأمر الضابط النوبتجي الذي

استيقظ من نومه على مهل ولما فتح جرس السجن زنزانية

الحدث للنقيب.. كان محمود قد جلس وهدأ قليلا وكل شيخ

إنزوى في ركنه وعبدالجليل لايد في الجدران وكأنه يريد أن

يكون طوبة فيه.. وقال النقيب زاعقا:

- فيه إيه.. إيه اللي حصل؟

وفي صوت بعد الآخر:

- عبد النعيم كان عايز يخربط الولد..

- هو فاضحنا.. ما كلنا من غير نسوان بقالنا سنين..

- دا راجل عايز قطع الرقبة.. ما عملها قبل كده..

- لكن الولد دا راجل من ضهر راجل..

- محمود ده خد حق العيال اللي عملهم قبل كده

وسابوه خوف منه أوخوف من السجن الله أعلم..

- الواد ده أشجع راجل في السجن كله..

- والنبي كلهم يعملوا بلاوي وما فيش حد شايف حاجة..

وزعت الضابط ثانياً :

- بس خلاص.. إطلع يا عبدا الجليل..

تلكأ واصفر وجهه..

الضابط : اطلع يا ابن الوست

- حاضر

الضابط للعسكري : خد ابن الوست وحطه في الإنفرادية.

.. وانحنى الضابط على محمود في رفق وأخذه من ذراعته حتى مكتبه وأجلسه على مقعد خشبي وربت على كتفه وقال:

- ولد صغير بس راجل.. أحلى حاجة إنك شلفطته.. أبوك بيشتغل إيه يا محمود

- محاسب ..

- جابوك ليه يا محمود

- إسألهم.. أكيد إنت عارف

- والله مانا عارف حاجة أهو ملف مكتوب زي كل الملفات..

.. وكان الضابط ينظر إلى محمود في تقدير وأسعده أكثر أن الولد يتكلم في شجاعة معه دون أن يقول باشا أو بيه وكان يهز رأسه بمنة ويسرة وأخرى يقلب في أوراق الملف وثلاثة

يتأمل انغلام.. وفي محاولة أنه يريد أن يضع يده على ما حدث
فكان عليه أن يسمع من محمود فقال لمحمود :

- بدون زعل ولا ضيق قل لي عملك إيه ابن القـ ؟

- كنت أذهب في النوم فشعرت بيد تملّس على طيـ..

إندهشت وسكت شوية للتأكد مما يفعل.. ظن أنني مبسوط من
تمليسه فأدخل أصابعه بين الفلكتين وراح يغرزها ولم أتمالك
نفسي وصحوت وقفزت عليه وبصقت في وجهه كثيرا
ودهست وجهه وجسده بقدمي بما أوتيت من قوة ثم تبولت
عليه.. يا ريتني كنت أقدر أقتله.. على فكرة أنا راجل من ضر
راجل إحنا عيلتنا كلها تاجها الزجولة..

- إنت منين يا محمود؟

- من شنشور

- يا نهار اسود..

- ليه اسود هوّ أنا عملت حاجة ؟

- أبقه مش راجل لو ما جبّتش حقلك ..

- يا ريت ..

- إنت بتروح البلد

- بروح مع بابا لستو..

- ستك الحاجة حميدة ..

الأول وبعد ما يخلص ياخذ الباقي.. كان يقول أنا راجل كسيب وحقاني لأني باقتل الظلمة.. لكن ستي هربت منه ومارضيتش بحياته وراحت تشتغل في البيوت كمرية وطباخة واستقرت في بيت جدك لأن ستك عاملتها كويس وكأها من أهل البيت وساعدت ولادها الصبيان لما سابوا البلد وأوجدت ليهم شغل في مصر عند قرايها.. أنا واحد من ثلاثين حفيد للست دي.. على فكرة كل اللسي أعرفه عن البلد هي الحنة دي.. أكبر خير حصل لنا في حياتنا إن ستي وجدت كل الخير والمساعدة والحب في بيتكم وستك الحاجة حميدة شغلت أبويا وأعمامي كلهم في مصر بمساعدة ناس قرايب.. ستك..

- ويلف الزمن يا بيه وتبقه إنت ضابط وأنا مسجون..

- ويلف الزمن يا محمود ويعجي دوري.. إزاي أرد الجميل.. يا ريتني أقدر أطلعك من هنا..

وراح الضابط يبكي حتى أبكى محمود وكان يريد أن يقوم ويحتضنه بقوة ويهتف يسقط الظلم.. يسقط الظلم.. لكنه تدارى خاصة أن معه مخبر مخضرم يرافقه أينما ذهب وهذا المخبر يعمل منذ فترة في هذا السجن ويقولون عنه أنه خباص مأمور السجن وكان الضابط هذا يتبع إدارة السجن وليس أمن الدولة.. وبأقصى مجهود كان محمود في زنزانة صغار مثله تم هذا قبل ظهر هذا اليوم وكم كان محمود سعيدا بقصة هذا الضابط معه، وقبل أن يبدأ عمل السجن في الثامنة صباحا..

.. كان الشيخ عبدالجليل قد نال علقه ساخنة في زنزانه
الإنفرادية كادت تقضي به إلى الموت بواسطة هذا الضابط
وبعض المخبرين.. ومرّت ثلاثة أيام وتم نقل عبدالجليل إلى
سجن الوادي الجديد.. ومرّت أيام أخرى والضابط يوالي محمود
باهتمامه وخدماته حتى أفشى هذا المخبر القدم بكل ما سمعه
من حديث مع محمود والضابط إلى مأمور السجن العميد... أ.م.
ولم ينقض على ما حدث شهر حتى تم نقل الضابط إلى سجن
وادي النطرون..

وجد محمود كل الصغار الذي اعتقلوا معه.. وجلدهم في
زنزانه فشعر برحمة تزيح عن نفسه كثيرا من الكرب، وأعربوا
له جميعا عن سعادتهم به لما فعله مع الشيخ الحقير، ومرّت الليالي
المظلمة عليهم ولكن بروح ساخرة عما كان من قبل وكان كل
منهم يشجع الآخر ويأخذ بأزره بالكلام رغم أنه في حاجة لمن
يأخذ بأزره، وكان محمود الخطيب أكبرهم سنا وكان يحكي
لهم كثيرا عن أي شيء حتى يقوي عزيمتهم.. ونقل لهم أخبارا
عن أبيه وكأنه يعرفهم بنفسه :

- أبويا كان ضابط وحارب في حرب أكتوبر في قلب سينا
يأخذوا ابنه بدون ذنب.. أبويا كان راجل مكافح أوي خد
الإعدادية وهرب من قريته في سوهاج.. زي ما كل الناس
بتهرب من الفقر في بلادها ما صدق خد الإعدادية وجه مصر

إتطوع في الجيش كان كل هدفه ياكل عيش ويقبض فلوس
ينقذ نفسه ويساعد أبوه على عياله الكثيرة.. جاها من تحت
وذاق الويل في الجبال إلى أن طلع برتبة رائد.. شوف الراجل
شريف إزاي ومن ما فيش بني لنا بيت في عين شمس وربانا
كلنا تعليم عال وجوز إخواتي البنات وأحلى حاجة إنه اتجوز
بنت عمه بنت معاه الدنيا طوبة طوبة.. ناس أشرف جابينها
من تحت.. كل اللي عملته لما دخلت معهد الحاسب الآلي إني
رييت ذقني ربيتها وخلاص وعرف شوية عن السدين علسان
أتسلح بالصبر والكفاح وأبقة بعيد عن الإنحراف ومشيت في
حالي.. وفجأة خدوني لقيت نفسي معاكم.. المهم نرجع
لأبوياء.. إتخسر وأصيب بجلطة ثم شلل من الحسرة علي.. وقيل
ما تجيله الجلطة كان يرّد في الليل والنهار :

- بقه أنا اللي خضت حروب كثيرة على راسي يعملوا
فيه كده.. بيحي واحد ضابط عيل كان بيعملها على نفسه لما
كنت شايف الذل في الحرب قبل ١٩٧٣.. دا إحنا قعدنا من
١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ كل يوم وحدثنا العسكرية في حنة وكل
واحد راح الجيش يعرف إد إيه صعوبة النقل من مكان لمكان..
طيب يدوني فرصة ويقولوا ابنك انخراف وأنا هاعرف إزاي
أمنعه، طيب شوفوا أبوه خدتم فين وسجله كان إيه.. أد إيه
إحنا ناس أشرف طول عمرنا.. هي دي المكافأة اللي باخذها
منكم بعدما طلعت على المعاش.. راح أبوياء يقول ويعيد
ويتحسر إلى أن تم إصابته بالشلل التام.. أصبحت أمي وأخواتي

عندهم مصيبتين مصيبة جوّه البيت في أبويا ومصيبة برّه فيه أنا..
والعمل إيه شوفوا الظلم والبطش والتنكيل بيعمل إيه في الناس..
أكيد آلاف البيوت الرثية والمظلومة في البلد فيها يمكن أكثر من
- كده.. همّا عايزين إيه.. والله ما حد عارف واخذنا
ورايجن على فين..

.. واتفقنا جميعا وعلى سبيل التسلية أن يحكي كل متا
حكايته ويقول لنا تفاصيل عن أسرته على سبيل الروايات التي
كان يحكيها الشيخ علام.. وفي الليلة الثانية حكى لنا إيهاب:

- أنا سني ستاشر سنة بالضبط.. ساكن في شارع خالد بن
الوليد من يوم ما وعيت على الدنيا وأنا عارف محمود صبرى..
كنا مع بعض في الحضانة والابتدائي والإعدادي في مدرسة
الخطيب الخاصة في نفس الحقة، وكان أول إحتكاكي بمحمود
إن إحنا في يوم ضربنا بعض ضرب مبرح في المدرسة.. إتعاقنا
في المدرسة على مرأى من التلاميذ.. بعد كده واحدة واحدة
اتصاحبنا، أكبر حاجة عملناها كنا بنعدّي أنا ومحمود شارع
جسر السويس ونروح نلعب في التراك ودي حقة واسعة فضاء
جنب سور فندق السلام ما تعرفش بتاعت مين.. أبويا راجل
موظف.. مهندس زراعي.. مدير في وزارة الزراعة وأمّي معاه
موظفة في الوزارة برضه.. أبويا زي أي موظف ما يقدرشي
يدخلني نادي الشمس اللي قصاد بيتنا على طول ها يجيب
الألفات دي كلها منين.. وكل مانروح حقة نلعب فيها الناس

تجري ورانا وهاتك يا طوب.. سبحان الله.. هانروح فين.. في يوم اتفتت أنا ومحمود أن نروح الجامع فيه الشيخ خالد يقول كلام حلو أوي عن الدين والرسول طيب نروح الزاوية دي الناس بتقول إن الدين كويس ويمكن يهدينا شوية ويمص طاقتنا. رحت الجامع.. جامع صغير وسمعنا الشيخ خالد.. والله كلام حلو ولديذ.. الشيخ أترر فينا وبقينا نسمعه بعد الفجر شوية وبعد العشاء شوية.. وكان فيه واحد أعرج يقعد يسمع الشيخ يقول إيه.. بس كان يقعد بعيد شوية ويعمل إنه نام.. أتاري رمضان ده مخبر ويدخل علشان يعمل شغل كما تمليه عليه إدارة أمن الدولة في قسم السلام.. وفي يوم الشيخ.. قعد يقول اللي عايشين فيه دا ظلم واحنا عايزين عدل.. بلادنا عايزة واحد يحكمها بما أنزل الله.. اللي يحكم بغير شرع الله يقة كافر.. صح ولا لأ.. والشيخ حمّانا أوي وكل ما يقول كلمة نقول وراه أيوه صح.. أيوه كلام صحيح وحكم يرضي الله كنا لقينا حته نلعب فيها وكنا دخلنا نادي الشمس.. أيوه صحيح.. قلت له صح يا محمود.. صحيح لو فيه عدل كنا دخلنا النادي.. ورحنا نبكي.. أي والله بكيك أنا ومحمود من كلام الشيخ وتحميسه لينا، وكانت ظروف حياتي مع ظروف حياة محمود ومش عارفين نلعب في حته.. حسينا إننا عايشين في بلد ما فيها حته أرض نجري عليها ونلعب ويبدو أن كل واحد إفتكر ظلم حصل له وراح يبكي والشيخ يحمي.. ودخل في وسطنا رمضان الأعرج مخبر الحته وبلغ عننا.. دا الكلام

اللي حصل.. حصل لمدة شهر معايا ومع محمود وعرفنا بعد كده من أهالينا أن رمضان الأعرج دا هو مخبر أمن الدولة في الحتة.. ولا انتقلنا من الشارع يعني راجل بيهتف واحنا كئنا وراه لما كل واحد افكر حرمانه من حاجة حصلت له.. يعني لو لقينا حتة نلعب فيها عمرنا ما كنا عرفنا الشيخ خالد ولا دخلنا جامع.. المشكلة كانت عندي وعند محمود إن كنا عايزين نفجر الطاقة اللي جوانا.. للأسف.. رحنا في لعبة واحنا لسه عيال ما نعرفش القمحة من كوز الذرة.. ويقولوا إن تممتنا هي محاولة الانتماء لجماعات إسلامية.. يعني إيه.. ويعني إيه جماعات وهي فين الجماعات دي.. هو فيه جماعات إسلامية وجماعات تانية.. تعالى يا أمي صوتي عليه.. رحنا في شربة مية.. إحنا ضحية.. ضحية.. ضحية مين.. حد يقوللي إحنا الأطفال ضحية مين..

.. لم نكن ندافع عن أنفسنا فلم نكن أمام محكمة ولكننا في ظلام زنزاة مخيفة، ولم نكن نبرر شيئا خطأ اقترفناه فنحن جميعا لم نقترف أي شيء، كنا نبحت في ذواتنا ربما يكون هناك شيء مخيف فيها، لم يكن لدي أي منا معرفة عميقة بالحياة لأننا كنا في داخل الحياة الأولية بدلنولة أي إنسان، ربما كنا كالكقطط أو كالكلاب التي تمز ذيلها لكل من ابتسم لها أو داعبها، كيف تأتي أي تجربة في الحياة لأولاد لم يخرجوا عن نطاق شارعهم،

وكيف تنزل أي نازلة بأطفال يبحثون عن مكان يلعبون فيه..
إننا نعيش جميعا حياة يتولاها الأب والأم ولم يكن لأي منا رأي
في شيء، إن الحياة تأتي بتجارها حين يقذف بالإنسان خارج
نطاقها، نتكلم كثيرا عن حالنا ونعتبر الذي حدث لنا شيء من
الخيال المخيف الذي صنعه عمل الآخرين لنا وهم يتسابقون من
أجل النجاح في وظائفهم وإثبات ذواتهم المجنونة وليس مهما أن
يكون على حساب الأبرياء.. وكأن العنف والبطش والتكيل
في تفكيرهم هو الذي يصنع حالات خوف عامة تولد الأمان
والاستقرار والأمن لهم.. وكنا نقول إلى من نذهب بقضيتنا
ليحكم العدل لنا.. وللأسف عندما دخل كل منا في دوامة
عمل التظلمات وتحدد لنا الجلسات لكي تحكم المحكمة.. كنا
جميعا واحدا بعد الآخر يحكم له بالإفراج.. هو إفراج على
الورق.. إفراجات مزيفة لأنها لا تنفذ.. إن وزير الداخلية يقف
على باب كل إفراج ليكتب كلمة واحدة.. يعاد اعتقاله.. إلى
هذه الدرجة بلغ الظلم وبلغ التكيل والاستهتار بالبشر.. بدأ
ياسر كلامه بكل هذه الفلسفة وهذه التساؤلات وهذا الفكر
والذي ليس غريبا أن يصل إليه طالب في السنة الثانية بكلية
الهندسة وقد بلغ من العمر واحدا وعشرين عاما.. وبدأ بعد
ذلك يتكلم عن صلب حاله قائلا :

- أنا على فكرة أغلب واحد فيكم.. ساكنين في حارة مية
المجازي ضاربة فيها على طول شقتنا ما فيهاش كرسي حد يقعد
عليه.. أبويا من المنيا طلع من بندد وجه مصر.. كان قانع

وحافى مامعوش اللّصة.. اشتغل في قهوة وبعدين مرّت الأيام
بيه إشتري حمار وعربية وزاح يلف في الشوارع يبيع الخضار..
حاله اتحسن شويه سافر واتجوز-أمي من نفس بلده وكان عنده
نص قيراط باعه لأخوه وجه دفع مقدّم شقة أي كلام يمكن
لغاية دلوقتي تربط الحمار فيها يفك ويقطع.. بعدين القرش
جري معاه اتجوز واحدة تانية كانت عايشة في خص مع ولادها
في المرج.. مشيت الأيام وطلقّ أمي وسابها من غير أي
مصروف وكنا عيال صغيرة ققط عمي.. خمس عيال أنا
وأخويا وتلات بنات، تعمل إيه أمي.. ربنا كرمها وراحت
اشتغلت شغالة في بيت وكنا بنفرح لما ترجع البيت.. كل يوم
تيجي بشنطة فيها بواقي عيش ورز وطبيخ وعضم.. المهم والله
لولا الشنطة دي كنا هانعمل إيه.. ومشي الحال ناس غلابه ما
لهمش أب وأم شقيانة في البيوت وعيال عايشة على رزق يوم
بيوم بواقي كل بيت كرم.. وطبعاً لا أخفي عليكم كان كل
الناس اللي في الحقة تساعد أمي في المواسم وشهر رمضان
وكان ليها عند كثير من الناس نصيب من زكاة المال وزكاة
رمضان.. وفي يوم سافرت صاحبة البيت بلسها.. صاحب
البيت طمع في أمي واستطاعت في هذا اليوم أن تنجو منه
بأعجوبة.. سابت الشغل في البيت ده وقعدت شهر في البيت
بدون شغل.. شفنا في الشهر ده الجوع والذل والحرمان.. بعد
كده ربنا كرمها واشتغلت في بيت في مصر الجديدة.. معلش
كل حكايتي دي مع الزمن.. لكن الحكاية اللي جابتنى هنا

زي كل واحد فيكم .. سمعت الشيخ خالد وقلت له كلامك صح لو فيه عدل ما كنتش أُمِّي شافت اللسي شافته وما كناش شفنا الفقر ده... وأنا من يومي من سن عشر سنين وأنا باشتغل مرّة في محل أحذية ومرّي عند بقال ومرّة عامل نظافة في صالون حلاقة.. بعد كده ضربت معايا في بيت أقوم بأعمال النظافة فيه وأودّي الأطفال المدرسة وأجييهم.. وفي يوم صاحب البيت مات في حادثة وساب مراته شابة أربعين سنة.. في يوم قالت لي سيدة البيت أنا عايزاك تنضّف نفسك شوية.. بعد ما وديت الأولاد المدرسة في يوم ورجعت أنضّف البيت قالت إعمل سنالك بالمعجون وخش إستحمة كويس.. وكنت خادم مطيع لها قعدت شهر أنضف نفسي وأدخل إستحمة لغاية ما بقيت نضيف أوي.. راحت تغدق عليّ بالفلوس وطعام أخده لاختواتي.. إلى أن جاء يوم أخبرتني فيه بأنها تشعر بآلام في ظهرها وساقها وأنها في حاجة إلى علاج طبيعي وبدلا من الذهاب للطبيب عليّ أنا أقوم به مقابل أجر.. وواقفت علي الفور وقلت لها تحت أمرك.. أنا خدامك.. وكدت أجن وأنا أري لأول مرّة في حياتي جسد امرأة.. وقمت بتدليك كل مكان في جسدها إلى أن شعرت بانخيار تام لجسدي.. وشعرت بأقصى درجات الجنون عندما قالت لي.. إنت تعبت.. قلت لها تعبت.. فقالت إعمل ما تريده.. فقلت لها أنا مكسوف يا ستي.. فقالت وهي تضحك ضحكة ماجنة.. لأ يا سيدي أنا مش ستك.. إنت اللسي سيدي.. هو إنت مش راجل.. قلت

لها راجل أوي.. قالت طيب ورّيني.. قعدت معاها سنة وبعدين
تعبت نفسيا.. حكيت لراجل طيب موضوعي معاها فقال لي
عيشتك كلها حرام في حرام وامشي فوراً من البيت ده.. قلت
له والشغل والفلوس .. الراجل دا جاب لي شغله كويسة في
محل ملابس جاهزة بس على شرط أرّبي ذقني.. ربيت ذقني
وكنت حاسس إني عملت ذنوب كتيرة، تاني شرط أفتح المحل
بعد صلاة الفجر أجهّزه واشتغل في توضيب الفاترينات وأمشي
الضهر.. قلت أصلّي الفجر الأول واسمع شوية كلام من
الشيخ يغسلوا ذنوبي ويقويني كلام ربنا علشان مارجعش تساني
للمعصية.. آدي كل الحكاية.. من عاشق للست دي لمحّل
الملابس فين بقّة محاولتي للإتماء لجماعات إسلامية.. بصراحة
أنا لغاية دلوقتي بقول لنفسي يا ريتني ما سبت الست دي
ويمكن أرجع ليها تاني بعدما طلع.. أنا أصلاً شاب طائش في
الأول والآخري.. يعني سبت الهنا كله وفي محاولتي للانتقال من
الخطيئة للتوبة جت لي مصيبة أنا مش عارف أي حاجة في أي
حاجة..

أما محمد كمال سائق التاكسي أكبرهم سناً.. سنه خمسة
وتلاثين سنة متحوز واحدة منتقبة من باب الشعرية أبوه مات
وأمه ست كبيرة.. جه خد شقة إيجار جديد في جسر السويس
وكل دخله على الإيجار والعيشة وليه ولدين صغيرين.. لما دخل

السجن وقف التاكسي ما عدشي فيه أي دخل.. وفي آخر مرة قال لمراته بيعي التاكسي واصبري منه.. كل أهله وأهلها فقراء أعطوها مرة واثنين وخمسة فلوس علشان تعمل زيارة وبعدين هربوا منها وأهلها قالوا لها من النهاردة مالناش دعوة بيكي جوزك إرهابي ما تشبهناش.. كان كل زملاؤه عارفين حكايته دي لأنه كان حكاها قبل ما حد يحكي.. لكنه أضاف قائلاً :

- الجديد أقول سبب دخولي هنا.. أنا كنت بتاع قهوة وشيشة وما فيش مانع لو حاجة على الريحة في سيجارة أو في كرسي الجوزة.. لكن لما اتجوزت كانت المسئولية جامدة عليّة كان لازم أغير من كل شيء جددت التاكسي ونصحتني واحد صاحبي بأن أحسن شغل للتاكسي من بعد صلاة الفجر حتى الضهر في الرواق والطراوة وزبون بدري أحلى وقبل الدنيا ما تترحم.. قلت أحسن حاجة أمشي عدل أوي علشان العيال.. مراتي في يوم قالت لي.. إلتزم.. يعني إنه التزم.. قالت ربّي ذقنك وروح صلّي الفجر كل يوم وبعد الصلاة اشتغل زي ماقالك صاحبك.. خليها صفحة جديدة من الاستقامة.. عملت زي ما قالت لي.. وفي اليوم المشؤم لما الشيخ خالد قعد يزقّق.. الحاكم ظالم وكافر اللّبي ما يحكمش بشرع الله وقلنا كلنا وراه أيوه صح.. أيوه صح والله يومها كان رمضان لايد في العامود وعامل نفسه نام بس ما خدتش فيها ولا إديت.. لما دخلت هنا ربطت الأحداث وعرفت إحنا ليه جينا هنا.. إحنا

كنّا في رأيهم بؤرة كان لازم تصفيتها.. بس بالشكل ده..
كان ممكن يومين في قسم السلام أو يومين في لاطوغلى كان
كفاية أوي.. لكن المصيبة إن العملية سودة. تعرفوا أنا باحمد
ربنا إن مراتي لابسه النقاب علشان تداري وحاشتها زي ما فيه
نسوان كثير وحشة عاملة كده.. آهو منها تدين ومنها تداري
وحاشتها.. لأنها لو جميلة مع طول الوقت كانت هاتبقه مطمع
للناس خاصة لما يعرفوا إن جوزها معتقل..

ولما كان كل منهم يحكي حكايته كانوا جميعا ينصتون
ويشعرون بأن هناك غشاوة ثقيلة تقف فوق رأس كل منهم ..
وكان محمد رمضان الذي يبلغ من العمر تسعة عشرة عاما
فحكى قائلا :

- حصلت على دبلوم التجارة وتركت بيت أبي في بولاق
الدكرور لأعيش في بيت جدتي التي تسكن في حارة بجسر
السويس وكان هدف أهلي هو الحصول على فرصة عمل في
أي محل هناك وأن أفسح مكانا في بيتنا الصغير لغيري من
إخوتي.. وكان أبي صنايعي يعمل ميكانيكي في ورشة سيارات
وهو من قنا ويكبر أمي بأكثر من ربع قرن.. وهناك في جسر
السويس عملت بائعا للزبادي والألبان في محل للمواد الغذائية
وكانت تديره امرأة منتقبة تبلغ من العمر قرابة الخمسين عاما
حيث مات عنها زوجها منذ أكثر من عشر سنوات، كانت

سيدة قوية الجسد هادئة لصوتها طراوة لم أتعوّد على سماعه من قبل.. وكنت في آخر الليل أحمل معها بعض الأكياس والمتاع وأوصلها إلى بيتها الذي يقع في حارة تقع بين شارعين ناحية شارع أبو الفتوح.. وفي يوم بعد آخر كانت تحكي لي مشاكلها مع أولادها الصبيان الثلاثة الذين يتلقون تعليمهم في مراحل الدراسة المختلفة من ابتدائي وحتى الجامعة.. وكيف أن كل واحد منهم يطلب منها نقودا مغالى فيها كانت تقدر عليها بالعافية.. ولم يكن هناك واحد منهم يشاركها في أي عمل ولا يسأل عنها ولا يتودّد إليها وأخبرتني بأن والدهم كان هو الآخر قاسيا عليها.. عملت لدى هذه السيدة بجد وأخلصت في عملي معها.. وكنت ودوداً معها وحنوناً.. ويوما بعد يوم كانت تقترب مني بجسدها المثير وتأتي إلى مخزن المحل معي لنجهّز سويا أكياس البن التي ستباع في الصباح ونعد الزبادي وأشياء أخرى.. فإذا دخلت في مكان ضيق بين برميلين دخلت معي حتى جاء يوم وقالت لي.. لماذا لا تتزوج.. فأخبرتها بأنني صغير وأساعد أبي في تربية أخوتي السبعة وأساعدهم على التعليم.. وزادت من راتي وراحت تعطيني كل يوم كيسا من اللبن وزبادى لي ولجدي.. وفي يوم آخر زارنا في المحل أخوها الوحيد وهو رجل ملتحم وطلب منها أنه يفضل لها أن ألتحي حتى أكون ملتزما لأنه يجب أن تشغل أخته واحدا متدينا وملتزما.. أخبرتني بذلك فأطلقت لحيتي.. وكلّما طلبت منّي طلبا أجبته.. وقالت لي في يوم.. ما رأيك أن تأتي إلى المحل بعد صلاة الفجر مباشرة.

ليكون المحل جاهزا تماما للعمل في السادسة صباحاً..أجبتها..
 ومرّت أيام قالت لي.. إذا كنت في حاجة لأن استريح خلال
 النهار خاصة عند الظهر فعليّ أن أضعد إلى الصندرة لأنام بعض
 الوقت فوافقتها واشترت لي مرتبة ومخدة وغطاء وأعدته فراشا
 نظيفا وجميلا ووافقتها.. وراحت توظني كل يوم بعد أن آخذ
 قسطا من النوم.. مرّة تمسك برأسي في حنان.. ومرّة تمسك
 بكتفي وتهزني في دلال.. إصحي يا محمد.. اصحي يا حمادة..
 وتجرات شيئا فشيئا وفي يوم وضعت يدها فوق صرّتي
 وأمسكتني منها وراحت تقول.. إصحي يا أعز الناس.. إصحي
 يا روح قلبي.. إصحي يانن عيوني.. أمسكت بأعصابي وقمت
 وأنا في منتهى النشوة والإثارة وأمسكت بيدها في حنان بالغ
 ورحت أقبل كف يدها في حنان أشد.. فراحت تبكى..
 ووضعت رأسها فوق جسدي فوجدتني مثاراً وأمسكت به
 وراحت تعصره بأصابعها كأنها تدر ضرع بقرة.. فقلت لها هذا
 كثير عليّ يا سيدتي.. فقالت وكثير عليّ.. إنك معي منذ عام..
 إرتحت إليك وإلى إخلاصك ولا أستطيع أن أصير.. ولكن لماذا
 لا تتزوجني.. تزوجني يا محمد حتى لا نعصى الله.. إنني لو
 طاوعت رغبتى الجاحمة نحوك لأعطيتك بأي شكل.. ولكن إذا
 كان في امكاننا الحلال.. لماذا لا تتزوجني.. فقلت لها وهل
 يرضى أولادك.. فأخبرتني بالنفي.. إنهم أولادا أشداء
 وسيسخرون مني.. فقلت لها وكيف أتزوجك وهم لا
 يوافقون.. وخلعت ملابسها بعصية وهي ترتعش ونزعت عني

ملا بيسي وبكت بجرقة.. وطفقت.. كمل.. كمل.. كمل.. يكملك
بعقلك..

.. وضحك محمود بصوت عال وتبعه إيهاب ثم قال:

- كمل.. كمل.. يا بختك..

- علشان كده رحى في داهية..

محمود: هي فين الست ذي علشان أروح ليها لما أطلع..

إيهاب: وأنا كمان خدني معاك يا محمود..

محمود: بصراحة أنا نسيت السجن والظلم شوية من
حكايته وحكاية ياسر..

محمد رمضان: طيب خلاص اكمل..

- كنت ألقاها كل يوم مرة ومرتان.. ولم تتكلم معي عن
الزواج بعد ذلك.. كانت جائعة وكنت أنا أيضاً.. وشعرت مع
الأيام بأنني في كابوس لا ينتهي.. وفي كل صباح أذهب لصلاة
الفجر في مسجد الشيخ خالد في محاولات لأزيح عن نفسي ثم
أذهب لأفتح المحل.. ولو كنت مستور الحال لما عملت عند هذه
السيدة، وكنت أشعر دائماً بأن فقري وحاجتي للمال لمساعدة
أهلي هي السبب الرئيسي لما وصلت إليه لأنني كنت أستغرق
معها وأحاول دائماً إسعادها لأحافظ على عملي معها.. ولما
كنت أذهب إلى المسجد أشعر بأنني ضعيف وأنني على خطأ
كبير.. كنت أريد أن انفجر وكان حماس الشيخ خالد شديداً
وكنت أندمج معه في حماسة ومن أجل ذلك زعقت بأعلى

صوتي.. نعم الحاكم ظالم.. نعم الحاكم كافر لأنه لو حكم
بشرع الله لانتشر العدل وتوفرت الأعمال الشريفة لكل الناس..
نعم إنني في هذا اليوم بالذات رأيت رمضان وهو نائم خلفنا..
.. وهز إيهاب رأسه في أسف وقال :

- كل واحد فيكم ليه حكاية يستأكل فيها اللي جري
له.. لكن أنا ومحمود ما عملناش حاجة .

محمد رمضان: كل اللي عملته بعيد عن همي.. بعيد عن
أي جماعات.. أنا همي تهمة تانية خالص..

محمد كمال : علشان كلنا رحنا الجامع وأيدنا الشيخ خالد
في كلامه.. وكل واحد فينا بيقل نفسه وخلص.. وكل واحد
جه لغرض في نفسه مش من أجل الله.. وفي كل الأحوال ما
فيش واحد فينا وراه أي حاجة.. ما فيش حد فينسا عنده أي
فكر ولا أي تطرف ولا أي إتجاه.. كلنا ناس بتوع دنيا ومش
بتوع دين ولا بتوع أي جماعات.. آهي هوجة والسلام وعملوا
شغل علينا وخلص..

محمود الخطيب : أنا ما عملتش أي حاجة أنا زي محمود
وإيهاب.. بيقة الموضوع كله شغل.. رمضان عمل شغل علينا
بتوجيهات من ضابط السلام إن ما يقاش فيه أي تجمعات في
الجوامع..

لم يكن هناك أحد من هؤلاء المعتقلين أن يفعل شيئاً من أجل إنقاذ نفسه، ولكن كان في مقدور أي منهم أن يحكي للآخر حكايات من حياته، وبدأوا بعد ذلك يحكون حكايات عن بلادهم وأهلهم وجيرانهم وكان ذلك أقصى ما يستطيعون فعله.. وفي مساء أحد الأيام قال ياسر :

- أين الزعيم.. وسكت.. وكرّر بعد حينه.. أين الزعيم..

فقال بعضهم :

- أي زعيم

- في السلام وفي لاطوغلي أثناء التحقيقات سألونا جميعاً.. ماذا كان يقول لكم أيمن.. ماذا كان يقول لكم أيمن.. ألم ينصّبوا عليها زعيماً.. وكان أيمن هذا كان يقودنا بشكل منتظم إلى شيء ما.. وسكت ثانية..

وراح كل منهم يوشوش الآخر.. من هو أيمن.. ويبدو أن أحداً لا يعرفه.. وسكتوا فقال محمود الخطيب بعد أن لاحظ أن أحداً لا يعرفه :

- أيمن هذا أعرفه شكلاً.. ولكن والله لم أكلّمه مرّة واحدة في حياتي ..

- هو شاب يقترب من الثلاثين عاماً.. طوله متر وله وجه ضخم ووشه كله منغولي.. تحس كده لما تشوفه إنه مدرّوش أو

به شيئا من الهبل والعبط.. وهو ابن رجل صعيدي يلبس جلاية
ويملك محلا لمرجعات الجرايد والمجلات ويعمل في محله قرابة ستة
أفراد أيمن واحد منهم.. وكانوا اعتقلوه مرة قبل ذلك.. وكل
ما يقوم به في حياته أنه مطلق اللحية ودائم على الصلاة في
المسجد كل وقت لأن المسجد أمام محل أبوه.. وسأكت ولا
يكلم أحدا وعاش مع نفسه.. هو تقريبا عاجبهم فجابوه
وعملوه زعيم لنا..

.. وقال كل منهم واحدا بعد الآخر.. بعضهم يعرف شكله
وبعضهم لم يره أبدا.. وأجمعوا جميعا أنه لم يتكلم مع أي منهم
مرة واحدة.. وكذلك هم لم يتحدثوا معه قط..

.. ولكن يبدو أن نظام الشغل كي يكون محبوكا وصحيحا
أن يكون لكل جماعة زعيم يقودهم، وليس مهما أنهم يعرفونه
أو هو يعرفهم. هم أقوى الناس وأشطرهم في تليس الناس تم
وبالتعذيب يعترف أجدع واحد في أي جماعة بما يريدونه أن
يعترف.. الموضوع في الأول والآخر سياسة لازم من تطبيقها
ولازم يعملوا شغل علشان يقوا جديرين بشغلهم وأكفاء.. وفي
الآخر مش مهم الناس.. يعني إيه ناس.. إضرب بالجزمة زي ما
انت عايز.. ما فيش حاجة إسمها ناس..

بنفس إحساسه المتزايد كل يوم في أحزانه على ولده كان
 بنفس المقدار من السعادة يمر عليه في علاقته مع ماريانا، إنها
 تمنحه قوة في بأسه وحنانا تجاه كل ملمح في تلك الحياة
 حواليه.. إنه الحب كله، المملوء بالود والحنان والدفء، وكانت
 السيدة زكية شديدة التأثير المؤلم بعد رؤيتها محمود الصغير في
 معتقله، وكثيرا ما كانت تتكلم مع نفسها :

- من يتحمل رؤية طفل مثله وقد خطفه الأقرام الذين لا
 يستحون..

إلى من يسمعي أو يستطيع أن يدخل في أعماق أجزائي...
 لقد تم اعتقال مصر باعتقال أطفالها..

إن البلاد التي تعتقل الأبرياء تهدر من كرامتها مقدار ما
 أصاب البريء من ألم ..

إن عليكم أن تستحوا.. هل تفحصتم صور تكم وسفالتكم
 التي ألقيتم بها فوق كل بيت ودار.. إن كل الأفعال المهينة التي
 تقترفونها كل فجر وليل ونهار تستحي من الهواء والشمس
 والقمر وأنتم لا تستحون لأنكم أقرام..

قبل هذا الزمن الحقير الذي صنعتموه لم تكن نشعر أو نرى
 هذه البجاحة، إنه منذ قدمكم وأنتم تعربدون وتسرقون والآن

أنتم تغتقلون الأطفال من أحضان أمهاتهم.. أنتم وحل البهائم
والخنزير والكلاب المسعورة..

إنني أخاف على الناس في بلادنا أن ينتهوا أو يذهبوا وتكون
بلادنا أنتم فقط فعلى الله السلام..

إلى من أَدَعَوْ.. إلى من أذهب بقضيتي وقضية كل أطفال
وأبرياء مصر.. إنني تعبتُ لأنني لا أرى أحدا.. فهل ذهب
الرجال..

.. وبدأت السيدة الكبيرة منذ عودتها من زيارة محمود
تكتب مذكراتها الحزينة التي كانت ماريانا تأتيني بها كل يوم
لأقرأها..

.. وفي يوم كان الليل ينتصف ولما فتحت نافذة غرفة نومها
وجدت أن سماء القاهرة تمتليء بسحابات سوداء كأنها دخان
فرن يعمل بالسولار قد صعد فوق رأسها وكان البرد شديدا
فقفلت نافذتها، كانت تريد أن ترى السماء ومن فيها.. كانت
تريد أن تبحث في بطن السحب إن كانت صافية عن شيء في
السماء وكانت هذه عادتها عندما تشعر أن شيئا يضيّق بها..
لقد غاب عنها كل هذا الوقت في الليل.. تُرى هل معها؟ أدعته
يعاشرها فلبى.. إذا لماذا تأخر.. قلقها كان شديدا وحرصها ألا
ينام ليلة واحدة في بيتها أشد.. إنها لن تقربه بعد وليتني أمنعها
أن ترى وجهه وتمتع برؤية جسده الفارع.. إنني فقط امرأته

ولن تداعب شعر صدره غيري ولن تقبله امرأة دوني، لقد أذاب
جليد حياتي وحصلت عليه بصعوبة بالغة فكيف يكون لي أبدا
أحبسه داخل مملكتي فلا يرى شيئا في الدنيا إلا أنا.. هو الرجل
الذي جعل حياتها سعادة ووضعها في طريق الحب وأدخلها
طريق الأنوثة الحقيقي.. عزف جيتارها أحلى الألحان وهو الذي
عزف.. وتتفوه بأحلى الكلمات وهو الذي جعلها تنطق بها..
فكيف لها به.. وكيف لها أن تجعله ملكا وحيدا لها..

.. قرع الباب فجرت إليه وكادت تسقط من شدة لهفتها
عليه.. وفتحت الباب وألقت بنفسها فوق صدره وراحت
تبكي بحرقة فحملها بين يديه وهو يملأ وجهها الباكي بقبلاته
ويمسح دموعها بشفتيه.. ولاذت به وأمسكت بقميصه وقد
تعرت من تحته وكشفت عن ساقها وجسدها كله الذي عاد
بين يديه وقالت وقد هداً نحيبها قليلا:

- لن تذهب ثانية إليها.

فتخلص من يديها ومن فوق جسدها في رفق وامتد بطوليه
بجانبها وهو يحتضنها وما زال يرتب عليها وقال في هدوء :

- إنني لم أذهب إليها.. إنني أذهب الى أبنائي..

- ومن يدريني .. ألم تغير كلامها في أنها لن تعطيك نفسها
مادام ولدها في المعتقل.. ألم تشوق إليك لحظة.. ألم يهدأ

حزنها بعد أن إطمأنت قليلا على ما ألم بها.. الست زوجها إلى الآن.. لماذا لا تطلقها.. طلقها إن كنت تحبني حقا..

- هدئي من روعك.. ماذا أصابك إنك لم تتفوهي بذلك من قبل.. لماذا الليلة..

- لو كنت تحبني لطلقتها.. ولكن يبدو أنني لا أكفيك..

- أنت بكل النساء.. لقد كفت حياتي بكل شيء.. إن حياتي غنية بك.. ولكن ألا ترين أنني لو طلقها الآن سأزيد من أحزائها.. وتصوري أن ولدي لو علم ربما يموت في سجنه..

- إذا هات أبنائك هنا في بيتي..

- أي أبناء يرتاحون ويسعدون وهم مع أمهاتهم..

- سوف أكون لهم كل شيء..

- هذا كلام نظري.. ولو كان في البيت شقة جاهزة لكان

ذلك أقرب.. ولكن كيف سيعيش الأبناء معنا في بيت واحد..

أنت الآن حرة طليقة في بيتك.. فأنت تتحركين في بيتك مع أمك وأنا وأنت بقميص أو عارية أو بالشورت.. لا إن ذلك لا ينفع..

- أجهز لهم الطابق الأرضي..

- حتى لو جهزت لهم قصيرا.. إنهما لن يتركا أمهما..

- إذا لا بد من حل آخر.. وسكنت..

- فقال :

- ما هو.. إذهب كل أسبوع وليس في أي وقت يحلو لك.. وإذا ذهبت فلك ساعتين فقط بعدها إذا تأخرت سأقتل نفسي..

- يا حبيبي ليس بهذا يكون الحب.. إهدئي واطمئني فأنا لك.. وسوف أفعل كل ما تريدن بعد خروج ولدي من معتقله..

- المشكلة أنه حتى يخرج.. إنه لو قتل قتيلا سنعرف متى سيخرج.. ولكن المصيبة أنه لا أحد يعرف متى سيخرج هذا الطفل..

- إن ولدي ومن على شاكلته ارتكب خيانة كبرى حتى أنا لا أعرف ما هي هذه الخيانة وما حجمها.. كل ما أعرفه.. أن ابني كان سيعمل إذا تركوه.. إن طفلي كان يحاول الانتماء إلى جماعات إسلامية.. لكنه لم يفلح.. إنه لم يفعل أي شيء.. لكنه أصبح عبءة لكل أطفال الحي.. فلا يذهب أحد إلى جامع بشكل دائم وثانيا أن لا يلتف الأطفال حول شيخ.. وألا يواقفوه على شيء.. ألم يكن من الأجدى أن يقبضوا على هذا الشيخ.. إن هذا الشيخ ما زال حرا طليقا.. إنهم يريدونه كذلك حتى يجمع حوله أطفال آخرون.. هذا ما أظنه.. أو هذا الحاصل فعلا..

- أه لا تقلب عليّ الأحزان العامة التي تعيشها البلد.. لا تخزني على ولدك أكثر مما أحزن ولكن في النهاية أنت هربت من كل اقتراحاتي..

- هل تثق فيّ ؟

- إنني لا أراك لما تذهب إلى هناك..

- يا سيدتي الغالية.. إن هذه الأم عادت كتلة من الأحزان.. إنها لا تستطيع الآن أن تعمل أي شيء لأبنائها.. إن أمها دائمة العيش معها لتقضي حاجات البيت وحاجياتها وحاجات الأبناء.. إن هذه الزوجة لم تعد قادرة على غسل ملابسها.. إن ابنتها تدخل معها الحمام لتساعدتها على الاستحمام.. ماذا تريد بعد.. لقد أصبحت قعيدة الفراش ولا تقدر على شيء فكيف لي أن ألقاها.. إطمئني..

.. غالبها النوم بعد ذلك.. فأخذها في أحضانها وناما حتى صباح اليوم التالي..

بدأ المطر يهطل بغزارة في هذا الصباح وأغرقت الميناه شوارع حي حدائق الزيتون.. الزيتون التي شيد فوق أرضها الكنائس القديمة والتي مازالت تهتف بأزمة كثيرة مضت عليها.. والبيوت المتفرقة التي كانت قصور أزمنا كانت.. منها الكثير المفضل والذي إعتراه ترابا كأن أصحابها تركوها وهاجروا إلى

بلاد أخرى.. وهذه المساجد التي ارتفعت شاهقة في هذا الحي وانتشرت حولها أسواق صغيرة تباع الكتب الدينية والمسابح والعباءات النسائية والطرح.. أدخنة البخور تعبق في كل مكان خاصة في الليل والمقاهي تأخذ أماكن متفرقة في الشوارع والميادين الكبيرة والحارات الضيقة.. كل شيء تجده في هذا الحي حتى الأسواق العامة ومحلات الذهب والملابس.. حي عامر بالناس من كل صنف وملة ودين والجميع قد انصهروا في بوتقة فيها تختلط كل الأجناس والأشباه والمستغرات والقلم والحديث والعتيق وتفوح من الوعاء بل وفيه كل الأوعية عراقية وتاريخ شعب مازال باقيا وقويا ومنيعا رغم مراحل حكم العسكر المترددة في الظلم وضرب العدالة والحريّة وانتشار الفساد الذي نخر عظام الأمة.. وما زال الناس لا تعرف ما سر بقاء تماسك هذا الحي وأصالته مثل أحياء أخرى كثيرة في تلك القاهرة التي يوجعها أهلها حاكميها ومحكوميها وما زالت تنبض به الحياة.. فهل هو النفس الأخير أم أن هذه المدينة تتجدد من تلقاء نفسها أو من تلقائية أهلها..

.. لا أحد يعرف سر البقاء كما لا يعرف أحد سر من يجيا وسر من يموت وخبايا الأمراض التي إنتشرت بين الأطفال والشباب والصبايا قبل الرجال الكبار والنساء والشيوخ.. لكن الجميع هم سر البقاء لو كان موجعا أو مؤلما قبلوه ولو إنزاح

عنهم ودعوه لكنه سرعان ما يعود فلن يصبر ولن يقوى على الألم والوجع والآه غير هؤلاء القوم الذين صبروا على الصبر وزرعوه.. لكن إلى متى يزرعون.. لما لا يزرعون نباتا صالحا.. لماذا عن القمح حرقوه وعن الذرة قطعوه وعن القطن نسوه.. لماذا وهم أهل الزرع والنبت والضرع.. لماذا ومياه النيل تشق الأراضي كلها وحتى البيوت..

.. عن كل هذا تحدثت السيدة زكية أم ماريانا وصبرى وماريانا التي أصرت أن تدخل في أحضان صبرى تحت الغطاء وأمها التي جلبت كل طعام الفطور وحدها ووضعت في متناول أيديهم.. وجلست السيدة الكبيرة فوق شلثة على الأرض وهي تسخن الخبز فوق قصعة نار من الخشب أشعلته بعيدا في مطبخ البيت القديم الذي يقع في طرف الطابق.. هذه السيدة تذكرت أيام طفولتها عندما يكون الجو باردا.. كيف كان أبوها وأمها يجلسون جميعا حول النار في غرفة النوم وفي متناول أيديهم جميعا الخبز الساخن والجبن والزبدة واللين.. كيف كانوا جميعا يتناولون الطعام ويشربون الشاي ويتدفأون ويتكلمون ويحكون ويسعدون حتى الضحي العال.. أرادت السيدة أن تكرر هذا الجو الجميل من ذكريات الصبا.. حكمت لهم عن كل شيء قديم وعن الأفران والحطب والدقيق الذي يملأ كل البيت عن غرفة المؤن التي كانت تكتظ بزلع الجبن القديم وأنواع المحلل وأدسات الزبدة والقشطة وأطباق الخوص التي تكتظ بكل أنواع الخبز من بتاو وعيش سن وعيش أبيض وكعك وبسكوت وبنين

وغريبة.. كل شيء من الطعام في كل دار حتى أفقرت البيوت وأقلها شأنًا كان فيها ما يكفيها.. فكيف الآن ما فيها ما يكفيها.. كيف للبيوت وقد عادت خربة أو مهجورة أو مسروقة.. كيف للناس أن يعيشوا كما كانوا يعيشون.. كيف للناس أن تعيش واللصوص يسرقون ويبيعون ما كنا نملكه علنًا ولا نستطيع أن نقول لهم لماذا تفعلون هذا.. لأنه إذا تكلم أحد فالنار والرصاص والاعتقال مثنى له.. .. إلى من نذهب لنشتكي .. إلى من نذهب ليعيد ما كنا نملكه.. إلى من نذهب لترزع ما كنا نزرع ونصنع ما كنا نصنع إلى متى نذهب لنمسك باللصوص ونحاكم الخونة وبائعي الشعوب.. إلى من نذهب لنبيع الفقر والجوع والعري والمهانة.. لا أحد يشتري من أفقر نفسه أو عراها أو أهاها.. لأنه لاذ بالصمت وزرع الصبر وأدخل الخوف كل قلب.

لم يكن أحد يصدّق أن السيدة الكبيرة لها كل هذا الكلام وأن في دماغها ما تحتزنه كل أدمغة الناس في هذه البلاد.. انعدلت في جلستي فوق الفراش وعدلت ماريانا في نومها وقلت للسيدة الكبيرة في تدبّر :

- ما هو المطلوب منا يا سيدي.. أو بالأحرى ما هو المطلوب مني أن أفعل..

- الكثير.. مطلوب منك الكثير.. أنت والجميع تبحثون عن شيء واحد فقط.. المال والطعام والشراب والنساء.. الناس جميعًا تبحث عن البطن والفرج..

- أليست هذه الدنيا منذ بدء الخليقة ..
- نعم ولكن بالحق وبالعدل..
- أنا لا أري أي حق وأي عدل..
- أين ذهباً..
- إبحث في داخلك وأنت تجدهما..
- إنني لا أجد شيئاً مثل هذا.. إنني من الرعية والعدل والحق عند الحاكم..
- طبعاً ولن تجدهما لقد ضاعا.. لأن كل منا يبحث عن نفسه فقط..
- أعود وأقول كل الناس هذه عادتهما.. وأقول لك ثانية أنا من المحكومين..
- أقولها وتلك كلمتي ولا تضيق مني ذرعا.. ولا تغضب ولا تنفعل..
- لا بالله لن يغضبني شيء منك..
- لو كنت شجاعاً لكان على جثتك أن يأخذوا ابنك منك عنوة بدون وجه حق ..
- إنك وغيرك خفتهم وأحنتهم رؤوسكم لكي يفعل من يحمل بندقيته كل شيء وأي شيء.. لقد تساوى المثقف بالجاهل والمحاسب والمدير بالميكانيكي والبائع المتجول.. ولذلك فإن

عسكري واحد وبنديقية واحدة في حركة واحدة أخافت الجميع.. إن الجميع تساوي في مقدار الخوف والجبن وذهبت الشجاعة والرجولة وضاع الحق.. لأن الجميع تساوى في صفة الخوف ومقداره لقد تعلمنا الخوف في وقت واحد وتنازلنا عن الحق حتى قبل أن نخاف.. ضاعت قوة الحق وتساوى الرجال بالنساء.. إن كل ما يفعله الرجل الآن أنه يبكي مثل المرأة الضعيفة.. وضاع الحق عندما استنجدت المرأة بالرجل ليحميها فوجدته يبكي.. إذا كان شعب بأكمله يبكي فكيف يعطي من يحكم أي عدل لأناس تنازلوا جميعا عن حقوقهم.. يا صبرى إن هذا الكلام للجميع لقد وصلنا جميعا إلى ذلك المنحدر المخيف من درك الحياة الاجتماعية المهينة.. والسؤال الآن .. هل سنظل هكذا نخاف.. هل سنظل طيلة حياتنا نبكي.. ما الفرق بين فئات الناس وما الفرق بين المرأة والرجل إذا كان الجميع يخاف ويبكي..

- وكيف لك يا سيدتي بهذه الفلسفة.. إنني لن أغضب منك لأنك تقولين كلمة حق للجميع.. ولكن أنا لا أعرف كيف أبدأ لأعيد الحق إلى نفسي. وما الذي أفعله حتى لا أظل أبكي..

- مشوار طويل جدا ولا بد أن تضحّي بنفسك.. إن البكائين في بلادنا كل الناس.. حتى الأطفال الذين يولدون سيكون بحرقه لأهم يريدون أن يعودوا إلى بطون أمهاتهم خير لهم من هذا المجتمع الحزين الضعيف.. إن دموع الناس في بلادنا

تكفي لأن تقيم نهما من الدموع.. ليتهم يقيمونه في الصحراء حتى ترتوي وتزخر بسنابل القمح والذرة على الأقل نقضي على أزمة الخبز.. إذا قضينا على أزمة الرغيف وفرنا لكل فقير الحياة الكريمة.. أجمل شيء في بلادنا أن غالبية هذا الشعب إذا أكل رغيفا وطبقا من الفول شبع.. وإذا أكل رغيفا بحتة جينة إمتلأ.. إننا بتوفير الدقيق حققنا الحياة الكريمة لشعب بسيط ..

- .. يا صبري اسأل أبوك عن فكري على الأقل تستفيد من الدموع..

- من أين آتي بأبي. إنك يا سيدتي جد ساخرة ولكنك تقدمين فكرة جديدة.. ولكن مهما بكينا فإن دموعنا فقط تغسل وجوهنا ولكنها لا تكفي لإقامة نهر.. إن نهر النيل يكفي..

- يكفي ولكن من يزرع.. إننا نعلن عن فشلنا دون حياء بأن نقول إن لدينا مخزونا من القمح يكفي ستة شهور.. ولماذا تستورد القمح؟ ولماذا لا ترعه لنا ليكفيها وما يفيض نصدره لدولة أخرى فاشلة في الزراعة.. كيف يحدث لنا هذا ونحن جميعا فلاجون لم نتعلم مهنة أكثر من مهنة الزراعة..

- إنني أعتذر لك يا سيدتي عن كل هذا الفشل..

- يكفيها يا بني عسكري وبنديية.. يكفيها أن نحكي كل يوم عن كتيبة مدججة بالسلاح تقتحم البيوت لتعتقل الأطفال من أحضان أمهاتهم.. يكفيها أن عسكري ببنديية كفيلا أن

يدخل شعبا بأكملة الجحور.. يكفيننا هذا الجهل وهذا القهر إننا سنظل طيلة حياتنا نبكي ولن تغنينا دموعنا ولن تقيم هُرا..

- إنني أشعر أننا جميعا ارتكبنا أخطاءً كثيرة في حق بلادنا..

- كثيرة جدا..

.. ومن الأشياء التي كانت تسعد صبرى في عمله أنه لم يكن على صلة مباشرة بصاحب العمل، لقد كان الخواجة يجد أنه من السهل عليه أن يتصل بماريانا أولا ويطلب منها ما يريد من المالية.. كان يشخط وينظر ويتجبر على العاملين معه ويعامل الجميع معاملة قاسية فيصيب كل من يقترب منه بتوتر عصبي.. وكان الجميع يعمل على تجنبه أيضا.. إلا أن الوحيد الذي يعمل على تجنبه هو المحاسب صبرى المدير المالي.. وكذلك كان يفعل صبرى ويعطي كافة التقارير المالية لماريانا التي بدورها ترسلها إليه وتجب له على كافة الاستفسارات الأخرى والتي كان يحيطها بها صبرى أيضا، وكانت ماريانا تحافظ على هذا الإطار لأنها في داخلها كانت تتمني دائما ألا يحدث أي سوء تفاهم بينهما، ولولا أن صبرى كان يحيطه علما بتقارير وبيانات ومعلومات مالية خطيرة عن شركته لم يكن يعرفها من قبل لما حافظ الخواجة أبدا على أي إطار.. فهو

يدخل في الناس جميعا بما لا يليق بأقل قواعد وأصول التعامل الإنساني، وهذا هو ما درج عليه معظم أصحاب الأموال في البلاد وتدرجت هذه المعاملة اللاإنسانية بين أصحاب الأعمال والعاملين حتى وصلت إلى درجة قطيعة بعد عام ١٩٩٠ وما بعدها، وكانت للتقارير المالية الخطيرة وبالأرقام أثر بالغ في اتخاذ القرارات الإدارية الجذرية في الإدارات والعاملين فيها حيث بدأت الإدارة في معالجة أوجه البذخ والترشيد المالي ومراجعة المشتريات ومحاسبة العاملين في كل الأقسام بشكل يؤدي في النهاية إلى مقاومة السرقات المستمرة ودفع الإكراهيات المبالغ فيها وذلك أدى في النهاية إلى تدمير شديد لكنه صامت لسدى كل ما كان ينتفع بالكثير قبل أن يكون هناك نظام مالي شديد.. وبدأ كثير من الناس يتربصون بالمحاسب صبري ويكيون له كيدا ولكن الجميع كان يتوقف عندما الذي يحسونه عليه حتى يقلقلوه أو يهزوه من مكانه، وكان يناصر صبري كل من المظلومين في الشركة من عمال وموظفين وهؤلاء جميعا شعروا بأن هناك خطأ أخضرا يفيد الجميع وقاوم كل الذين يعملون في الظلام ويستفيدون من علاقاتهم المشبوهة مع الموردين والعملاء والتي من خلالها يحصلون على آلاف الجنيهات شهريا وهي تمثل مرتبات فوق مرتب شهري في استمارة الرواتب وبلغ ما يحصل عليه مسئول أحد الأقسام وقوة

سيطرته وعلاقاته مع الموردين إلى أنه كان يبلغ دخله في الشهر من هذه العلاقات ما يزيد على خمسة عشر ألف جنيهًا.. وهذا واحد من عشر مسئولين يسيطرون على كل أمور الشركة .. وفي السوق كما يحدث للجميع أسرار.. أسرار لكل مهنة ولكل تجارة ولكل صنف من التجارة.. ولقد كان هذا الخواجة يكسب يوميا أموالا طائلة سائلة وآجلة حيث كانت مبيعاته اليومية في كافة محلاته وسناتره ومصانعه تزيد على ثلاثة مليون جنيه بمعدل ربح يومي يزيد على مائة وخمسين ألف جنيه، وكان لصاحب العمل هذا أسرار كثيرة جدا.. فهو متهرب من الضرائب لأن لديه محاسب قانوني حوت ولم يكن له أية دفاتر منتظمة.. فإذا حضر إليه مأمور ضرائب أو أي جهة تفتيشية كانت إدارية أو ضريبية أو الخ.. كان لديه موظف مسلح يقاتل هذا الذي جاء إلى الشركة لهذا الغرض التفتيش أو الإجرائي ويعميه بظرف محترم وكل واحد حسب وزنه.. وكانوا جميعا يتم مقابلتهم بشكل جميل ولائق ومحترم وبصفة دورية حسب أهمية كل واحد منهم.. ولم تكن هذه الإكramيات لهؤلاء المهمين تذهب هدرًا.. كان هؤلاء المسئولين جميعا يقدمون التقارير والمعلومات بأن كل شيء على مايرام وأن صاحب العمل صادق في كل تقاريره.. كل هذا كان يحصل عليه من كافة الجهات التفتيشية في مقابل إكramيات

وتفتيح مخ لا يزيد في الشهر عن عشرين ألف جنيه.. أي ربع مليون جنيه في مقابل حصوله على صافي ربح سنوي لا يقل عن ثلاثين مليون جنيه ليس للدولة والمجتمع حق فيها.. وكان يغطي نفسه من جميع الجهات.. فهو على علاقات طيبة جدا بكثير من ضباط الشرطة الذين يحمونه ويغطونه في حالة وجود أي مشكلة معه ومع كل المجتمع.. فهو الرجل الجميل صاحب الأظرف والإكراميات الأكثر جمالا في الأعياد والمواسم وأوقات دخول المدارس ورأس السنة ناهيك عن أحلى عزومات الكباب والسّمك والجميري في أشهر مطاعم المدينة مع هذه الرؤوس والشخصيات.. وهو في النهاية رجل بار وخير وهو صاحب البر كلة والفضل كلة وهو رجل ليس له مثيل وهو على الراس دائما من الجميع وكلة بالفلوس والعلاقات الجميلة، وليس جديدا أن كل أصحاب الأعمال في بلادي على هذه الشاكلة وكل واحد له درجة.. ولكن هذا الذي قابلته.. بل هو واحد من الذين عملت معهم كمدير مالي وكثيرين غيره لهم العجب العجاب.. تُحف ولصوص وعصبجية هؤلاء الذين أطلق عليهم رجال أعمال في بلادي.. إنها رأسمالية العيال المارقة أو رأسمالية السفلة والانتهازيين الذين يتاجرون في أي شيء ويتعاملون مع المجتمع كله بالتعالى والجبروت ومص الدماء وتعالوا معي جميعا لتفرج ونرى في أوربا الرأسمالية الحقيقية

والمحترمة التي تراعي حقوق الجميع.. إن ما يجري في بلادنا هو
الفوضى هو الفساد الذي لا مثيل له في أي من بلاد العالم..
ولكن ما الذي فعله صاحب العمل هذا فيما بعد..

.. في يوم قررّ المحاسب القانوني الضليع أن يسيطر على هذا
صاحب العمل.. وصاحب هذه الضيعة .. المحاسب على
الكدواني كان يعمل مأمور ضرائب في مأموريات المدينة
المختلفة، ظل يعمل في الضرائب لمدة أربعة وعشرين عاما..
عرف فيها من الخبايا والأسرار ما لا يعرفه الكثيرين من
مأموري الضرائب أنفسهم.. استقال بعد هذه الخدمة الطويلة
وفتح مكتبا للعمل كمحاسب قانوني.. مكتبه في حي م. ج..
قام بتأثيثه أثاثا فخما وبدأ يعمل في عام ١٩٨٥.. طلب من
الخواجة في يوم أن يقابله لأمر هام.. كان لكل شيء ترتيب..
وعلى حسابه عزم الخواجة في مطعم صبحي للكباب في جسر
السويس وبعد الغداء الشهي ذهبا ليتناولوا مشروبا فخما أيضا
في جروبي بشارع الأهرام وبدأ على كل منهما الإنبساط
والانشكاح وبدأ على الكدواني حديثه الجاد قائلا :

- إنت عارف يا خواجة إنت غال أد إيه.. وأنا باخدمك

برقبتي..

- طبعا طبعا ربنا يخليك..

- إنت عندك مالية كبيرة أوي علشان إيه..
- التقارير والميزانية الحقيقية عايز أعرفها.. وبعدين أنا حاسس إن فيه ناس بتسرقني..
- صبرى دا مرتبه كام..
- خمسة
- ياه.. والمحاسبين في الإدارة والفروع ..
- خمستاشر في الإدارة وزيهم في الفروع ..
- يا نهار إسود.. وياخدو كام كلهم كده..
- كل المحاسبين بمديرهم في حدود ثلاثين ألف ..
- وكل ده علشان الميزانية والتقارير..
- عايزين نعمل زي الناس.. أنا بعرف كل حاجة عن شركتي في خمس ورقات كل يوم..
- معلش إنت ما حسبتهاش كويس..
- آدي أكثر من تلتميت ألف في السنة.. الناس اللي بيسرقوك جوّه مش ها ياخدو كده أبدا.. بالكثير يسرقوك في ميت ألف.. حتى لو سرقوك في ميتين في السنة.. مش مهم برضه.. لكن المهم والخطير.. وسكت ..
- إيه هوّ الخطير؟

- أسرارك.. صبرى ذا لو مشي من عندك في أي وقت.. أو
أي محاسب ماشي.. كل دول عارفين مصايك كلها
وأسرارك..

- يا نهار إسود آي صحيح..

- هوّ دا الخطير.. أنا عايز الخير ليك.. أنا خايف عليك..
عايزين نلحق الخطر بسرعة.. آدي كل كلامي.. وانت أغلى
عندي من كل حاجة.. وأنت عارف أنا بخاف عليك إديه..

- والعمل.. كلامك والله صحيح..

- الحل موجود وبسيط وغير مكلف..

- الحقني بيه.. قول..

- محاسب واحد من عندي على الخزنة الرئيسية بس..

- بكام..

- بتلاثة..

- والتقارير..

- تقارير إيه إنت ها توّدي نفسك في داهية علشان

التقارير.. إنت ليك فلوس..

- إزاي..

- كل الفروع والمحلات تجيب إيرادها الصبح تاني يوم..

- وبعدين ..

- المحاسب أبو تلاته ده.. قاعد على الخزنة الرئيسية..

هايقولك بالتليفون الإيراد من كل فرع إيه والإجمالي كام..

- وبعدين ..

- ها يقو للسي زيا ما بيقولك..

- وبعدين ..

- أنا أقول لك حط في البنك كام.. وودّي البيت كام..

- يعني أحط فلوس في البيت؟

- أيوه ضروري.. إنت عارف إن اللي ممكن يحصل في

البلد.. الفلوس في البيت آمن من البنك..

- خلاص إنت شايف كده أحسن..

- أحسن وأوفر لك.. خلّص يا خواجه بعد العيد على

طول..

- طيب وإنت عايز كام ..

- ما فيش مشكلة بيني وبينك..

- بس قول برضه..

- أتعايب خمسين بس.. ها تزيد عشرين في السنة وكل شهر

إبعث لي عشرة علشان المحاسبين اللي في مكتي ها يشتغلوا

شغلك طول السنة..

- يبقى كده أرخص كثير..

- وسرك ييقه في بير.. من غير كلمّة ووجع قلب ومحاسين
ومدير مالي .. ما حدّش بيعمل كده دلوقتي وكثير من الناس
خدّتها كده من الأخر..

- بس أنا خايف الفلوس ها تبقه كثيرة في البيت..

- إعمل خزنة تحت الأرض..

- يعني أخلصّ المواضيع وعلى مسؤوليتك..

- من بكرة خلّصّ وأنا رقبتي فداك ..

- طيب لما كل الناس دى تمشي ويشتكوني في مكتب
العمل..

- أنا عارف واحد في المكتب.. هاقوله يخلصّ معاهم إزاي..
ودي مسؤوليتي..

- طيب والسكرتيرة التنفيذية " ماريانا "

- هيّ بتاعتك ولا بتاعة صبرى ..

- دى بتاعتي ..

- خلاص خلّصّها زي ما هيّ وصلة بينك وبين المحاسين
بتوعك.. بس خلّصّها بعيد عن الحسابات..

- هيّ سكرتيرة وبس..

ومَرَّتْ أيام شهر رمضان ولَمَّا اقترَب عيد الفطر كانت
 محلات الخواجة تسهر حتى الفجر من كل ليلة.. لتحقيق حجم
 مبيعات كبير كالعادة في كل سنة.. ولَمَّا جاءت ليلة العيد تم
 توزيع المكافأة كعادة كل عيد، ولم يحصل أي محاسب في
 الإدارة أو الفروع على أي مكافأة على أساس أن المالية بكل
 أعضائها سوف تحصل على مكافأتها بعد العيد وأخبرت ماريانا
 صبرى بذلك رغم أنها كانت تتوجس في الأمر.. ولماذا المحاسبين
 بالذات؟ ولم يكن صبرى يستطيع قضاء صباح يوم العيد إلا في
 بيت أبنائه، وجلس وسطهم ولاطفهم وعيّد عليهم إلا أن
 زوجته لم تستطع أن تكتم حزنها الشديد على محمود فراحت
 تولول على ضناها.. يرضي مين ابني يعيّد في السجن وعلشان
 إيه وعمل إيه يا حسرتي عليكم من دون البلاد.. عملتوا رجالة
 على العيال.. أظفال البلاد أعداء.. خيبة ما بعدها خيبة.. بلد
 مالهش عدو بيقة مالهش هدف تبة بلد ضعيفة.. لكن كان
 لازم من عدو عملوا الأبطال والأبرياء عدو.. أد إيه الضعيف
 وأد إيه الوهن يا بلد الندامة.. تقول هذا وهي تضرب رأسها
 بكفي يديها بعد أن تضرب بهما ساقها وهي جالسة على
 سريرها وأمها تتبعها في الندب والتعديد والبكاء.. وكان
 لحزنها الشديد في صباح يوم العيد أثر بالغ على محمد الصغير
 وبسنت وراحا يكيان بشدة على شقيقهما محمود.. تذكرت
 عندما كنت صغيرا عندما رأيت أول دائرة ندب في قريتي..
 مات عبد الحسيب الهلالي وكان وحيد أمه الأرملة على أربعة

بنات.. إنتصبت دائرة الندب أمام بيتهم تقودها أمه وإخوته
البنات نصّبوا أنفسهم وسط الدائرة التي جمعت أكثر من عشرين
امرأة يتلفحن جميعا بالسواد وقد وضعن الطين فوق رؤوسهن
ووجوههن وهات يا صوات وندب.. وأمه المكلومة على ابنها
تقول.. يا هوّ يا مش هوّ.. وتردد النساء خلفها.. لأ مش هوّ..
تذكرت هذه المنذبة التي لم أنسها في حياتي حيث اتخذت من
شجرة سائراً لي بجوارهن..

وأنا جد منيهر ومندهش.. جد حزين ورحت أبكي بكاءً
شديداً ولما لمحني رجل من عائلتي يُدعي عبدالمحسن محروس
أخذني من يدي حتى أوصلني إلى بيت أبي وأبلغ أمي بما حدثت
فسكرت الباب عليّ بالضبة والمفتاح "قائلة" لسه بدري عليك
مالك ومال الأحزان..

.. لم تفارقني هذه المحزنة في حياتي فكلما وجدت نفس في
موقف شديد البأس رحّت أبكي كما بكيت هذا اليوم في
طفولتي.. بكيت بكاءً شديداً على ابني وسط هذه العائلة
الصغيرة التي يقول لسان حالها.. العيد للعيال.. العيد للصغار..
أين يعيد محمود.. ولماذا..

.. قبل الظهر بقليل هاتفّت ماريانا صبرى معاتبه.. بكفاية
أوي كده عندك.. تعال عيّد معانا.. رِقّ صبرى لعتابها وقال..
يا روح قلبي حاضر.. حقك عندي،.. فقالت له في عشم :
- أرجوك تعال حالا .. أنا عمايزاك جنبي في يوم زي ده..

أكل من الكعك والبسكوت مع أبنائه ثم انصرف ..

لما دخل عليها ارتمت على صدره كعادتها فحملها إلى الفراش.. ولم يكن يكتسح الضباب الذي شعر به في بيته إلا أحضانها الدفيئة ولم يخرق جسده جسدها إلا بتلك اللففة الجائعة التي قابلته بها ولم يعد لبكائه خلف الشجرة أثرا ونسى في فراشها الأحزان..

- وبعد مغرب يوم العيد دق جرس الهاتف طويلا فقامت إليه ماريانا :

- آلو ..

- كل سنة وانت طيبة أنا نبيل فتحي..

- أهلا وسهلا ..

- الساعي أحمد بيومي سوف يسأتي الآن لأرسل معه مكافأة العيد..

- علمت أن المحاسبين لم تصرف لهم أي مكافأة.

- ولماذا.. أليس هذا حق لكل العاملين.. سوف تصرفهم..

- علمي أنه سيتم صرف مكافأتهم بعد العيد..

- أكيد في الأمر شيء.. أليس هؤلاء ناس لهم حق أن يعيدوا مثل باقي خلق الله..

- على العموم ليس هذا من شأني.. أنا واحد من ألف

عامل وموظف في الشركة..

- لا ..إنتي مش أي واحد في الشركة.. هوّ فيه واحد في أي شركة في مصر بيعمل مدير مشتريات يحصل على مكافأة عند خمسون ألف جنيه.. يطلقون عليك أو يقولون أنك الساسح ترضع يدك في تراب الخواجه يصير ذهبًا ..

- ولماذا هذا الحقد ياأستاذة.. إنتي أعمل طيلة الليل والنهار وأسهر على تسيير مصلحة الشركة.. وهل هناك مدير مشتريات يعقد الصفقات التي أعقدها.. إن هذه المكافأة التي تحسدني عليها هي مجرد رمز للتقدير ثم إنتي أعمل مع الخواجة منذ خمسة عشر عاما ولم أتركه يوما واحدا..

- دعك من هذا الموضوع أين مكافأة الأستاذ صبرى..

- على حد علمي أنه سيأخذها بعد العيد..

- رجل كبير مثل هذا تعاملونه هذه المعاملة ..

- إسألني الخواجة.. من أي فريق أنت.. أنت مع الإدارة أم مع هذا الرجل..

- أنا مع الحق.. ولا تتجاوز معي.. إنه من خيرة المحاسبين في بلادك وهذه شهادة تاريخه العملي في أكثر من عشر شركات قبل أن يعمل معنا..

- هذا أيضا ليس من اختصاصي يا أستاذة ..

- اقسم بالله إنتي أشعر بأن هناك شيئا يدبّر في الخفاء.. ماذا في الأمر.. ألا يمكن أن تكون مخلصا مرة وتخبرني..

- في منتهى البساطة أنا مخلص لعملتي فقط وللخوافة.. هكذا تعلمت .. ولماذا أكون مخلصا معك في أمر مثل هذا.. من الذي يعطيني مرتبي ومكافأة العيد.. قولي من.. يا أستاذة ماريانا أنا لا أتجاوز حدود عملي..

- إذا لا حق ولا أصول ..

- لا أعرف ما تقصدين بالحق والأصول.. أليس لكل صاحب مال أصوله.. ولماذا تفرضي عليّ أن أعرف أو أتبع أصولك أنت.. لا تنسى أنك موظفة مثلي في الشركة..

- لك الحق في أن ترقع لسيدك ..

- أركع لمن أريد..

- وهل يركع الإنسان لإنسان مثله..

- أنا لا أعرف أي معنى للركوع في حياتي إلا عندما عملت في هذه الشركة وكنت من قبلها لا أجد قوت يومي وأنا من أسرة فقيرة.. جاعني المال في هذه الشركة وقضيت حاجتي وحاجات أسرتي وشبعت بالطعام ولأول مرة في حياتي نعيش.. فلماذا لا أركع؟ وأين كان ركوعك أو ركوع غيرك عندما كان فقيرا..

- أنت للأسف عبد ذليل ولا تعرف من هو صاحب الفضل على الناس جميعا..

- اعرفي إنت .. أنا يكفيني هذه المعاني التي وصلت إليها ولا أريد أن أعرف شيئا مما تدعينه ..

- هذا حال العبيد جميعا ..

- لو كنت أملك منع إرسال مكافأتك لفعلت .. ولكنها أوامر الخواجة لا أستطيع مخالفتها ..

- افعل إذا كنت تستطيع .. أحمد الله أنكم تتحكمون في شركتكم فقط، وأن ألف من البشر يعملون تحت إدارتكم وليست كل نفوس البلاد تعمل معكم ..

- على فكرة سوف أبلغ الخواجة بمحديثك معي ..

- ليتك تبلغه .. إذهب أنت وهو إلى الجحيم .. أبلغه أنني أقول هذا يا عبد .. وقفلت سماعة الهاتف في وجهه ..

.. سمع صبرى كل كلمة قالتها وكان يهز رأسه سعيدا بكل حوارها مع خرتيت تلك الشركة .. وراح يفكر معها .. ترى ما الذي تجبئه الأحداث بعد العيد ..

.. ولما دخل المساء جاءهما الساعي أحمد بيومي يحمل عيدية ماريانا .. دق الباب وفتح له صبرى فرجع خطوتين للخلف وتلغثم قائلا :

- سلام عليكم يا بيه .. كل سنة وأنت طيب ..

- أدخل ..

- يا بيه الشنطة دي بتاعت الست ماريانا مش هيّ هنا..
هو انت نقلت هنا يا بيه..

- يا أحمد هيّ كلمة واحدة إنت ما شفتنيش هنا خالص..

- طبعا يا بيه حاضر يا بيه أنا خدامك..

خارت قوى أحمد وارتبك فقال له صبري ..

- أقعد ..

تلفست حواليه وقال :

- أقعد فين يا بيه..

- أقعد على أي كرسي..

- لأ يا بيه الكرسي يتوسخ.. أقعد على الأرض..

- أقعد ..

وطلعت ماريانا إليه ولما وجدته يفترش الأرض قالت :

- إقعد فوق قاعد تحت ليه ..

- دي راحتي يا ستي..

وقام وانحني وهو يقول كعادته دائما دي راحتي يا ستي.. الله
يكرمك.. الله يخليك..

- أقعد يا أحمد.. وقوم حط الشنطة على الترايزة..

- حاضر ..

ولاحقته ماريانا قبل أن يجلس :

- خدت عيدية كام ..

- متين جنينه ..

- ها تعمل بيهم إيه ..

- ها جيب هدوم للعيال

- كام عيّل ..

- أربعة ..

- إنت ساكن فين ..

- ف شبرا الخيمة .. في حُق كان بتاع أبويا ..

- يعني إيه حُق .

- قوضة وصالة وحمّام وكله راكب على بعضه ..

- طيب أنت نفسك في إيه تجيبه في العيد ..

- نفسى أجيّب سرير ..

- سرير للأولاد ..

- ما فيش سرير في البيت ..

- إيجوزت إزاي ..

- على الأرض ..

- وصيف شتا بتنام على الأرض ..

- ها أعمل إيه.. خدنا على كده..
- عندك تلاجة ..
- أمي عندها تلاجة.. لما ربنا نيرزقني بحة لحمة أروح
أحطها عندها..
- أبوك عايش ..
- لأ ..
- أمك أرملة ..
- لأ.. متحوزة راجل من العتبلي بتوع زمان..
- يعني إيه عتبلي ..
- له شنب طويل ولايس لبدة طويلة وكل اللسي لابسه
صيف شتا صديري ولا مواخذه لباس طويل وواقف على ناصية
الشارع ناصب تراييزة عرقسوس وسويا..
- كويس حاله متحسن..
- أوي عنده كل حاجة في بيته..
- عملت كحك لأولادك..
- أمي بتبعنا شوية..
- طيب يقضيك كام علشان العيد وأولادك وبيتك محتاج لإيه
علشان بيقة بيت..

- نفسي أجيب سرير وطبية خشب وثلاجة وبوتاجاز
بفرن..

- وإيه كمان..

- هوّ فيه حد في الزمان بيدي حاجة.. كل يوم صباحي
مراي بتجري ورايا بالشبشب علشان العيشة.. في يوم مراي
قالت لي لو كنت حلوة كنت شفت حالي..

- يعني إيه..

- ما هيّ نسوان الحارة كل يوم الصبح بعد ما جوازهم
يطلعو من البيت كل واحد بتنزّل تشوف سكتها ومن
الفجر ضرب الشباشب شغال علشان اللقمة..

- يا نهار إسود يا أحمد بيروحوا فين.. ومين يلم النسوان
دي..

- فيه كتير يا ستي.. بيتركوا الخلفاوي وأغا خان وطوسون
والخلوص.. اللي تطبخ واللي بتغسل واللي بتمرض.. لازم
تعمل أي حاجة في البيت.. ولو صاحب البيت أو عيل من عياله
عايز أي حاجة الست من دولت يتعمل كل حاجة.. المهم
عندما ترجع آخر النهار معاها عشرين جنيه أو ثلاثين كل
واحدة برزقها وتدخل شايلة الشنط لولادها.. بالله عليك
النسوان دي هاتروح فين والبيوت الخرابانة دي هاتاكل إزاي..
وهوّ فين الأعمال الشريفة للناس دي.. تبصي يا ستي تلاقني

الناس كلها سايبه على بعضها.. دا غير البيوت اللي
فتحت ..

- فتحت إزاي ..

- لمواخذة يا ستي.. دعارة.. وأرخص حاجة عندنا في شبرا
الخيمة..

- بكام ..

- بعشرة وأقصى حاجة عشرين.. تبصني تلاقيني الراجل
قاعد في الصالة.. أبوها.. أخوها.. جوزها.. يقبض.. ويخش
الواحد يخلص واللي بعده.. شغل علي..

- ودا كله من إيه يا أحمد.. رأيك إنت إيه..

- من الفقر..

- الناس دي كلها اللي في شبرا الخيمة أحفاد الناس الغلابة
في البلاد اللي جم بعد اتنين وخمسين يشتغلوا في المصانع
اللي عملها عبدالناصر.. عاشوا شوية كويس وبعد كده لما
المصانع خربت واتباعت الخلفة دي كلها ضاعت وهم أصلا
ضايعين من الأول وهم في بلادهم.. الحاجة والفقر وضرب
الشباشب خلّت الناس دي تعمل أي حاجة علشان تعيش..
هو فيه أكفر من الجوع.. الجوع يا ستي يخلص الواحد يعمل
أي حاجة علشان يعيش..

- وعلاج الناس دي إيه ..
- ولا أي علاج ينفع.. دا كان من الأول.. العمل الشريف من الأول..
- كويس إن إنت لسه ماسك نفسك..
- أنا مراقي وحشه أوي..
- ولو كانت حلوة شوية
- ما كنتش أقدر أعمل ليها حاجة وكنت هاسيها زي كل الناس.. النسوان يا ستي بقت قادرة وباتعة من الحاجة.. من الغلاء.. الناس عايزة تسد الجوع ومفيش غير كده عندهم..
- أبوك جه مصر سنة كام..
- أبويا جه في الرفاص..
- يعني إيه؟

- أبويا كان بيشتغل في البلد حمار.. عنده حمارة تعبانة بيأجرها تشيل سباخ عند الفلاحين وهو معاها.. كان كل يوم دخله خمستاشر قرش هو وحمارته.. وكان ساكن في أحقر حارة في البلد.. حارة حسين حنضل.. وكانت كلها ناس غلابة.. باع الدار والحمارة وجه وجاب أمي معاها في الرفاص.. وصل مصر بقرش صاغ وهو عبارة عن مركب كبيرة من دورين يوصلك مصر في يومين أو ثلاثة وده كانت وسيلة مواصلات رئيسية في فروع النهر من بحرى لقبلي..

- أبوك جه عمس إيه ..

- اشتغل عامل نسيج وشاف الشقة دي دفع فيها عشرة جنيه بإيجار اتنين جنيهه .. ولما كبرت اشتغلت معاه .. مات أبويا وماتت المصانع معاه ودي حكاية كل واحد في شبرا الخمية ..

- طيب كفاية البلاوي اللي إنتا حكيتها عرفنا حاجات ما كناش نعرفها .. خد يا أحمد ..

وراحت تعد حتي قالت ألفين .. وقالت ..

- ألفين كويس ..

- ألفين إيه يا ستي ..

- ألفين كفاية تحل مشاكلك ..

- يا نهار إسود .. الفين يا ستي ليه .. هو أنا عملت حاجة ياستي .. أنا عملت إيه .. دانا ما عرفش أشيلهم أعمل بيهم إيه .. ما عرفشي أصرفهم ..

- بس خلاص بلاش كلام .. ها تدّيله كام يا أستاذ صبري ..

صبرى وهو يتسم إبتسامة عريضة :

- روح منك لله يا أحمد كل دا عارفه وساكت ..

- أول مرّة أقول الكلام ده .. لأني حبيت أقول حاجة غريبة ..
..لست ..

- أنا عارف كل ده.. هي شبرا الخيمة بس الكلام دا منتشر
في كل الحتت بس بدرجات..

وسكت هنية وطفق :

- أديله متين..

- لأ يا صبري..

- كويس كده أوي..

- آه يا منوفي.. خلاص خمسمية كويس.. ووقف أحمد
وهو يرتجف ويقترّب من سيده..

فقلت :

- ألفين وخمسمية يا أحمد.. روح اتكل على الله.. يا رب
تحل كل مشاكلك وتجيّب السرير..

.. كانت ماريانا تستغرق في الأحداث التي حولها.. وكانت
من قبل عندما يحدث لها هذا تنوّه عن الدنيا وتلوذ بصدر أمها
وتبدأ تحكي عما يجري حولها من أحوال الشركة والظلم في
تصرفات الإدارة تجاه العاملين.. وفي آخر تلك الحكايات المحزنة
على مجتمع يحارب بعضه ويتآكل من يوم لآخر والمشكلة أنه لا
توجد هناك جهة تستطيع أن توفرّ العدل للناس.. كل الجهات
الإدارية الحكومية ترتشي فتتخلى عن دورها بكل سهولة حتى

الجهات الدينية التي من الممكن لرجل صالح فيها يتدخل لعمل الحق حتى مثل هذا الرجل وصلته الرشوة من أكلة أو هدية أو ظرف.. فيذهب مثل هذا الرجل ويتخلى عن دوره الأخلاقي في المجتمع ويطلق كما يطلقون عبارة وأنا مالي.. دع الخلق للخالق.. وهكذا تخلى الجميع عن دوره الرقابي والأخلاقي فتركوا الجبل على الغارب لأصحاب أعمال لا خلاق لهم يظلمون ويتهربون ويفسقون وتحالف جميع الظالمين على هتك المجتمع وتخريب حياة الناس.. وأصبح الناس في ظل هذا الجو المفتوح من الأنانية والانحطاط واللصوصية في مهب الريح من تشريد وتجويع وانحراف فزادت الجرائم وامتألت المقاهي والملاهي والشوارع بالناس الذين يهيمنون على وجوههم فلا يعرفون إلى أين يذهبون ليحصلوا على قوت يومهم.. وفي نهاية كل أمر وحكاية تقول ماريانا لأمها :

- ما هو الحل يا أمي إن الناس يزدون من ظلمهم والمظلومين يساقون كل يوم إلى الجحيم..

فتتهد الأم وكأنها هي وابنتها يحملون هم الدنيا فوق صدورهم :

- وأين الرجال يا ابنتي.. هل تقوقع الرجال لتتقدم امرأة.. هل تعرفين يا ابنتي إن المواقع التي يجب أن يكون فيها رجال

أصحاب همة وشجاعة لم يعد فيها رجل واحد.. والله يا ابنتي أخبرني رجل عرفته بالصدفة وأنا في الصيدلية وهذا الرجل يعمل في جهاز مهم بالدولة.. إن البلد يا سيدتي لم يعد فيها رجال.. ومن يومها وأنا أقول على البلد السلام وبدأت أفكر في تفكير آخر لأنني كنت أعتقد أن البلد مليئة بالرجال.. إن هذا الرجل أنهى كل تصوري وأملي.. كنت أنتظر رجلا والآن ماذا أنتظر.. هل أنتظر امرأة.. إنني وصلت أنني لا أنتظر أحداً وأنه لا فائدة في كل هؤلاء..

- وهل نذهب إلى المجهول يا أمي..

- لا أعرف.. إن كل ما نملكه الآن حتى نزيح هومنا أن نلجأ إلى الله تعالى.. نقوم ونصلّي يا ابنتي..

أدت ماريانا صلاتها بمفردها وكذلك فعلت الأم وبعد انتهائهما من الصلاة نامت كل منهما في أرضية الغرفة وكان شيئاً من الراحة أخذ نفس كل منهما إلى التأمل بعض الوقت وترك الأمور للمولى، وقبل أن تغفل أي منهما في النوم قالت ماريانا لأمها :

- هل كان جدي الديب عطية متدينا..

فقالَت الأم في ثبات :

- كان في أوقات كثيرة من الليل يدخل في غرفته ويقفل بابها عليه..

- لم أفهم شيئا..

- في مرة سمعته يتكلم وكأنه يجادل أحدا.. فطرقت عليه الباب متسائلة.. هل معك أحد يا أبي؟ فقال.. اذهبي ونامي.. اتركيني وشأني.. ذهبت ولم أطرق عليه الباب بعد ذلك احتراما لأبي..

- لماذا كنتم تقطنون في هذه الحارة الضيقة رغم أن بيت جدي كان كبيرا وكان له أن يبنيه في مكان واسع..

- إن جدك كان يريد أن يعيش مع قومه..

- وهل كان في الحارة يتزاور مع قومه..

- كان فقط يصلح بينهم إذا قامت منازعة لكنه لم يكن يخالطهم.. كان أبي قلبه موزع بين كثير من الناس، فهو في الحارة مع قومه وفي مريان مع أهلها.. لا يترك جنازة لمسلم إلا وتقدم صفوفها ولم يترك جنازة لمسيحي إلا وتقدم صفوفها.. لقد كان أبي في أفواه كل أهل البلدة مثلا وذلك عندما يتكلمون عن الحب والخير والحق.. إنه يتقدم الناس جميعا في كل ما هو نافع للناس جميعا.. كان هناك شاب أهبل بريالة وهو فقير ليس له أهل فلما مات لم يجدوا من يمشي في جنازته.. حملها أربعة من الفقراء إلى القبر ومشى في جنازته فقط رجلان هما الحاج حداد والديب عطية وخمسة أطفال صغار.. وكان أبي

وعمي حداد طيلة سيرهما في الجنازة بيكيان.. ولما عاد عمي حداد إلى بيته أصيب بأمراض كثيرة لحزنه على أخلاق الناس.. ومات بعد أيام قليلة من وفاة عبده صديقه حسرة على أحوال العباد..

- من عبده صديقه..

- هو ذلك الأهل الذي تخلي أهل القرية عن دفنه لأنه فقير..

- وعاش جدي.. ولماذا لم يمت هو الآخر..

- مات بعد عمي حداد بشهور..

- وماذا فعلت بعد ذلك يا أمي..

- رحلنا أنا وأبي إلى القاهرة بعد أن بعنا كل ما نملك.. لم يكن أبي يستطيع أن يعيش في القرية بدون صديقه.. ومات أبي في القاهرة.. لكنني قمت بدفنه في قريتنا وكان معي أهل مريان فقط.. أما قومه الذين كانوا يقطنون في تلك الحارة فلم يحضر منهم أحد.. لما مات قالوا عنه كلاما كثيرا.. ولقد تبين أنهم كانوا يتكلمون عنه فيما بينهم وكانوا يحقدون عليه ولكن في الخفاء.. وظهر كل ذلك علنا بعد موته ولم أسف علي ذلك لأنني كنت أعرف لماذا يحقدون على أبي وكان يكفي أن أهل مريان جميعا دفنوا أبي معي وبكوا عليه..

.. ولما كانت ماريانا قد علمت من أمها كل شيء عن
جدها وبلدتها وصديقه كانت تلوذ نفسها في أحضان صيرى
وتطلب منه أن يحميها فيندش كيف تطلب الحماية وهي
تعيش عيشة الأغنياء في بلد يغطي الفقر.. فتقول له لست أنا
التي تشعر بالخوف على نفسها ولكني أشعر بالخوف على الناس
وكادت تصرخ مرة وهي في أحضانه وقالت وهي تبتعد عنه
قليلا :

- لقد سقطت مقولة أن الرزق هو رزغيف يأخذ منه كل
إنسان في البلاد لقمة..

- وما زالت هذه المقولة يداولها الناس لكن بلا معنى وبلا
حقيقة.

- هل تعرف أنه من العجب أن المصريين يذيقون المصريين
الألم والحمرمان من الحياة.. فهل تخلي هؤلاء عن أهلهم.. ألا
يشعرون بالعار..

- لقد خرج هؤلاء أصحاب الأعمال من جحورهم
كالمسعورين.. إن الرأسمالية التي انتشرت في البلاد الآن.. ليست
رأسمالية إن الرأسمالية الحقيقية ليست هنا اذهبي إلى بلاد أخرى
فيها الرأسمالية تسيطر عليها أو يملكها قوم في الأصل ذاقوا كثيرا
من المدنية والتحضر في بلادهم عقودا من الأزمنة.. تعلموا
وفهموا ووصلوا إلى أن الأخلاق الحقيقية لمن يملك المال لا بد
أن يكون له صفتان.. الأولى الابتكار والإبداع في الإنتاج لزيادة

النتاج القومي.. وثانيا هو إدراك معني كبيراً للعدل.. إن إنسانيتهم وصلت إلى درجة عالية من الرقي.. ومن أهداف حياتهم الرقي بالإنسان وأول إنسان يرتقوا به الكم الكبير من العمالة التي تنتج في شركاتهم ومصانعهم.. إن هؤلاء الناس يا سيدتي يركبون السيارة لأنهم يصنعونها ويستخدمون الأجهزة الالكترونية لأنهم اخترعوها.. وكان أسهل عليه بعد ذلك أن يعرفوا العدل من أوسع أبوابه وعليه كانت الطبقة التي لا تملك وتعمل فقط تشعر وتعيش بكل أسباب الحياة الكريمة لأنهم في أيدي أمينة ويعملون لدى أصحاب أعمال لم يكونوا في الأصل لصوص أو جراييع ولكنهم كانوا في الأساس أبناء حضارة قَدِّمَتْ وتقدِّم الكثير لمعني كل من له قيمة.. إن المال لدى هؤلاء لا قيمة له بدون عمل.. وعليه كان تقديرهم للقوى العاملة في بلادهم فزاد إنتاج مصانعهم وأعمالهم وانتعشت حياة كل من يملك حرفة أو مهنة في مجتمع الرأسمالية العادل.. إن عندنا يا سيدتي فوضى اقتصادية يحركها مجموعة من اللصوص والمجرمين.. إنها رأسمالية المهزلة..

.. يبدو أن ماريانا قد نامت على صدره وهو يحتضنها بذراعه فقال وهو يعدلها.. تركتيني أكلم نفسي وامتد في جوارها..

.. ومرت أيام العيد كان آخر أحداثها أن أصيبت ماريانا
بترلة برد شديدة أقعدتها في فراشها.. وفي صباح يوم العودة إلى
العمل ذهب صبرى إلى عمله مبكرا حتى أنه وصل قبل
العاشرة.. ولما كان يقترب من المبنى وجد مجموعة كبيرة من
العاملين يتجمعون حول مجموعة صغيرة منهم كأنهم يسمعون
منهم أخبارا لحدث وقع.. فراح يرقبهم وتوقف في الناحية
الأخرى من الشارع المقابلة للمبنى.. إنه لم ير أن باب السستر
وأن كل العاملين قد دخلوا المبنى فلما دقق النظر ثانية في
الاتجاه المقابل وجد أن الباب مفتوحا وأن المجموعة التي تلتف
حول نفسها هي مجموعة المالية.. هذا خالد ووليم وناجي
ويوسف وجريس ومحمد وأحمد.. و.. و.. لم يدخل أحد..
ليه.. فيه إيه.. لحظات ولحه المحاسبون وسرعان ما كانوا جميعا
حوله في الناحية الأخرى وانهالت ما سمعوه من مدير المبنى :

- ما فيش حد من المالية يطلع النهاردة..

- ليه

- الخواجة قال كده..

- ليه فيه إيه..

- الخواجة لغى المالية ..

- يعني نقلنا إلى مبنى تاني..

- لآ ..

- أمآل إيه ..

- هو كده وبس .. لما بيعجى الأستاذ صبرى هايعرف كل

حاجة ..

- إحنا مش عارفين يا بيه إيه الحكاية ..

وحدق صبرى فى وجة كل منهم وسمع منهم فرادى
وجماعات حوارا واحدا .. فقال وهو يضع كف يديه فى جيب
معطفه :

- طيب خليكو هنا .. أنا هادخل أشوف إيه ..

ولما كان صبرى يدخل من الباب الكبير ويتجه إلى حيث
يجلس المدير فى نهاية الطرقة التى تتوسط قسما للمبيعات .. قام
إليه المدير لما لمح يدخل وقابله فى منتصف المدخل ومدّ إليه يده
قائلا :

- صباح الخير يا أستاذ صبرى ..

- صباح الخير ..

- فيه إيه .. المحاسبين مادخلوش ليه ..

- يا بيه ما على الرسول إلا البلاغ ..

- إيه البلاغ ..

- الخواجه لغني المالية وقال لي ما فيش حد يطلع فوق.. وقال إدّي للأستاذ صبري الشنطة دي ومدّ حقيية سوداء في يده إلى صبري قائلاً :

- الخواجه ببشكرك على الوقت اللّي قضيته معانا..
ويقول لحضرتك متشكرين والشنطة دي فيها مكافأتك..
إتفضل ..

وأخذها منه صبري بيد مرتجفة وقال :

- طيب أخش أكله من تحت من مكبك..

- قال لي متخليش حد يكلمني..

- خلاص.. لي أوراق في الأرشيف فوق.. أوراق تعيني عايزها.. وعلى فكرة حق المحاسبين كلهم ياخذوا أوراقهم..

- طيب.. ممكن حضرتك تنتظري لحظات..

عاد إلى مكتبه مسرع الخطوات فهاتف الخواجه بأن الأستاذ صبري والمحاسبين يريدون أوراقهم فأخبره الخواجه بالموافقة ..

وعاد مدير المبني ليلغني بذلك وقال :

- طيب معلش يا أستاذ صبري ممكن ساعة وترجع هايكون كل الأوراق جبتها من فوق وتكون جاهزة.. ممكن..

وانفلت صبري دردير إلى الشارع حيث أخذ المحاسبين^{٥١} وذهبوا إلى قهوة عماد على ناصية شارع متحف المطرية

وجلسوا جميعا حوله كأنه سوف يلقي عليهم محاضرة.. ولكنه
سكت.. وراح ينظر في وجه كل واحد منهم ويتأمله في حزن
وغضب :

- طيب الناس دي ها تروح فين.. ها تروح فين دلوقتي..
تروح مكتب عمل الزيتون الصبح نبلِّغ عن الموضوع المؤسف
ده.. دا فصل تعسفي علي.. حتى لما نعمل محاضر وتعمل قضية
لكل واحد منهم دول إمتي تحكم.. مين دلوقتي يشغل الناس
دي.. ويلم الناس دي اللي ملهمش حد ولا يملكون متر
واحد في البلد.. طيب كل واحد يقول لأهله إيه أنا انفصلت
من الشغل.. يا ولداه على الدنيا البيوت أصلا مش ناقصة نكد
ولا غم.. طيب أنا هاروح لماريانا الغنية أو حتى بيت الأولاد..
طيب أنا معايا فلوس وحالي كله تمام بس دول يروحوا فين دا
يادوبك أهاليهم فرحانة بالبكالوريوس السي خدوه.. ويادوبك
شغالين بقالم سنة يعني الفرحة عمرها ما تكمل في البلد دي..
وبعدين.. دار ذلك في رأسي كمن كنت أكلم نفسي ولم أكن
أرى ما يعتري كل منهم من حزن وتوتر.. وكان الجميع
يقول.. نروح فين يا أستاذ صبري.. دا احنا ما صدقنا اشتغلنا..

دلوقتي نروح مكتب العمل نشتكى وبعدين ربنا كريم..
روح يا خالد هات الأوراق بتاعة الناس من مدير السستر..
واقفوا جميعا.. وبعد حوالى الساعة ذهبنا في صمت وكأننا في
زفة حزينة إلى مكتب العمل في شارع سليم الأول.. وفي لحظة

ما كنا ندخل باب المكتب كنا خمسة فلقد انسحب ثمانية في
يأس أو زهق من المشاكل وكان بينهم المحاسب محمد إبراهيم
مدير عام في بنك مصر على المعاش والمحاسب سيد حبيب مدير
عام مالي بالمعاش، قابلنا الجميع في المكتب بترحاب وسمعوا
قصتنا مع صاحب العمل وتحمّس لنا جميع السيدات في المكتب
ما عدا موظفان يعملان في المكتب ولكن لصالح أصحاب
الشركات.. وفي وقت ما كنت أقدم أوراقى للموظفة لتقوم
بعمل محضر الفحص كان الموظفان قد سحبا أربعة محاسبين
خارج المكتب للتفاهم بأن يأخذ كل منهم خمسمائة جنيه
وينصرف إلى حال سبيله مقابل أن يكتب طلب استقالة له بخط
يده ولم تمض نصف ساعة حتى أخبرتني موظفة دخلت علينا من
مكتب آخر بأنه لم يبق غيرنا فلقد ذهب الباقي من المحاسبين مع
الموظف الذي يعمل في المكتب إلى شركة الخواجه لكتابة
الاستقالة لظروف خاصة والتوقيع عليها مقابل المبلغ الذي طرح
عليهم.. واستكملت أنا والمحاسب خالد إجراءات عمل محضر
الفصل التعسفي وأخذ كل منا رقم المحضر لإقامة الدعوى..

ومشيت سيرا على الأقدام من شارع سليم إلى شارعى الذي
تقطن فيه ماريانا عالمي.. إنها العالم الذي ينقذني دائما مما أنا
فيه.. وأنا في الطريق إليها رحت كالعادة أحدث نفسي محزوننا
على ما جرى.. عندما تموت الشعوب ينسحب الناس إلى بيوتهم
في ندالة أو في خوف أو في يأس تاركين حقوقهم وحقوق
الفصل التعسفي هي حقوق أديبة قبل أن تكون حقوقا مادية..

الشعوب المتحضرة لا تخاف لا تترك أية حقوق لها وعلى ذلك فهي تعيش مرفوعة الرأس، إن الناس في بلادنا يتدينون تدينا شكليا لأنهم يتخلون عن حقوقهم وينسحبون إلى حياتهم في خوف متخازلين وعليه فإن أي انتهازي أو مجرم يركبهم كالحمار ويسوقهم إلى زريبة البهائم.. ومن هنا ولدت العبودية الجديدة في بلادنا.. الناس توطي وتخاف وتتنازل عن حقوقها فيركب اللصوص وعديمي الأصل والذين كانوا جرایع وجوعى يركبون الحمير ويسوقوهم إلى حظائرهم..

.. وصلت إلى بيت ماريانا وفتحت السيدة الكبيرة باب البيت واستقبلتني وكأنها تستغيث :

- إنت فين يا بني.. ماريانا عمّاله تتأوه ومش دارية بحاجة.. وعمالة تقول فين صبري.. فين صبرى يا ماما.. خش يا بني شوفها وخليك معاها علشان تخف.. وراحت السيدة تبكي.. .. كان عليّ أن أضمها إلى صدري وأن أقبلها بلا انقطاع.. لاذت بي وأمسكت بكتفي حتى لا أكون بعيدا عنها في حال مرضها.. ولم أتركها ونمت في جوارها حتى أيقظتنا السيدة الكبيرة للغذاء.. وبعد الطعام أخبرتها بكل ما حدث صباح اليوم وتعبت نفسيتها .

* * * * *

ولما دخل المساء كانت ماريانا قد نالت منه جرعة حنان
أراحتها فعميت قليلا وشعرت براحة نفسية لا تشعرها إلا وهو
معها.. تأكدت أنها لو تعاطت كل الدواء في دنيا العلاج لن
تشفي إلا في جواره.. كانت كعود القصب تنثني من تحته ومن
فوقه وكلما فعلت يرشح منها العسل.. وفي منتصف الليل شعر
أن في عينها فراغا وتيها رغم سعادتها في جواره فقال لها :

- ماذا بك إنني أشعر بأنك حزينة..

- كيف لا أحزن وأحداث هذا الحقر معكم صباح اليوم..
إنني مهما كنت سعيدة فلن أنسى أبدا أين يذهب هذا الجمع
من المحاسبين وهم بلا مورد أليس هذا تقطيعا في شريحة هامة
من شرائح المجتمع.. إننا نعيش في سوق فوضوي كبير أغلب ما
فيه فقراء يبيعون كل شيء من أجل اللقمة.. وينضربون
بالصرمة وهم في سبيل العيش..

- ليست المشكلة في الفقراء المحتاجين الآن ولكن في أن
عددهم يزداد يوما بعد يوم بشكل رهيب..

- هل نسمي ذلك إتهارا..

- لسنا في حاجة إلى تسمية ولكن من يوقف هذا الالهيار..

- والله إنني لأتعجب من بلد يحتكره الجوع والفقر وفيه كل
أنواع الاحتكار الاقتصادي..

- هو احتكار إنساني قبل أي شيء.. لقمة في فمك وضربة على رأسك هذا هو المتوفر الآن..

- في بلد مثل بلادنا كيف نترك رجال أنذال يحتكرون السلع الأساسية لحياة الناس.. إنهم بذلك يحولون مجتمعا بأكمله إلى عبيد.. كيف نتاجر على الفقراء.. كيف نمنع اللقمة أن تدخل أفواههم.. كيف يكون هناك أغنياء بهذه الفظاعة وهم قلّة وتترك الشعب كله يضيع تحت أقدامهم من الجوع والعرى والحرمان.. إلى أين نحن ذاهبون..

- إلى الهاوية إلى الجنون إلى حريق يلتهم كل شيء..

- آه يا دنيا إلى أين.. الآن نترك هذا الحوار إننا لن نصل إلى شيء..

- لا.. إننا في هذا الحوار نصل نحن إلى شيء..

- عليّ أن أحبك دائما وأن أبحث عن عمل آخر في شركة أخرى محترمة..

- أعتقد أنه لا يوجد في القاهرة كلها شركة محترمة.. إنهم جميعا اتفقوا على إهدار حقوق العاملين وكذلك طردهم في أي وقت يحلو لهم..

- ولكن عليّ أن أبحث هذا هو الموجود..

- كفانا مهزلة إن ما نملكه أنا وأمي كاف لإقامة شركة
وزيادة..

- هذه أموالكم أنتم..

- إنها أموالك أنت أيضا.. أنت للأسف وحتى الآن لا
تعرف أصل الحكاية..

- أعتقد أنه لا يوجد شيء لا أعرفه عنكما..

- يا صبري أنت بالنسبة لنا السلوى ولي أنا بالذات فأنت
الفؤاد.. لقد كنا من قبل أنا وأمي نبحث عن رجل أمين يدخل
علينا البيت ويخرج.. وكان الحصول على رجل حبيب وأمين
وزوج في هذه المدينة صعب جدا.. إذا كانت هناك صعوبة
شديدة في الحصول على عمل آمن يكفل الحياة الكريمة فكيف
يحصل الناس في هذه المدينة على رجل.. كما يقولون إن
الحصول على رجل من رابع المستحيلات ومن تجد الرجل الذي
تبحث عنه تكون قد وجدت الحياة نفسها.. انظر إن كل
البيوت في مدينتي تبحث عن رجل ولا تجده.. حتى وصلت إلى
أن هذا الرجل لن يأت أبدا..

- ولكنني إنني أرى عكس ماتقولين.. إن الرجال كثيرين في
بلادنا عدد لا يحصى..

- سوف أوافقك.. ولكن ما حال هؤلاء الرجال.. إذا كان
الرجل قد فقد كرامته وهو يبحث عن العمل الشريف وإن لم

يفقدها اليوم سيفقدها غدا وذلك لدوران طاحونة السفالة والانهطاط من رجال الأعمال هؤلاء.. فما الذي يقدمه الرجل للمرأة في مدينتي وهي تطلب منه أول شيء الأمان والاستقرار.. إذا كان الرجال يعيشون في دوامة من أجل الحياة فكيف يقدم للمرأة حياة وهو يفتقدها.. أليس العادي أن يقدم الرجل الحياة للمرأة لتعطيه الحب وهذا هو الجاري في كل بلاد الدنيا وفي كل الأزمنة والعصور.. إذا كان الرجل في بلادي افتقد إلى الطبيعي ولن يستطيع تقديم شيء إلى المرأة حتى افتقد رجولته وافتقدته المرأة وهو في هذا الحال لأن الرجال عادوا أشباحا ومن هنا جذب المجتمع.. امرأة بلا رجل مجتمع بلا زرع وبلا حصاد.. وعليه كان عليه العوض.. إنني أسمع الجميع الآن لسان حالهم يقول "يعوض ربنا".. تنهد صبري ملأ صدره وقام من فراشها قلقا وفتح النافذة فوجد سماء ملبدة بالغيوم وكرات من الدخان الأسود يصعد من الأرض إلى السحاب.. كان يريد أن يرى السماء صافية وأن يرى النجم القطبي في بطن السماء واضحا جليا كما كان يراه وهو طفل.. شعر بأنه لن يرى الأشياء والظواهر والدنيا حواليه كما كان يراها من قبل خاصة أيام طفولته.. قفل النافذة واستدار نحوها وقال وهو يحاول أن يمكس بتلايب نفسه المرتعشة..

- لم أكن أتصور أن امرأة مثلك تعيش في هناء ورغد وتملك من المال والأرض الكثير وتكلم عن الناس المقهورين والحياة التعيسة التي يحياها الناس.. أليس لك أن تتكلمي عن

شيء آخر.. إنني أشعر بوجع شديد عندما أسمعك.. أكيد أن هناك غيرك في مدينتي يتكلمون عن المعاناة والظلم والانحدار الذي يعيشه الجميع وهم من نفس طبقتك..

- لا أعرف الأخرى مثلتي كيف يتحدثن ولكن ألت أن من أعماق الريف.. إن جذور الناس جميعا من ريف بحري أو من بلاد الصعيد وكل الجذور عاشت في التراب وبين المواشي ونامت على أفران زمان في الغرف الشتوية وأكلت الخبز والبتاو وفتير المحمة حين كان الجميع يقعد خلف المرأة التي تخبز ويأكلون كل ما تخرجه من الفرن ساخنا ويلتهمونه وهم سعداء.. وكان الطعام بسيطا خبز وبتاو وجبن قديم وزبد وعسل أسود وبصل ولا أكثر..

كان الطعام يسرى ويمري.. تعال الآن شوف الخراب أنتكة في كل شيء وفزلكة كنتاكي وما كدونالدز وتيك آواي وغالي جدا ولا يغني ولا يسمن من جوع والناس تأكل من طعام لا يشبع ولا يغني ومنين الفلوس.. ومنين جابوا الزمكة دي.. مجتمع كله إنقلب ليته إنقلب إلى الأفضل..

مجتمع بلا جذور.. أين القمح الذي نزرعه والدقيق الذي نطحنه والقطن طويل التيلة والطمي والفلاح الذي كان يذهب إلى حقله بعد صلاة الفجر ليفلح في حقله.. حتى الفلاحين عادوا أنتكة وفزلكة.. المدينة.. أي مدينة وأي خيبة كان الجميع في البلاد قد انضحك عليهم أو يعيشون في غيبوبة.. ويا ريت

كل حاجة بناكلها أو بنستعملها بتررعها أو بنصنعها.. أصبحنا
يا سيدي مجتمعا بلا أي جذور.. خايب هايف عاطل.. مجتمع
انقلب فيه كل شيء إلى تحت..

- يا نهار إسود ياماريانا.. كفاية هاموت..

- فعلا يا نهار إسود فعلا هي بقت سودة..

- أرجوك ياماريانا.. تعال نسافر نريح أعصابنا.. تعال

نروح البلد..

- يا ريت يا صبري تعال نروح البلد..

.. ومرت أيام عليهم في البلدة كانوا في ضيافة الدكتور أحمد
شقيق صبري، ولم تكن السيدة الكبيرة سعيدة لتغير أحوال
القرى بشكل أحزنها حيث كانت تقعد كل صباح وتفتح نافذة
المضيئة وترى المنظر المخيف حيث يقف عشرات من النساء
والرجال من مختلف الأعمار في طوابير من أجل شراء الرغيف
من فرن السيد حسين المجاور للبيت.. وما أضحكها في هذا
الصباح الذي حزنه فيه لأول مرة منذ وصولها إلى القرية
حادثة الولد عبود الأهل الذي ينحشر في طابور النساء بحجة
أنه يشتري حيث كان يدعّر خلف امرأة بعد الأخرى حتى
قامت إحداهن بضربه على رأسه بالحذاء وأخذته الرجال بعيدا

عن طواير النساء وهم يضربون أكفهم على حال عبود
المسكين والذي لم ترض به فتاة في القرية قبول الزواج منه..
وراح الجميع يضحك رجالاً ونساءً على دنيا عبود والذي
ذهب بعد قليل من الحدث إلى بيته دون رغيغ .. حزنت أم
ماريا على كل الأحوال فلم يعجبها أن يسهر الرجال خاصة من
شباب الفلاحين حتى الصباح في المقهى الجاور لبيت مضيفهم
وأن يكون سعر اللحم هو نفس سعره في القاهرة وكذلك كل
الأجبان والزبد.. وفي يوم حاول صبري أن يأخذها إلى مريان
حيث ذكريات الطفولة وأرض أبوها القديمة فرفضت بأنها لن
ترى شيئاً يسر خاصة أن الرجال أصدقاء أبوها ماتوا جميعاً
وأولادهم من سافر ومن مات ولم يبق من أولادهم يحمل
صفاهم الكريمة أحد.. فكيف تذهب إلى الفراغ إلى لا شيء
هناك.. وقالت خربت مريان.. وسألت عن سنابل الولد الشقي
فأخبروها بأن عمره ثلاثة وثمانون عاماً وأصبح هرماً لا يقدر
حتى على المشي.. وأخبر الدكتور أحمد بأن مائة مريان لم يعد
فيها رجال كما كانت من قبل وأقرب الأمثلة أن رجلاً لم يبلغ
الخمسين من عمره عاق عما له مرات وفي عرض الطرقات
وعلناً أمام الناس وكان كل ما فعله عمه عبد العزيز أن قال
له .. رفقا بجدران بيتي من المياه التي تغرق بها الأرض وكان
الولد يزيد في إيذاء عمه وكان له أخ صالح يدعى حاتم .. كان

حاتم صالح مثل أبيه .. مات حاتم وكنا جميعاً نحبه مات العم
عبد العزيز حداد بعد ذلك وانشق قلب أخيه الكبير عليه وكره
من عاقه وراحت السيدة الكبيرة تبكي وقالت في حزن شديد:

- أظن أن هذا يكفي لأن نذهب ولا نعود إلى البلدة
ثانية .. الأحران والأحداث المؤسفة ملأت الدنيا.

وعدنا إلى القاهرة ونحن محزونون على الكثير من أحوال
القرية ولكننا في نفس الوقت انشغلنا بأشياء أخرى رحمتنا من
مشاكل الفصل التعسفي ومن حماقة أصحاب الأعمال..

.. وكان علينا أن نبدأ مرحلة جديدة من الحياة وأدركت
تماماً أن الغم والهم في بلادي موزع في كل نواحي المدن
والقرية.. وأنه لا فائدة من الأحران ولا داعي لأن نبكي على
الأحوال، وقامت ماريانا بتقديم كشف بأسماء كافة المحاسنين
وبنات المبيعات اللاتي تم فصلهم وفصلهن جميعاً قدمته لصبري
قائلة :

- علينا أن ننقذ هؤلاء وغيرهم..

وراح صبري يقرأ الأسماء بعناوينها بهواتفها واندهش قائلاً :

- كيف حصلت على كل هذه البيانات؟

- عندما شعرت قبل العيد بأن هناك مكيدة أو خداعاً قد يحدث خاصة عندما قابلني ناجي وليم المحاسب على التدرج واستوقفني قائلاً.. يا سيدتي أنا خائف وأشعر بأن هناك شيئاً يُدبر في الخفاء ضد المحاسبين جميعاً..

ولما قلت له وماذا تريدني أن أفعل.. قال لا شيء العمل عمل ربنا..

.. أخذت منه الكلام ودق قلبي بسرعة وشعرت بالخوف وأخذت نفسي إلى الأرشيف وطلبت من محمد محاريق هذا الكشف فأتاني به بعد ساعة.. كنت أتعثر وأنا أمشي في الشركة فأيقنت إلى حد كبير بحدوث شيء.. ..

- براقو عليك.. يعني ناجي هو السبب.. مشيت وراق قلبك واحساسك وصدق..

- وكان فيه حاجات كثيرة أوي حواليه بس مارضتش أقولك لأنها كانت مجرد إحساس..

- وما الذي نستطيع أن نفعله لهؤلاء إذا كنا نحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً لأنفسنا..

- إننا نستطيع عمل الكثير..

- كيف..؟

- أتمنى أن تنسى أن تكون في يوم آت تعمل مديرا ماليا عند الآخرين.. لدينا المال والأرض والإدارة وهؤلاء هم المحاسنين وغيرهم.. حرّر نفسك يا عزيزي ..

وراح صبري يضحك بصوت عال ولما انتهى قال:

- لكن كيف نبدأ.. وهل يكون نشاطنا هو نفس النشاط الذي كنا فيه..

- مصنع ملابس فيه كل الأقسام.. وستتر فيه كل حاجيات الناس.. وسوف أتحدى هذا الخواجة وأضربه في الشغل.. كل أسطوات المصنع من رجال ونساء أعرفهم جيدا.. سوف أسحبهم منه..

- علينا أن نقيم المصنع أولا ..

- من الغد ..

- سوف أقوم بذلك ولكن أين المبنى الذي نستأجره..

- سوف نبني الأول..

- هذا يستغرق وقتا طويلا..

- يستغرق.. المهم نبدأ.. ممكن في سنة نخلص كل حاجة..

.. ومرت أيام قليلة بدأت ورشة عمل تمهد الأرض بعد أن هدمت المبنى القديم وراح المقاول بعدها يحفر الأساسات.. وبدأ

شغل الأسمت والزلط والرمل والحديد.. وراح الصعايدة
العاملون يغنون أغنياهم التي تعودوا عليها وهم يشيدون كل
بناء..

.. وبعد أن أخذتني الدنيا ومشاغلتها تذكرت أن لي إبناً في السجن وعمره طفلاً صغيراً فشعرت بالخزي على نفسي.. وعلى وجه السرعة جهّزنا له زيارة وذهبنا جميعاً إليه في ظلّمته، وفي هذا اليوم كانت كل كلمة يتفوه بها محمود تبعث في داخلنا البكاء والألم..

- أنا مش عايز زيارة أنا عايز أطلع يا بابا..

- طيب يا محمود حاضر لو كان بايدي كنت طلّعتك من أول يوم..

- إتصرّف يا بابا..

- حاضر يا بني..

وكانت أمه وجدته ومحمد أخوه وبسنت ينظرون إليّ وكأنهم يرجوني أيضاً مثله.. وشعرت براحة نفسية أن الناس ما زالوا يعتقدون عليّ الأمل.. ولما انتهت الزيارة وودعناه كلنا بالبكاء والعيول.. أخبرتني جدته بأنها سوف تعرج على بيتها في الحسين لتذهب إلى محمد القاضي وهو عضو مجلس شعب سابق عن دائرة الجمالية ربما تجد حلاً عنده.. وعدنا إلى البيت هذا

اليوم عدا الجدة التي ذهبت إلى القاضي وتذكرت عندما كانوا
يغنون لي وأنا صغير فتقول أمي لبيبة ضرة أمي :

- يا قاضي يا قاضي يا للي كلامك قاضي شوف لي حل
في داري.. كل ما أكنس القاعة الأقي مليم أحطه في الطاقة
الحرامي يجي ياخده..

.. ولم يكن عندي ثقة في أن عضوا من أعضاء مجلس
الشعب يخدمك بدون مصلحة.. غير أنني عندي ثقة كبيرة في
أن بعض الضباط داخل المعتقلات غير راضين عما يحدث بصفة
عامة ويعد لها الأهل والناس بصفة خاصة وأنهم كانوا سيكون
من قلوبهم على الأطفال الأبرياء.. وكلما زرت ابني جاعني
ضباط برتبة رائد بشوش الوجه ابن ناس ملاحه تشبه ملامح
وجه أمي يا سبحان الله.. يصفخني بجمرة ويتسم وفي كل
مرة أشعر أنه يريد أن يقول شيئا لي.. وفي هذه المرة الأخيرة
صافحننا جميعا وصافح محمود قائلا :

- معلى

فقلت له :

- ربنا يحميك متشكر أوي.. فيه جوّه ضباط زيك يا
ريت يكون فيه زيك كثير.. إنت بتجنا ليه.. إنت مين وانت
منين.. في كل الأحوال سلامك لنا ده جبر خاطر ورحمة من
ربنا بتترل علينا..

فقال الضابط :

- إحنا إخوات وانتو باين عليكم ناس طيبين وأنا بيني وبين نفسي لما بشوف محمود قلبي بيبكي.. وأنا مش عارف ليه بجبكم زي ما يكون إنتو أهلي.. وعلى فكرة كل أهل مصر كانوا أخوات..

- دا كتير أوي علينا..

- شوف من الآخر.. طلّع ابنك.. فيه طرق كتيرة أوي..

- طيب دلني الله يرضى عليك..

- البلد مليانة طرق كتير شوف اللسي طلّعوا طعلوا إزاي..

وانصرف تحسبا من أي عين تراقبه لطول وقفته معنا والحديث الذي ما يجب أن يفشى به.

.. نعم يا سادة رحمت أتذكر حكايات كثيرة منها أن راقصة مشهورة أخرجت ولدا له ذقن وكان له نشاط ولكنها بقدرتها استطاعت أن تخرج هذا الولد لأهله وكان هذا الولد يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثون عاما وكان ينتمي فعلا للجماعات الإسلامية وليس مثل ابني محاولة الانتماء للجماعات ثم اتزحلق.. ورحمت أضحك في بيتي مع أبنائي وزوجتي على حكايات كثيرة.

.. وفي المساء جاءتنا الجدة فرحة وراحت تحكي :

- قابلت القاضي وللأسف طلع كلامه قاضي.. قال ما فيش طريق رسمي أقدر أعمله وده موضوع شائك لأني عايز أقضى دورة المجلس في هدوء ولكن هاقولك على راجل بالفلوس ممكن يعمل حاجة.. المهم يا ولاد جيت منه تليفون الراجل ده.. اكتب يا محمد برضه علشان الورقة ممكن تضيع معايا وراح محمد الصغير يكتب:

.. حميدو عفيفي الورك رقم ٦ حارة عبدالرازق الورك باب الشعرية.. جنب الميدان وتليفونه ..

وبعد دقائق هاتفت الجدة حميدو وكنا نسمعها فقط :

- حميدو بيه موجود..

- ممكن تقول له أنا من طريق محمد القاضي بتاع الجمالية ..

وصمتت برهة ثم تابعت :

- أهلا يا بيه أنا من طرف القاضي بيه عضو المجلس عارفه..

- طيب خلاصة الموضوع ابن بنتي طفل ستاشر سنة خدوه اللي ينتصوا في نظرهم..

- في سجن استقبال طرة.. ستين..

- حديجيلك..طيب أبوه هايجيلك.. طيب وماله اتفق معاه
على كل حاجة..

- من الأول كده.. كام عشرين. ز عشرين ألف بس هات
محمود.. عشرة الأول وعشرة لما يطلع.. يجيلك امتي..

- النهاردة.. هاتروحوا للراجل النهاردة .. طيب ها يجيلك
بعد ساعة.. اسمه صبرى دردير.. مع السلامة..

.. كان الحديث محمد حميدو بادرة أمل للأسرة وكما
يقولون الغريق عايز قشاية يتعلق فيها، غير أن صبرى أبلغ
الحاجة بأنها هاتفه مرة أخرى وتبلغه بأن صبرى سوف يأتيك
مساء غد بعد العشاء وقامت الجدة وأبلغت بذلك..

.. ومرّ بعض الوقت بعده أخبر صبرى ماريانا بما حدث
فسعدت لذلك وأخبرته أن المبلغ الذي سيدفع للرجل سيكون
منها وأنه عليه أن يسرع في الذهاب إليها لتبلغه بأخبار أخرى..

وعندما ذهب إلى زوجته ماريانا بالزيتون وجدتهما سعيدتين
بخير أن محمود سيخرج بالفلوس وهناك أخبر ماريانا بملاحظات
في الصبب وأن الأساسات يجب أن تكون ذات سمك كبير وأن
على المقاول أن ينفذ ما نيله عليه لأنه لا يدفع شيئاً من جيبه..
فقال لها صبرى :

- ومن أين عرفت كل هذا..

- لا أخفي عليك أنني وجدت المقاول الذي يشرف على البناء بجلابية فتوجست أن يكون جاهلا بأمر فنية فاستدعيت مهندس مباني ليقول لنا خبرته وملاحظاته.. وسوف يأتي هذا المهندس من يوم لآخر حتى لا يجهلنا هذا المقاول في شيء.

ضحك صبري وقال :

- وكيف تأتين برجل وتقابليه دون علمي..

- أبدا يا حبيبي إني أردت أن لا أشغلك بشكل كبير وأنتك مشغول هذه الأيام ودمك مش رايق بعد أحداث الشركة المؤسفة.. ولن أستدعيه بعد اليوم ولن أكون معه وهو عند البناء لتقلد مشورته.. هي مرة واحدة كانت مبادرة سريعة مني للخوف على الأساسات..

- حسن يا حبيبي بالنسبة لموضوع الراجل اللسي ها يطلع محمود أنا معايا فلوسه ليه تقولي إن العشرين مني أنا..

○ - يا ريت ندفع ويطلع.. عملية أنا أدفع إنت تدفع إحنا واحد.. ولكن ماما هي اللي ندرت هذا.. سيها تعمل اللسي عايزاه الخير كثير..

- يا الله.. نحن نفرق في الخير الكثير وغيرنا حاله قشّف من

كتر مافيش..

- معلى دي أحوال الدنيا وعلى العموم إحنا بنعمل شىء
هاىكون كبير للناس المقشفة..

وفى مساء اليوم التالى ذهبت قبل العصر إلى بيت أبناى
لأخذ من دولابى خمسة آلاف جنية احتياطى معى فى هذا
المشوار وتناولت الغذاء مع الأسرة حتى أمسى الليل.. وبادرتنى
ماريانا بمكالمة المحمول بأنها سوف تأتىنى بالسيارة وتنتظرنى
مقابل باب فندق السلام.. وتناولت الشاي على عجل
وارتديت ملابسى وهلعت مهرولا فى اتجاه الفندق بشارع
جسر السويس.. دلفت بجوارها وأخذت يدها وقبلتها
فابتسمت قائلة :

- على إيه دا كله..

- عشان بيجك ..

- كفاية عليه كده.. جبنى أوى يا صبرى..

- هاموت فىك طول عمري..

- يا رب يكون عمري قبل عمرك.. إنت روح قلبى..

واخترقت المركبة شارع جسر السويس مارة بأحياء منشية
التحرير وعزبة شنودة والزيتون ومنشية البكري حتى وصلنا إلى

العباسية ومنها إلى باب الشعرية.. كانت الشوارع خالية
لانشغال لناس بمباراة لكرة القدم.. كانت ماريانا سعيدة وقلبها
يستهج وتردّد كلماتها بصوت فرح :

- إيه يعني الفلوس بس يطلع..

- يا ريت .. يارب..

- خيبة بتحصل في البلد.. ياخذوا إبننا ظلم وبهتان وندفع
فلوس كمان علشان نطلّعه..

- تنكيل.. هوّ دا التنكيل..

- طيّب الناس الغلابة تجيب فلوس منين علشان تطلّع
ولادها..

.. وصلنا إلى باب الشعرية ودخلنا في حوازيها وكانت أنوار
الشارع العام ترسل أشعة المصابيح إلى تلك الحارات فلم يعد
الظلام حالكا ولكنه كان باهتا واستطعنا الوصول إلى البيت
وأمام الباب هاتفناه فترل إلينا وصافحنا وركب في المقعد
الخلفي وانطلقت ماريانا بالمركبة متجهة إلى أول شارع فيصل
حيث بيت الرجل الذي نقصده..

.. كان حميدو الورك ابن بلد شبيه كل أبناء البلد في أي
مدينة ولكنه كان قريب الشبه بزايين قهوة حميدو في محطة الرمل
بالإسكندرية وانشغلنا معه في سماع حكاياته:

- إحنا يا بيه عايشين هنا من زمان ومولودين هنا..
شوارعنا ضيقة وبيوتنا قديمة لكن هي دي الأحياء الشعبية طول
عمرها وتلاقي الناس فيها كل واحد شكل.. أم العيال عايزة
تمشي من هنا بس فين الفلوس اللي تجيب بيوت..

- ربنا هايبعث يا حاج حميدو.. هو احنا ها نقابل مين..

- راجل عارف كل حاجة في الدنيا.. عارف كذا لواء
بيقضي مصالحهم وهم بيخدموه ومتعرفشي ماشية إزاي..
الفلوس بتعمل يا بيه.. بالمناسبة يا بيه جبت المقدمة.

- ما فيش مشكلة نشوف الراجل الأول وكلامه.. ما
تخافش إحنا فلوسنا جاهزة..

.. وكان الرجل يقول لماريانا بين الفينة والفينة الأخرى..
يمين شمال لأ شمال يمين أيوه خلاص قربنا نوصل.. خلاص
على مهلك.. وكانت ماريانا تبتسم لأن حميدو يتكلم
(بلهمضة) وبسرعة وكأنه يكح في كلماته ويبدو أنه كان ذلك
من كثرة سحائره.. ويبدو أننا كنا قرييين من ترعة الزمر
توقفت العربة أمام البيت.. صعدنا الدرج حتي الدور الرابع
ودق حميدو الباب وفتحت لنا امرأة في الأربعين مفكوكة الشعر
والصدر وكأنها خارجة من غرفة النوم.. كانت على علم
بوصولنا وأجلستنا بالصالة وهمست في أذن حميدو ثم انصرفت
إلى الداخل.. وكان عدد من الرجال والنساء والفتيات من

مختلف الأعمار يجلسون معنا في الصلاة الكبيرة كمن ينتظر كل منهم دوره وكانت مريانا تدقق في وجوههم وتتململ في جلستها.. هذا رجل طاعن في السن يجلس على مقعد وحده متكئا على عكازه وهذه سيدة عجوز تتمم مع نفسها.. وهاتان فتاتان في عز الصبا وقد جلستا في مقعد واحد.. وهذه سيدة في الأربعين زائفة النظرات، وفتاة أخرى تجلس بعيدا عارية الصدر منكوشة الشعر جذابة مثيرة ترتدي بنطلونا ضيقا يحضن أردافهم البعض والتي قامت إلى المرأة في ميوعة تسوي من شعرها ثم طرحته منشورا على كتفها ثم عادت أكثر دلالا إلى مقعدها ووضعت ساقا فوق الأخرى غير مبالية وهي تشعل سيجارتها بعود ثقاب ولما زفرت الدخان من فمها راحت تتابع كراته المتصاعدة وهي تنظر إلى سقف الصلاة وكأنها تتأمل شيئا يستحق أن تستغرق فيه.. ثم رجل عربي يرتدي العقال يبرطم بصوت منخفض مع امرأة معه ترتدي عباءة الخليج.. وراح صبري وقد فغر فاه وكأن المكان يمافيه من هؤلاء قد انفصل عن باقي المدينة وكأن كل منهم قد سقط منه شيء وجاء يبحث عنه.. كان يندهش وظهر له أن رصيف المدينة يحتوى الكثيرين وأن هذا الرصيف ليس في الشارع فقط.. وأن الناس على اختلاف طبقاتهم وتفكيرهم يبحثون عن من ينقلدهم.. ترى عن ماذا يبحث هؤلاء..

.. وكان حميدو الورك قد دلف عدة مرات إلى الداخل ثم يعود يجلس بجانبنا لكنه في المرة الأخيرة أخذنا إلى الداخل.. فتح

لنا الباب شاب صغير سرعان ما انصرف.. وإذا برجل يشبه
الرجال يجلس على مقعد ضخم وبصوت يشبه صوت النساء
قائلا في طراوة ؟

- أهلا أهلا حميدو وضيوفه.. هلا هلا.. إيش بيكو..
تمجلسوا.. تفسحوا.. هن هن..

.. جلسنا مقابلته وأنا أتأمله في ذهول.. أتأمل ضفيرة شعره
الطويلة والتي طرحها خلفه.. عيونه متوترة من الشعر.. لا
رموش لها.. وقد طلى شفتيه بلون أحمر الشفاه البني الداكن..
كده علي.. الراجل بيقول أنا ست.. ولكن هل هذا لزوم
الشغل.. أهو شاذ ويظهر ذلك على ملأه دون مداراه.. إن
الكثير من الرجال الشواذ شواذ لكن أشكالهم عاديون ولا
يطرحون ضفيرة على ظهرهم ولا يدهنون بأحمر الشفاه
ويتحدثون كالرجال.. وشعر بتقزز من الرجل ويإن ذلك في
وجهه فقالت له ماريانا هامسة في أذنيه :

- يالّه نقوم بلاش مسخرة..

فمال صبري على حميدو يهمس في أذنيه:

- إزاي جاينا في المهزلة دي..

- طول بالك يابيه.. دا سره كبير.. إنت مش لك إبن

يطلع..

- أنا شايف العينة تطرّش..

- طول بالك إهدى .. إسمع بقعة ..

وحكى حميدو حكاية محمود وأنه في استقبال طره وإنه كان
ها ينتمي لكن محاولته فشلت ..

فضحك الرجل وتفحص صبري بعينه الكحيلتين وقال
بكلمات تبرطع خارج فمه :

- أنا شفت الباشا قبل كده ..

- أنا عمرى ماعملت حاجة كده ولا كده ..

- مش فاهم .. المهم ندخل في الموضوع ..

- ابني ستاشر سنة من سنتين جوّه ومش عارفين نطلّعه ..

- دي بسيطة .. حميدو قال لك عن السيالة ..

- أيوه ..

- إدفع مقدم دلوقتي ..

- هوّ أنا شفت حاجة ..

- يا أستاذ .. أنا باشتغل على الضيق ومع الناس

المضمونين .. مش عايز حد يقول نياخذ فلوس ويطلع .. لأن

ورايا ناس والموضوع حساس مش سهل ..

وراجع صبري يفتش في جيوبه حتى وجد ورقة كتب فيها

كل بيانات ابنه وناولها للرجل الذي راح يقرأها وقال بعد أن

طواها في جيبه .. يا ضنايا يا بني حرام ..

وهز الرجل رأسه وراح يفكر فبادره حميدو قائلا :

- يا عم نأنوز إتكل على الله..الناس دي في ضمانتي ومن
بكرة ها يدفعوا المقدم..

- طيب خلاص ..

.. وأدار قرص الهاتف وبدأ في حديثه وكأنه يهمل أويهتف :

- إزيك يا باشا.. يا حبيبي يا باشا.. خيرك يا باشا مغرقي..

وحياة غلاوة مراي عندك يا باشا ما انت شفتها يا باشا..دائما

تشتكي مني.. بقها لأخويا يمكن يجاويها من تعبها.. هيّ دائمة

دايخة يا باشا وأنا مش فاضي لها أنا مشغول باخدم الناس يا

باشا..حاضر هابعتها يا باشا.. ريحها.. يا ريت ترتاح معاك

يا باشا وتبعد عني..خلاص حلال عليك يا باشا.. عندي

حكاية صغيرة واد طفل بيرضع خدوه من سنتين وعازيزينه..

غالي عند أبوه وأمه واتفقت معاهم .. أجي دلوقتي.. حالا يا

باشا نص ساعة في الزمالك برضه..أيوه حافظ المكان يا باشا..

سلام يا باشا..

.. وكانت ماريانا شديدة الاشمئزاز وهمست في أذن صبري

مرات :

- ما ينفعش كده يا صبري..الراجل حاله مايل أوي.. مش

مصدقة إن ده يعمل حاجة..

- طيب اصبري خلتنا للآخر.. دعي الخلق للخالق طوولى
بالك..

وقام الرجل إلى داخل بيته وخلفه حميدو ولم تمض دقائق
حتى إنقلب حميدو إلينا مشيرا بيده أن تتبعه.. ولما كنا نترل
الدرج قال صبري لحميدو :

- هوّ الراجل ده عامل كده ليه.. اسمه إيه ومنين..

- مالناش دعوة يا عم صبري سره مع ربّه إحنا لينا
مصلحتنا ..

- هوّ هوّ ..

- ما لناش دعوة هوّ فيه كل العير.. يا عم صبري ما فيش
راجل صالح في بلدنا يقدر يحل مشكلتك لازم يكون راجل
وسخ.. هيّ ماشيه كده.. الناس الشريفة ماتت..

- والله مانا عارف حاجة ولا إحنا من أي نوع ..

- طيب اركبو يابا صبري على ما اشترى سجاير ويزتل..

- على فكرة هو اسمه إيه.

- نأنوز التقييل ..

وركبنا السيارة وكانت ماريانا منفعة ولو قلت لها دعينا
من هذا الموضوع لأسرعت بالعربة منطلقة إلى بيتنا.. وراحت
تقول بعصبية.. لايمكن الأشكال دي تعمل حاجة.. لا

يمكن.. وكان صبري يهدئها رغم أنه يعتقد هذا الاعتقاد لكنه
كان يريد أن يصل إلى نهاية المشوار فقد يأتي الأمل من حرم
إبرة..

.. مرّت دقائق فيها شعرت وماريانا بالانقباض وأنا قد
نكون دخلنا في دائرة من دوائر النصب وقطع علينا تيهنا قدوم
الرجلان ففتحت لهما باب السيارة الخلفي..

وانطلقت العربة إلى حي الزمالك حيث يعمل اللواء
س.ع.أ في بيت صغير لإدارة من إدارات الداخلية.. وتذكرت
كيف كان حي الزمالك جميلا عندما كنت أتمشي في شوارعه
الهادئة أثناء دراستي في كلية التجارة بشارع أبو الفدا.. ولم أكن
أتصور في يوم أنني سوف أذهب إلى هذا الحي لطلب النجدة
مقهورا في ليلة مثل هذه يقبض على قلبي فيها كالموت رجل
مثل نأنوز الثقيل.. ولكن من أجبرك على المر.. في ليلة ظلماء
أخذوا إبني من بيتي ومن أحضاني.. وفي ليلة ظلماء أخرى انحنى
لسكة مليئة بالشوك يتلقفاني منها حميدو ونأنوز.. الذين خطفوا
ابني أمام عيني عسكر من الداخلية. كان أكبرهم برتبة رائد وهذه
ليلتي فيها أذهب إلى لواء من نفيس الكتبية ليأتي لي بابني.. في
الأولى مضروب على رأسي وسقطت بقية من كرامة كانت في
داخلي وفي المرة الثانية أذفح الآلاف ليخرج ولدي.. في الأولى
خاسر ومقهور وفي الثانية مغضوب ومجبور.. من أخذ ابني إلى
الظلام الذي صنعوه له هم من بلادي.. وحميدو ونأنوز من
بلادي.. واللواء من بلادي.. وجسر السويس حي من القاهرة

فيه ارتكبت الجريمة وفي حي الزمالك أبحث عن جل لفك ألغاز
الجريمة وكلها أحياء من بلادي.. فهل هذه حقا بلادي.. هل
هؤلاء هم الناس.. وهل هذه هي الأحياء.. وهل حقا هذه
أعمال العسكر.. وهل أحوال بلادي تسرُّ الحبيب وتحزن
العدو؟

جلسنا في غرفة صغيرة بجوار غرفة الباشا أدخلنا فيها
العسكري وكانت ماريانا تجلس في مركبتها لأنها لم تستطع أن
تتحمل هذين الرجلين أو أي أحداث أخرى، وبعد دقائق من
انتظار ثلاثتنا الدخول إلى مكتب اللواء.. قدّم لنا العسكري
شايًا بناءً على أوامر الباشا.. ودخلنا بعد الشاي.. يرتدي
ملابس مدنية أنيقة وكان ينشغل بالحديث في الهاتف بعدها قام
إلينا وصافحنا في حرارة ثم عاد إلى مكتبه وقال وهو يشخص
إلى صبري :

- البية صاحب الموضوع..

هزّ صبري رأسه وقال في أدب :

- نعم يا سيدي..

وهرول نأنوز إلى مكتبه وناوله الورقة التي بها كل البيانات
عن المعتقل وراح يدقق فيها ثم قال في تروّ :

- موضوع أصله خايب.. طيب حاضر..

وأدار قرص الهاتف وراح يتحدث بصوت خفيض بعدها
وضع الساعة ورجع بمقعده قليلا إلى الخلف وهو يمسك بدرج
مكتبه وقال:

- إنتو جيتو متأخرين.. الساعة اتناشر همّ مشيوا.. كلهم
مشيوا..

فقال صبري بعصية :

- وبعدين ..

- تعالى بكرة الصييح.. تعال لوحدك.. عالساعة حداشر ..

- أكيد ..

- أكيد ها نشوف الموضوع ..

وضحك نأنوز بصوت عال وقال وهو يتمايل يمّنة ويسرة :

- مش هاقدر آجي يا باشا..

ضحك اللواء وقال :

- علشان إنت كول بتنام للساعة ثلاثة عارف إنك بايظ

وعايز.. إنت عارف عايز إيه..

- عارف والله يا باشا.. وراح يسخسخ من الضحك..:

وبادره اللواء :

- البية عرف كل حاجة.. وحك إصبعيه ببعضهما ..

- عرف يا بيه..

- خلاص بكره ميعادنا..

وقاموا الثلاثة وتصافحوا مع اللواء وانصرفا كل من صبري
وحميدو الورك وتركنا نأنوز مع اللواء..

كانت ماريانا تشعر بالبرد ربما.. شدت شالا على كتفيها
ضمت ساقها إلى بعضها.. أهو خليط من الجزع وصقيع
الشارع وراحت تتفوقع في المقعد الأمامي للعربة بعد أن قفلت
الزجاج وبدأت أسنانها تصطك.. تحسست جسدها بعصبية
وشعرت بالخوف وأخذها القلق على صبري وهو مع الرجلين
وهزت رأسها كأنها انتوت شيئا وأرسلت تنهيدة من أعماقها
بينما كان المطر قد بدأ يهطل بغزارة فراحت تبكي وتتنحب ولم
تهدأ.. وفجأة فتح صبري باب السيارة وزرع نفسه بجانبها دون
أن ينبس بكلمة.. كان يبدو عبوسا من غرابة تلك الليلة التي
كان فيها يتصور أنه يذهب إلى رجال محترمين ليخلصوا ابنه..
ولكن كيف والناس بهذه اللامعقولية أن يوصلوه إلى شيء..
كانت نفسه تهتز وماريانا ترقبه فبادرته بعد أن تأكدت أنه لا
يقدر على أي كلام :

- ما الذي تنتظره ؟
- هما بالداخل.. نأنوز تركناه مع اللواء وحميدو ينتظر في الطابق الأرضي..
- ولماذا تنتظرهما ؟
- الموضوع ..
- يبدو أنني ولأول مرة ألاحظ عيبا جسيما قد بدأ يعتريك وهو أنك تحب أن تجري وراء الوهم..
- إنه الأمل يا مارينا.. ابتدأت طريقا وعلني أن أصل إلى نهايته..
- أي نهاية وأي طريق.. أرجوك أريد أن أنطلق من هنا ..
- ونترك الموضوع ونتركهما.. ماذا سيقولان عنا..
- سكة هذان الرجلان سوداء وهذا اللواء الذي قابلتوه الليلة سكة مغممة أرجوك علينا أن نهرب من كل هذا..
- أتشعرين بالخوف..
- إنني أشعر بأن هناك مصيبة ستزل بنا إذا سرنا في هذا الطريق ..
- إذا عليك أن تسرعي قبل أن يخرجنا إلينا..

وانطلقت ماريانا بالعربة بسرعة نحو كوبرى أبو العلا ومنه إلى الكوبرى الموصل إلى معروف مارة بمبنى التلفزيون وهيلتون رمسيس..

.. وفي هذه الليلة لم ير أي منهما النوم حتى بزغ نور الصباح وكانت ماريانا تطفح حزنا على ما يجري في العاصمة غير مصدقة أن في القاهرة كثير من الأوباش.. وأن فئات متعددة من أهل المدينة وشرائح كبيرة من الناس قد انخرطت في أعمال السمسرة والدلالة والنصب وأن شرائح أخرى قد اندلعت تعمل في كل الأوقات في أعمال الدعارة.. وأرجأت أسباب ذلك هي وصيري إلى الانهيار الاقتصادي في مجتمع في الأصل فقير لم يكن في حاجة إلى أي فساد.. وأن السرقة واللصوصية والمتاجرة في أقوات الناس دمرت المجتمع وجعلته كالثوب المثقوب الذي لا ينفع معه ترقيع وأن هذه الأعمال افقرت المجتمع وزادته فقرا على فقر..

.. ولم يكن إختيارنا عندما نواجه صداما واقعيا في هذا المجتمع فإننا كنا نلجأ إلى تسييس ذلك الموقف، وكان كلامنا في السياسة معادا ومكررا لأن كل بيوت المدينة تعرفه وتتكلم فيه والطفل في بلادي يتكلم في المعيشة والغلاء والحياة حتى الكلاب والحمير في بلادي يبدو أنهما تخزن الكثير في السياسة ولكنها لا تستطيع أن تتكلم..

.. وبدأت خرسانة البناء تعلو حتى وصلت إلى عشرة طوابق ثم بدأت بعد ذلك عملية بناء الطوب بين العواميد والحيطان.. وكانت المشكلة عند صبري أنه يلجأ إلى السياسية وهكذا كانت ماريانا وذلك في الأوضاع المزرية التي يجدها في كل مكان.. وكانت ماريانا تبحث عن مخرج وتقول لنفسها دائما لماذا لا نعوض في داخل المجتمع.. لماذا لا ننصهر كطوبة في بناء.. لماذا لا نعيش كما يعيش الناس ولنسكت عن الكلام ونعيش والسلام.. لماذا يهمنا أحوال الناس ولماذا نفكر ولماذا نتفلسف؟ وفي يوم عندما وصلت إلى ذروة أنها يجب أن تفكر في نفسها فقط.. قالت لصبري وهي تمتد بجواره في الفراش :

- عشت سنين مع زوجي السابق اعتقدت فيها أنني عاقر وهناك حكايات كثيرة تقول أن المرأة لها نصيب أن تنجب من رجل معين ولا تنجب من آخر وهذا يحدث كثيرا في المجتمع..

.. وسكتت فابتسم وقال لها :

- وماذا بعد..

- إنني يا حبيبي لأنني أحبك فكرت في هذا الموضوع كثيرا وإنني أريد أن أنجب طفلا منك ..

- أنا لا أمانع.. لو كنت فقيرا لقلت لك لا .. إن الرجل عندما يدخل مرحلة بعد الخمسين من العمر فإن الطفل عندما يأتي في هذه السن يكون ابن يتيم.. ولكن.. وسكت..

فقالت :

- أكمل ولكن ماذا؟

- أبجتي عن نفسك إننا متزوجان منذ وقت ولم تحملى..

- سوف أسأل أمي عن طيب شاطر..

- وهل عرضت عليها هذا الأمر..

- نعم ومنذ وقت وقالت أنها أمنية عمرها..

- إيجتي عن طيب..

وفي اليوم التالي عرض عليها صبري أن يذهبها إلى الإسكندرية حيث قريب له من أشهر أطباء الجلدية والتناسلية في المدينة.. ربما.. لا أحد يعرف ما الذي يجتبه القدر..

.. وبعد أيام قليلة حملوا الثلاثة حقائبهم إلى محطة قطار رمسيس مفضلين السفر بالتوريني.. وأقاموا في أحد فنادق البحر.. وفي مساء يوم ذهبوا إلى حسن أمين اللبيب المشهور بعلاج العقم وهناك رحّب بهم كثيرا وحيا قرابته مع صبري وراح يحلف بالأيام الجميلة التي قضاها في قريته وهو صغير..

قضينا أياما جميلة في الإسكندرية وبعد أكثر من أسبوع
عدنا إلى القاهرة وأهم ما تحمله معنا الدواء الذي قرره الطبيب
والذي يجب أن نكرره عدة مرات بعدها نعود لاستشارته..

.. ومرّ شهران على تعاطيها العلاج ولما فات شهر آخر
كان الله قد أراد أن تحمل حملها الأول والذي كان وقعه عليها
وعلى أمها أكبر سعادة حدثت لهما في حياتهما.. ولما مضت
أيام وأسابيع أخرى تأكدا فيها من الحمل انتوت السيدة الكبيرة
أن تبدأ بأعمال الخير ووهبت عشرين ألف جنيهه للفقراء
والسائلين والمحتاجين وراحت السيدة بنفسها تدخل كل بيت
من هؤلاء لتعطي الصدقة في يد محتاجها وذهبت إلى مسجد
الحى وتبرعت بألاف أخرى لليتامى والمساكين وإلى الكنيسة
الكبيرة وتبرعت بمبلغ قدر المبلغ التي تبرعت به للمسجد..
وكانت توصي الجميع بأن يدعوا لأم إبراهيم وأن يكمل الله
حملها..

.. ومن بالغ ساعدتهما بالأيام التي تأتي وتمضي ومزيد من
سرورهما ينمو بمرور الأيام والليالي حيث يتم الله عليهما نعمة
إكمال شهور الحمل.. بلغت ماريانا شهرها الأخير وكانت
أمرها شديدة الحرص على قضائها كل أعمال المنزل وحاجياته
حتى لا تجهد ابنتها في شيء.. ولما كانت البناية الجديدة تعلقو

شاهقة بجوار البيت القلم.. كان هذا البيت العريق تكاد تحتفل
جدرانها بمحجى الولد أمنية كل امرأة.. غير أن ماريانا كانت
سعادتها تفوق سعادة الفتيات والنساء جميعا لأن ذلك الحلم جاء
تحقيقه بعد يأس وبعد حقبة من الزمن فيها تأكدت بأن هذا
نصيبتها.. وكانت تقول لصبري.. إن الله لما أراد جئت إلينا
وتزوجتك وحملت منك بعد سنين من زواجي منك لأن الأمل
كان يراودني من وقت لآخر حتى أتاني الله بالإرادة وذهبنا إلى
الطبيب وحدث الحدث الرائع واكتملت سعادتي ذروتها عندما
كشفنا على بطني ورأينا القادم ولدنا.. ماذا نريد عطاء أكثر من
هذا.. آه يا صبري من الحلم الذي تحقق.. أنت أب الحلم يا
صبري وأنا أمه ووالدتي التي كانت تقول دائما وهي تبكي..
إننا ستترك كل هذا المال وهذا البيت وهذه الأرض لمن.. ليس
لنا أحد يورث ثروتنا وتبكي وكانت تداري عنها بكائها.. إن
أمي بهذا الحدث الرائع الذي هداه الله لابنتها هي جنود كل
هذه السعادة.. بل هي الأرض التي أنبتني وهي المجتمع الذي
سوف يعيش فيه ولدنا..

.. هكذا كانت تكرر ماريانا كلامها مع صبري دائما من
فيض سعادتها.. وفي يوم كان فيه صبري شديد التعلق بذكرياته
القديمة فطلب من السيدة الكبيرة أن تقدم لهم غداء يأكله
الشعب الكادح والطالب والفقير.. إنه كان شديد التعلق
بالجنود القديمة.. طلب منها أن تكون وجبة الغداء من الفول
والطعمية والجبن القلم وطبق السلطة الحار ولا ممانع من

الجرجير والفجل.. كان يحب أصدقائه كثيرا في أوائل الستينيات عندما كان يذهب إلى مطعم أبو النور في مدينة منوف وهو طالب بالثانوية العامة في نفس المدينة.. كان يذهب مع عبدالحميد وحداد القطان ومعهم عبدالعزيز حداد من يوم لآخر إلى هذا المطعم لتناول تلك الوجبة الشهية.. ومات أعز الأصدقاء ولم تبق غير الذكريات.. غير أن عبد العزيز بقي قليلا ثم مات في أكتوبر الماضي.. وهكذا يذهب الطيبون إلى الموت ويقي الكثير من الأشقياء.. ولما كان من حين لآخر يحكي لماريانا أيامه الأولى الجميلة في مدينة منوف كانت ماريانا تغار من ذكرياته تلك وتقول :

- لا تفرط في ذكرياتك في شبابك لأنني أشعر أن تلك الذكريات تفوق حبك لي..

- أبدا إن حيي لك هو كل حياتي وغدي.. إن هذا البيت الذي نعيش فيه هو المكان الذي جدّد حياتي وبعث في أمل الحياة خاصة بعد اعتقال ابني.. إنني لا أستطيع أن أقطع مراحل حياتي الجميلة.. وأن الذكريات تاريخ وأن الله قد أنعم عليّ دون شباب القرية جميعا بالكثير وأن جميع أصدقائي ماتوا وأن كثيرا من أعدائي ما زالوا يعيشون ولكنني انتصرت عليهم جميعا ببعادي عنهم وهجرتي من قريتي التي تعج بالحقد والكراهية وضيق الأفق.. إنني ما زلت كما كنت صغيرا أكره شارع أبو سمك ولا أحب فرع أبو شاطية وأكره كلمة تحتوت وعبود وهاده ولكنني أحب الشيخ عبدالعظيم فقط من كل هؤلاء

الذين مازلت أكرههم.. ولا يستطيع أحد أن يترع ما في قلبي
من حب وما في قلبي من كره ومقت والمكان الشديد البغض
طيلة حياتي والذي كان مبعثه القلق في كل أطوارها هو قرية
صغيرة إسمها شروة حسن فيها الجهل وأناس لا يعرفون الحب..
إنني أحتنق من شروة حسن وأهلها جميعا لأن الناس فيها كانوا
يكرهوا أمي وعشت طيلة عمري يا ماريانا على قاعدة من يجب
أمي أحبه ومن يكره أمي أكرهه ولذلك كنت أميل دائما إلى
جيراني من عائلة الصاوي والقطبان لأنهم كانوا على علاقات
طيبة ونظيفة وراقية مع أمي.. قولي بالله عليك كيف لا أحكي
لك عن جذوري.. كان هذا هو الماضي أما أنت فتلك الحياة
والحب والأمل التي منّ عليّ الله بها.. إن مقدار سعادتني بكم
يساوي مقدار حزني على ولدي.. وهكذا أنزل الله بي الرحمة..
وبعد تناول الغداء من الفول والطعمية والجبن أبو قوطة وفلفل
ارتدى صبري ملابسه قاصدا أحد مقاولي البياض للاتفاق معه،
ونزل من بيته ومشى على قدميه قاصدا محطة مترو حدائق
الزيتون، وعلى ناصية محل سمك في شارع يكتظ بالبائعين وقفت
عربة للفول والتفت حولها مجموعة من الناس يأكلون الفول
والبصل بالخبز الطري.. وتوقف قليلا مقابل المطعم المتنقل حيث
لفت نظره صاحبه الذي يتوسط الجميع ويقف في الأعلى فوق
الرصيف ليغرف الفول للزبائن.. التفت إلى الشاب إنه رآه من
قبل.. واقرب قليلا منه فعرفه وتأكد أنه خالد المحاسب.. ونادى

بصوت خفيض.. خالد.. خالد.. إندفع الشاب نحو أستاذه ليحتضنه وابتعد عنه قليلا وهو يقول :

- إنت فين يا أستاذ؟

- أنا كويس.. بس إنت إيه اللي عمل فيك كده..

- دقيقة يا بيه ودخل خالد المقهي المواجه لعربته ثم إنقلب إلى صبري وفي يده شاب آخر يعمل معه ليقف مكانه حتى يستطيع أن يجلس مع الأستاذ صبري..

.. وقف نائب المعلم مكان خالد ليغرف الفول للزبائن..

وأمسك خالد صبري من ذراعه قائلا :

- تعال يا أستاذ نقعد مش ها ينفع الوقفة أنا ما صدقت

لقتك..

.. وجلسا في داخل المقهي وبدأ صبري كلامه في تودد مع

خالد :

- إيه اللي زنقك على كده ..

- من الآخر لما رجعت في صباح اليوم المشغوم إلى البيت

وأخبرت أمي بما حدث قلعت الشبشب وفوق رأسي.. ما

صدقتنيش وفكرت إن أنا ما انفعش اشتغل محاسب.. جريت

من ضرب أمي ونزلت الشارع قعدت على القهوة في الأميرية

أشرب شاي وجوزة ورحت أكلم نفسي لمدة ساعتين ..

- وبعدين ؟

- لما رَوَّحت تاني هديت أمي وحكييت لها الحكاية بالتفصيل قامت وجابت فلوس من الدولاب وحطتهم أدامي وقالت ما تشتغلش محاسب تاني ولما قلت لها ليه قالت لا عاد شركات زي الأول ولا فيه رجاله أصحاب أعمال زي زمان.. طيب أعمل إيه يأمه.. قالت هات عربية فول واعرف قصته الأول واشتغل شوية مع واحد صاحب عربية علشان تعرف المهنة تعرف تشتغل إزاي.. دول ألفين جنيه النبي معايا شيلهم ولما تعرف كل حاجة عن الشغلة وتكاليفها خد الفلوس وهات عربية واشتغل ونقي مكان كويس..

- وبعدين ..

- اشتغلت عشرة أيام بس مع واحد وبعدين اشتريت العربية والفول والقدرة والذي منه وقلت يا رزاق..

- يعني بتأخذ منها أد المحاسب..

- محاسب مين يا بيه..

- باعمل ألف ونص صافي وكل يوم بيزيد..

- كان كفاية ثانوية عامة..

- وإيش عرفني أنا أن المحاسبين مصيرهم كدة وأناحر نفسي وممكن أعمل بيت وأتجوز على الأقل فيه دلوقت استقرار وعلى فكرة يا بيه أنا أحسن من غيري كتير..

- زمايلك راحوا فين..
- إنت عارف كامل جمعة المحاسب..
- طبعا عارفه ..
- دا راجل سنه ثلاثة وتلاتين سنة متجوز لف على كل شركات مصر ما لقاش أي شغل..
- وبعدين عمل إيه..
- بقة بتاع نسوان..
- بتاع النسوان ما بيعجيش فلوس..
- لا يا بيه مش فلاقي.. الفلاقي بيدفع فلوس..
- مش فاهمك ..
- أحمد لقي نسوان كثير مش لاقية شغل وعندهم التزامات جمع شوية وهات يا تسريح..
- والحريم دا متجوز..
- على كل لون يابا..
- وبيجهم منين..
- من كل حنة تلاقي منهم كثير وكل واحد له طريقته في شغله..
- أنا عايز أروح لكامل جمعة..

- أوي يا بيه .. خد عنوانه وتليفوناته أهى ..

.. لم أذهب إلى المقاول بعد أن تركت خالد.. أي مقاول
بعد شعوري بخراب ينخر في داخلي.. تفتق الناس وتشرذوا
وبدأ كل منهم يذهب بعيدا عن طريقه.. وماذا تفيد بناية فخمة
وسط بيوت الفقراء.. ماذا يفيد برجاً شاهقاً وجوله عشش من
صفيح.. إن بيوتنا متساوية يجب أن تكون ولا بد من مدينة
جديدة تسع الجميع فيها أهلها لا يجوعون ولا يطردون من
أعمالهم.. ولا بد للناس الذي يعيشون حالة خاصة مثلى أن
يتتهوا..

.. هاتفت كامل جمعة في المحمول قبل أن أصل إليه:

- آلو كامل.. أنا صبري..

- صبري مين..

- نسيت بسرعة صبري المدير المالي..

- إزيك يا بيه معلى الدنيا واخداني..

- عايز أشوقك..

- إتفضل في أي وقت..

- أنا جايلك دلوقتي..

- أهلا هاكون سعيد تحت أمرك..

- العنوان عارفه.. ص .. شارع سراج نمره ٩ الدور الثالث
شقة ٦..

- خلاص قبل ساعة هاكون عندك..

- أنا منتظرك والمدام سهرانة معايا عايزة تشوفك..

.. كانت زوجة كامل تعرف أن صبري رجل سوبر وأن
امرأة جميلة أخذته من عياله ويعيش معها في بيتها وأنه رجل لا
يقاوم.. فإذا رآته امرأة تمت ورسمت عليه لتوقع به.. أخذت
رأي زوجها في أن توقع بالرجل القادم فأجابها لا مانع إن لديه
الكثير من المال وإذا أصبح أحد الزبائن فإن ذلك في حد ذاته
بنجاحا كبيرا.. وفي أثناء حديثهما عنه قرع الباب فأسرعت تفتح
له بفستان عار الصدر شفاف يظهر كامل جسدها ودخل في
أدب ووقف برهة بعد قفل الباب فتقدمته مهللة.. أهلا أهلا..
فعلا باشا.. الباشا جه بيتنا يا نهار أبيض.. دا كثير علينا أوي..
تردد في أن يتبعها وتلغثم وتوقف لحظة في الصلاة.. كانت قد
فتحت باب غرفة الصالون الضيقة وفي هذه اللحظة كان عبق
العطر يفوح من تلك الغرفة كأن قنينة منه قد سالت في
أرجائها.. وعملت كأنها تندهش.. ياه إنت مالك يا بيه.. هو
حضرتك رقيق أوي كده مش داخل ورايا على طول أد كده
إنت راجل متربي.. كان صبري يبتسم وليس له من كلمات
يرد بها غير.. أبدا.. مرسى أوي.. أبدا مرسى.. وأشارت إليه
أن يقعد وقبل أن يجلس صافحته في حرارة ولوت كف يده في

كفها.. وبسرعة أدخلته إلى شقتها.. وتركته وهو شبه منذهل
وعلى باب إذا دقته رياح خفيفة انفتح وتخور قواه.. وجاءته
السيدة المثيرة وجلست قبالة مبتهجة منفعة مشاركة فلاحقتها
قائلا :

- جميلة رائعة من أين أتى بك كامل؟

- من قرية في بنها..

- ليست الجرأة شيمة أهل القرى.. وهل في بنها مثيلا

لك..

- كنت من القرية ولكن من أهلها المتفرنجين فلما كنت في
تعليمي الثانوي بمدينة بنها كنت أهوى السير في شوارعها
خاصة شارع الكورنيش وكان كثير من الشباب والرجال
يعاكسوني وسعدت لذلك كثيرا وصاحبت بعضهم وعرفت
قصصهم وكانت هذه صفحة فيها كثير من الأسرار لا يعرفها
أحد..

- حتى كامل لا يعرفها..

- كامل من قريننا.. وعندما رأني كنت أتمشى في سوق
الخضار بما فتعني حتى البيت وعرف من أبي وأمي.. ولم يعرف
عني شيء عندما كنت ألهو في مرحلة الثانوي وبعدها عندما
سافرت إلى القاهرة لأتلقى تعليمي الجامعي كنت أذهب وأعود
بالقطار وكانت لي تجاربي العميقة مع الكثيرين..

- المهم هذه عادة أهل القرى.. إذا تزوج من قرينته فهو يأخذ فتاة سليمة لم تعرف من تجارب الحياة شيء ويظل الشاب يقول.. إنها من قرينتي.. أخذتها من بيت أبيها.. هي صاغ سليم.

- عندما تزوجته لم يكن الرجل الوحيد أو الرجل الأول الذي أخلع أمامه ملابسي.. ولكنه هو كعادة أهل الريف الذين يعتقدون دائما أو يجبوا أن يعتقدوا.. أن الفتاة من قرينتهم.. غلبانة.. ساذجة.. خجولة تخجل من أن تلقي على رجل التحية..

ودخل زوجها كامل يحمل الصينية بالبارد وفي كل برود قال وهو يضع البارد على المنضدة :

- بارد الأول.. إزيك يا أستاذنا واندفع نحوه وقبّله..

وكانت سامية قد وضعت ساقا على الأخرى غير مبالية بزوجها.. وكان فقط ينظر إليها ويتسم في برود وكأنه يقول لها.. المزيد.. تعرّي أكثر.. فلوسه كثير أوي.. هايقه زبون جوّه سُقع..

.. قرأت ذلك من عينيه وكان يهز رأسه لها بمزيد من العري والدلع.. ولم يكن هناك وقت لأن يندهش صبري أويذهل وإذا عبّر عن ذلك فإنهما سيقابلانه باستهزاء.. الجو كله

على عينك يا تاجر.. هوّ مين صبرى أو أحسن منه مليون مرّة
لما كنا في يوم وأيام كثيرة مش لاقين اللقمة..

.. وراح صبرى يعتقد أنه قد وقع في مؤامرة خُطط لها..
ولكن كيف خُطط له في ساعة واحدة.. أم أن تلك هي مؤامرة
مستمرة الفصول معي ومع غيري.. وكان عليه أن يتبين وأن
يسأل ليضع أصابعه على الحقيقة فقال لكامل :

- إنت بتشغل فين دلوقتي..

- اشتغل بره وجوه..

- مش فاهم..

.. وتدخلت سامية في توضيح طبيعة العمل قائلة وهي
تفصل ساقها عن بعضهما كأن شيئاً من الجذ قد حلّ بها
فجأة :

- أنا كنت باشتغل سكرتيرة في شركات القطاع الخاص..
وأنت عارف كل صاحب عمل في القطاع الخاص له طريقته
مع السكرتيرة بالذات.. كنت لسه عندي شوية خجل وبرقع
الحياء كان لسه موجود.. قعدت سنة واتنين وخمسة و.. أنتقل
من شركة لشركة علشان أهرب من مطاردة أصحاب
الأعمال.. وهوّ المرتب باخده في الأخر بالدم والدموع..
وجوزي الغلبان زي أي راجل في البلد عايز يعيش ويستقر لكن

منين ييجي الاستقرار من أصحاب أعمال منتهى السفالة..
برضه راح ينتقل من شركة لشركة.. فيه محاسب مايكملش
سنة في شركة.. كام شركة و كام طرد و كام بهدلة..
وسكتت..

فقال صبرى وكأنه يهمس :

- وبعدين.. عايشين إزاي دلوقتي..

- من الهوى..

- من الهواء..

- لأ مش من الهواء اللّبي في الجو.. من الهوى هواي.. يعني
بالله عليك سنين طويلة وأيام سودة في البلد دي.. واحد يطردك
وواحد يطارذك وواحد بيضربك من فوق وتاني بيضربك من
تحت.. يعني بقينا ملطشة.. تفتكر كامل يروح البلد يقول لأبوه
هات فلوس علشان أعيش ولا أنا أروح لأبويا وقوله عايزة
فلوس علشان كامل مش قادر يعيشني.. تفتكر حد يعمل كده
ولو حد عمل كده أبوه هايهزأه.. ثم أحنا في مصر مفيش أب
يقدر يصرف على ابنه بعد ما يتجوّز وبعدين كل البيوت
بتعلم أولادها بالعافية بعدها بيلفظوا النفس الأخير.. المفروض
بعد كده عمل شريف فيه استقرار.. عمل محترم يكفي الحياة
الكريمة.. لكن لما خلصنا طلعتنا لقينا واقع مؤلم بيتحكم فيه
الوحوش والمنحطين.. طيب قوللي أنا وغيري نروح فين ولمين

لما البلد غابة ما فيهاش فرع أخضر للغلابة.. جامعات أد إيه
ومعاهد خاصة أد إيه وعشرات الآلاف من الشباب بيتخرج
ضحك على الدقون فين الحياة تعرف تقولللي فيه حاجة
واحدة متوفرة في البلد عشان الناس تشتغل أو تعيش أو تستقر أو
تبدأ حياتها.. مافيش أي حاجة.. كله مدمر.. طيب نروح فين..
طيب نعمل إيه.. أيام كثيرة وشهور لدرجة إننا وصلنا للهاوية..
قلنا للهاوية سلام عليكم.. ردت علينا السلام والله الهاوية هيّ
الحاجة الوحيدة في البلد اللسي عبرتنا.. قلنا لها الله يرضى
عليك عايزين نشتغل قالت يا مرحبة ما صدقناش.. قالت مش
مصدقين أهلا بكم.. وكان الهوى هواي.. أصل الهوا هواي
الوليد الوحيد للهاوية..

- يا هوي على كلامك دا إنت وصلتينا إلى الهاوية واحنا
لسة قاعدين.. لأ.. بس الموضوع مش بالخطورة دي..

- طبعا واحد زيك كنت بتاخذ أكثر من خمس تلاف جنيه
مش ها تحس بكل الكلام ده.. وعلى ما أسمع وراك ست عندها
أرض وبيوت.. إنت واحد في المليون..

ضحك صبري وقال :

- هدّي هدّي .. ياست دا أنا راجل اشتراكي..

- يعني إيه اشتراكي..

- يعني راجل مكافح أنصر الفقراء والمظلومين..

- إنت مكافح.. يا أستاذ صبرى معلش هوّ فيه حد مكافح
بيني عمارة إحنا عارفين عنك كل حاجة إنت راجل محظوظ..
وبعدين هوّ المكافح مكافح بالشعارات والكلام شبعبنا من
الكلام ده.. طول عمرنا وسمعناه من ناس فوق أوي.. كانوا
بيقولوا الكلام ده للناس علشان يخدعوهم ومن ناحية تانية
عمّالين يسرقوا في البلد لما خلصت..

- دا انت تايرة أوي ..

- كل واحدة بتقلع هدومها علشان القلوس بتقول كلام
زي الدواء.. عايز تعالج المجتمع بصحيح روح شوف المومس
المحترفة بقت مومس ليه.. شوف الناس انحرفت ليه ومن إيه
ومين كان السبب والانحراف مش في النسوان بس.. شوف
السرقه.. شوف النصب.. شوف القتل.. شوف الناس في بيوتها
كويس.. دالست لما تبقة مومس أحسن من السارق والنصاب
والقاتل.. دا الست لما تقلع هدومها في الشهر مرّة لراجل
علشان تأخذ منه قرشين تكمل الشهر وعلشان ولادها ما
يجوعوش هي أكثر حظا وكرامة عن الراجل اللي مش لاقى
شغل أو مراته بتضربه بالشيشب كل يوم علشان يجيب لها
حاجات البيت.. لأن الراجل الشريف أوي ده اللي لاحس
الكوتة لو كان عنده زي الست كان عملها.. كلم الراجل ده

المسكين السي ماغدوش أي حاجة يجيب منها قرش لو قلع
هدومه ميت مرة الناس هاتف عليه..

- يا لهوي ويا لهوي لغاية الصبح..

- يا أستاذ صبري إنت مش من الناس وراك حيطه كبيرة
أوي ساندك..

- والله أنا عندي مصيبة مش عند حد..

- إيه هي المصيبة..

- مالكيش دعوة بيها لأنك مش ها تقدري تحليها..

- كيفك يا أستاذ صبري.. عايز متي إيه تاني..

- عايز أعرف إنتو بتعملوا إيه بالضبط..

- إنت لسه مش عارف..

- لأ.. قولي.. فسري..

- علشان إنت راجل فري هاقول:.. الحكاية من البداية

أحمد بالصدفة إتعرّف على واحدة منتقبة معاها ليسانس حقوق

سنها ثلاثة وتلاتين سنة مطلقة بعدما تجاوزت واحد شيخ عقدها

من حياتها.. بعد الطلاق اشتغلت شوية في شركات برضه أبو

الرمّاح ربع وراها..

- يعني إيه أبو الرّمّاح ربع..

- إحنا نهايات المجتمع..

- إزاي ..

- يعني إحنا الضحايا..

- مش فاهم..

- يعني القتل اتقتل خلاص..

- والحل إيه..

- الأبواب انفتحت للناس كلها.. إحنا كنا من سنين فاتت

بنقول فوضى.. إحنا دلوقتي فوق الفوضى يعني ما فيش اسم

تاني يفوق الفوضى لقد اجتزنا جميعا مرحلة الفوضى.. نحن

نعيش الآن ما بعد الفوضى..

- نسميها غيوبة..

- يا ريت.. الناس ماتت خلاص.. لو كنا في غيوبة الناس

هاتيجي في يوم وتصحي منها.. لكن دلوقتي والله الناس ماتت..

- والحل .

- لازم من ناس تانية تبدأ من جديد..

- يعني مش ها ترجع يا كامل..

- إسمع هارجع فين ولين وعشان إيه.. هو الميت بيرجع..

يا أستاذ صبري أنا ميت ومت خلاص.. أحسن حاجة تعملها

- تترحم علي..

نزل إلى الشارع شاردا يحدّق في الناس ويكاد يلفظهم وكأن
كل منهم عاد يعمل في بيته كما يعمل كامل جمعة.. عيناه
شاخصتان وكأنه في داخل نفسه لا يجد شخصا طاهرا طالما أن
الناس أصبحوا فقراء فإن هذه هي الخطوة التالية لأعمالهم..
وكان جسدها الفاتن الذي انشق عنه فستانها قد ترك أثرا جامحا
ولو قليلا في داخل نفسه.. يا لجسد المرأة عندما يكون صارخا
وتعريه لرجل فإن كل النداءات تصرخ في داخله.. وعينها
الفاجرة تسرق من أي رجل ثباته فتسرى في العلاقات الإنسانية
لغة الجسد فينقلب المجتمع واحدة بعد الأخرى إلى مجتمع حيواني
وماذا تفعل النساء إذا كانت لغة العلاقات الإنسانية والمباديء
والقيم لم تنفع ورفضها الجميع، وكان على النساء أن تقلب
الوجه الآخر وعليها أن تقضي حاجياتها بالجسد.. إن المال في
بلاد يتعجرف فيها أصحابه ويجهلون كل معاني النبل والأصول
والحقوق يتحول فيها المجتمع إلى سوق الجسد كي تعيش الأسر
التي تحتاج إلى العمل.. وعاد إلى ماريا وفي رأسه هذا الصوت
كأن إصبارا سقط فوقه فراح يصرخ حتى وصل إلى البيت
ودرجة حرارته تعلو وجسده يرتعش، ارتقى في الفراش وهلعت
إليه ماريا وأمها تغطياته بغطاء ثقيل وراحت كل منهما تعمل له
شيئا يهدئ من حرارته.. ولم ينفع الشاي والليمون أو حبوب
تخفيض الحرارة أو الكمادات بالثلج فهاتفت ماريانا الطيب

الذي وصلهم بعد نيف ساعة وأجرى الكشف بدقة على رأسه
وصدره وكامل جسده.. ولما انصرف الطبيب كانت ماريانا
تنصرف هي الأخرى لأقرب صيدلية لتحضر الدواء لحبيبتها..
ولما تناول من يدها الحنون جرعات من العلاج مرّ بعض الوقت
وهو يرتعش بعدها توقف الجسد عن الرجفة وبدأ يستقر
وغمضت عيناه و(اندلش) بعدها في نوم عميق يصحبه عرق
غزير.. وراحت السيدة الكبيرة تدعو لشفائه ونامت ماريانا
بجواره حتى بزغ نور صباح اليوم التالي.. واستطاعت ماريانا أن
تناوله رغيّف من الفينو محشوا بالجن وتفاحة ثم كوبا من عصير
الليمون.. وثقلت رأسه ونام ثانية وهو يمسك بكف يدها
ويقبله حتى أقبل الظهر وتقلب في فراشه كثيرا وهو يغط في
نومه وراح يهذي بكلمات..

- لأ يا كامل إرجع امك ها تضربك بالشمارعيب يا كامل
مش هي دي عادتنا..

- هات عربية فول واعمل زي خالد..

- عيب يا كامل تهون مراتك عليك ..

- هوّ فين دينك يا كامل.. كل جينة وفجل وبلاش الجاتوه
اللي جاي من (السوخة)..

- بلاش يا كامل عيش زي ولاد البلد.. خليك غلبان..

الغلب (بالشرف) حلو أوّني يا كامل جرّبه.. بلاش مراتك

تتعري كده يا كامل أدام الناس.. بلاش يا كامل.. الحجة دي
جبتها منين بقه الحلاوة دي كلها من بنها.. داريتها يا كامل..
أرجوك بلاش فتنة مراتك يا كامل بالشكل اللي شفته لأنها
بكده ها توقع أجدع راجل.. بلاش يا كامل.. إتق الفتنة بنا
كامل سامعني هاتروحوا في داهية وتودوا الناس معاكم..

وراحت كل من ماريانا وأمها تضحكان حتى سمعتا بلاش
فتنة مراتك.. وشافها كمان يا نهار أسود يا صبري سكتت كل
منهما وانصرفت الأم إلى الداخل.. وكانت تريد أن توقظه
بعنف ليخضع لتحقيقها كيف رأى فتنة امرأة أخرى.. أين
ذهب ومن هو كامل وزوجته وماذا كان يعمل.. نهارك إسود
معايا يا صبري.. وراحت تأكل في نفسها وهي تساعد أمها
في أعمال المنزل وما كان من السيدة الكبيرة غير أن كانت
تهدأها وإنه في أضغاث أحلام وإنما الحمي يا ابنتي تجعل المريض
يهذي.. اهذي يا ماريانا حتى يتعافى لا تظلميه.. لا تظلميه..

.. وفي تلك الليلة جرجر كل ما يعانیه في الفترة الماضية
وكانت ماريانا حريصة على سماع كل كلمة يهذي بها لكنه لم
يكرر كلماته عن فتنة زوجة كامل وارتاحت قليلا لذلك كأنه
شيء عابر زحف على لسانه وتمنت ألا يكون فيه شيء من
الحقيقة ولا توجد امرأة في الأصل ومرّ يومان فيها عفي صبري

ولما أفاق وزأته بكامل تصرفاته العادية وخلا منه ضعف
المرض.. تناول ثلاثتهم طعام الغداء وبعده انصرفت السيدة
الكبيرة لتنام وجلست ماريا مع صبري يحتميان الشاي قرب
الشرفة وقالت متظاهرة بالهدوء :

- لقد كنت تتكلم كالاما غريبا..

- متى ..

- وأنت في شدة مرضك..

- كلام غريب ..

- نعم كنت تكلم رجلا يُدعي كامل وامرأة..

- كامل وامرأة.. أه دعيني أتذكر.. سكت برهة وتابع :

- كامل هذا كان محاسبا قديما معنا في سنتر الخواجة..

- من هي زوجته.. كنت تقول.. عيب يا كامل تهون

عليك مراتك.. بلاش مراتك تتعري يا كامل.. بلاش فتنة

بالشكل اللي شفته.. ها تروحوا في داهية وتودّو الناس

معاكم.. كل هذا وأمي سمعت معي وكنا نضحك..

- عندما تركت المتزل في هذا اليوم رأيت العجب.. خالد

المحاسب يبيع الفول وكامل يبيع زوجته وفتح بيته كرخانة..

وراحت تسمعه..

وحكى لها كل شيء وتركت كل ما في الحكايات من مأس

إنسانية وانهميار في مجتمع تعرض فيه مجموعة من العاملين لفصل

تعسفي فذهب كل منهم إلى نهاية أمره وأمنسكت في إمرأته
الفاطنة وكيف يجلس معها ويتفرّج علي جسدها وأنه ما كان
ينبغي له أن يذهب من الأساس.. وانفعلت وزاحت تبكي..
وانتوى صبري بعد ذلك أن لا يحكي لها عن المآسي خاصة مع
النساء.. وختمت بكائها الطويل على هذا الموقف وكأهبا
توقظه:

- عندي كل شيء.. وكل شيء نملكه ملك لك.. وابني
القادم هو إبنك.. فكيف تتوه.. ولماذا تذهب مع الآخرين في
حياتهم، وما لنا نحن بخالد أو كامل أو زيد.. علينا أنفسنا..
وأنت في الطريق إلى أي رجل سوف تجد امرأة.. ابعده عن كل
النساء أرجوك وعن حديثهم وعن مآسيهم.. إنك لم تأت لتعالج
مشاكل الناس.. وإنما لن نستفيد شيئا من معالجة أو سماع أو
ذهابنا إلى بيوتهم إننا في نهاية الأمر لن نثنيهم فيما اتخذوه من
طريق.. هذه سامية داعرة ولو لم يكن عندها الاستعداد لأن
تدخل هذا الطريق لدخلت كأبي امرأة سوية في طرق أخرى
شريفة وكثير من النساء في المجتمع يتعرضن لأكثر من هذا ومع
ذلك يدخلن في أعمال كثيرة قد صنعها هذا المجتمع بعيدا عن
هذا الخطر الذي دخلت فيه هذه السافلة.. وهذا زوجها إنه
ليس برجل حتى يرضى لزوجته وبيته هذا الدنس.. وسكتت
لتسمعه فقال وهو يهز رأسه :

- كل ما قلتيه سليم وما كان يجب وما كان يجب.. هذا
كله صحيح.. ولكن أنت تأتي للضعفاء الذين لا يملكون شيئا.

وتقولين لهم ما كان يجب.. إنه يجب علينا أن نذهب لمن يملكون المال ونقول لهم ما كان يجب أن تطردوا الناس من أعمالهم بدون وجه حق وما كان يجب أن تربعوا وتطاردوا النساء والفتيات اللاتي يعملن في مصانعكم وشركاتكم وتساوموهن بالعمل مقابل التنازل عن الشرف.. ما كان يجب تقال للقوى قبل الضعيف..

- وإذا كان القوي لا يسمع وليس في رأسه إلا الطغيان والجبروت.. فإذا قلت لأي صاحب عمل المفروض أن يكون كذا وكذا.. يقول لك في كبرياء.. المفروض ده أنا اللي أقوله مش إنت.. ولا يسمع ولا يطيع ويزداد في فرماناته ضد العاملين عنده سوءاً يوماً بعد الآخر..

- إذا نحن لا نملك إلا الجانب الضعيف..

- وعليه فأنت بدلا من أن تذهب إلى مقاول البياض- ذهبت إلى خالد وإلى كامل وإلى زوجته ..

- ألم تقولي في يوم إن دورنا يجب أن ينصب على تشغيل الفقراء والمطرودين من أعمالهم وحماية كل صاحب مهنة أو حرفة في هذا المجتمع.. هذه البناية التي إنتصبت شاهقة أليس فيها ستكون شركتك وأعمالك إلى من تذهبين ليكونوا عمالا وموظفين.. أكيد ستذهبي إلى كل من فصل فصلا تعسفا وسوف تتجولين في كل مكان لتأتين بكل صاحب مهنة أو حرفة ليكون له عمل.. أليست هذه مبادئك واتفقت معك عليها..

- صحيح صحيح.. وراحت تضرب ذقنها بقبضة يدها..
ولكن

- ولكن.. سوف أجيئك أنا يا حبيبي..

..وقام إليها واحتضنها وراح يقبل يدها وجبينها ويقول :

- سوف أكمل البحث عن كل الذين تفرقوا وتدمروا
نتيجة الأعمال والتصرفات المشينة لأصحاب الأعمال سوف
أبذل قصارى جهدي للم شمل مجتمعي قدر ما استطعت ولن
يمكنني مساعدة هؤلاء الناس إلا إذا عرفتهم واقتربت منهم
ووعيت بمشاكلهم.. سوف أفعل كل هذا برضاك ولكن ليس
لي شأن بأي امرأة وإذا وجدت في طريقي امرأة عارية الساقين
فسوف أفر من أمامها وأجرى من أجل خاطرك.. وفي كل
الأحوال بقي أنني وفي وأمين معك.. قولي يا ماريانا.. هل هناك
امرأة أجمل منك في المدينة حتى أنظر إلى أي امرأة فيها.. إهن
جميعا وضيعات عند الملكة ماريانا..

.. وضعت رأسها بين كفيه وشدته إليها وقالت وكأنها تعيد

إلى نفسها الاطمئنان :

- صحيح يا صبري.. أنا كل حاجة..

- والله كل حاجة.. أنا لماريانا الملكة وبس..

وحملها إلى الفراش وهو يقهقه وشدته إليها في رقة بالغة

وقالت :

- لا تتركني اليوم أنا في حاجة ماسة إليك.. لا تتركني أبدا
واحتضنت بكفيها كتفيه وألقت برأسها فوق صدره..

.. وكان عليه أن يذهب إلى أحد مقاولي البياض ليتفق معه
بعد أن جاءه المقاول في يوم وتحوّل في البناء ليرى الواقع وكان
يصحبه رجلان يقومان بعمل القياسات لتجميع مساحة العمارة
بأكملها.. أنفق قرابة اليوم حتى تم الاتفاق على كل شيء على
أن يبدأ المقاول عمله قبل مضي أسبوع .. استراح في بيت
ماريانا حتى بلغ الوقت آذان العشاء، احتسى معها الشاي ثم
صلياً معها بعدها خرج قاصداً خالد بائع الفول الذي يقف بعربته
بعد شارعين من البيت، وكانت هي تعرف أنه ذاهب إليه
ليساعده في تجميع أعداد من الناس مؤهلات وبدون وأصحاب
مهن وحرف في صناعة الملابس وذلك للإعداد لعمل مقابلات
بعد الانتهاء من المبنى وشراء الماكينات ومواد الخام اللازمة،
وكان حي الأميرية الذي يسكن فيه خالد مليء بمثل هؤلاء
الناس وكان قد اتفق مع خالد من قبل بأن يأتيه بشخص
متخصص في أعمال الإعداد والترتيبات الخاصة بإنشاء مصنع
للملابس الجاهزة، وفي هذه الليلة زوّده خالد بكشوفات فيها
أسماء للعاملين والعاملات والأسطوات الذين يعملون في خطوط

الإنتاج المختلفة وعناوينهم وهواتفهم.. ولم يثن إنشغال صبري
بهذه الأمور دون أن يسأل خالد. وهما جالسان بالمقهى عن بقية
أعمال الأولاد والبنات الذين كانوا يعملون في ستر الخواجة
وتم طردهم على دفعات بعد طرد المحاسيين وكان جواب
خالد :

- يا أستاذ صبري سوف آتيك بكل هذه الأسماء وعناوينهم
حتى يتم مساعلتها وتشغيلها في مصنعكم..

- هذا أمر مفروغ منه ولكن ما أريد أن أبلغه في سؤالى..
هل هناك أحد من الرجال والفتيات سلك سلوكيات أخرى
مثل كامل جمعة..

- هناك الكثيرين.. ولكن سوف أحكي لك عن سميرة التي
كانت تعمل رئيسة أحد أقسام البيع في الستر..

- ذكّرني بها.. هل رأيتها :

- نعم رأيتها وهي تعرفك..

- إعطني هاتفها..

- إسمع حكايتها أولاً باختصار ..

- ماذا حدث لها..

- وهي تعمل معنا في الستر كانت مخطوبة.. ظلت

مخطوبة لسنوات طويلة دون إنجاز وكانت هي وخطيبها

يكافحان معا من أجل توفير الشقة.. هذه البنت بعد طردها من ستر الخواجة انتهت خطوطها مع خطيبها في موقف مؤثر لأنه كان يعني تدمير قصة حب دامت سنين مع هذا الشاب المكافح.. هي التي أخذت القرار بعد فصلها من العمل وشعورها باليأس وأن طريق الحلال صعب وطويل وقد يحصلان على الشقة وهما في سن الأربعين.. شوف يا أستاذ صبري حكايتها طويلة من الأفضل إذهب إليها أنت.. إسمع منها أنت ربما تساعدها خذ هاتفها المحمول..

.. عاد إلى بيته هذه الليلة وهو يحمل في رأسه كثيرا من الأفكار والهموم.. كان يشعر برجفة أخرى تنتابه.. حاول أن يظهر أمام ماريانا بالقوة وأن ينسى تلك الرجفة وذلك التوتر الذي يخلق به جراء كل حكاية.. حكى لزوجته كل شيء وأطلعها على الكشوف التي أخذها من خالد وأنه سوف يأتيه بكشوف أخرى، وفي صباح اليوم التالي نزل من بيته قاصدا مقهي قرب جسر السويس ليجلس منفردا بنفسه ليحدثها.. ولما راح يحتسي الشاي ويزفر أنفاس الشيشة بدأت أفكاره تترتب في داخله ضرب رقم سميرة لتكون أول الحكاية :

- ألوا ..

- مين معايا ؟

- أنا صبري ..
- صبري من ..
- إفتكري سنتر الخواجة .. إرجعي شوية لورا .. صبري المدير المالي ..
- أيوه أيوه أهلا بيك والله سألت عليك ناس كثير أوي ..
- إنت فين ..
- سعيد إني باسمع صوتك عايز أشوفك ..
- وأنا والله .. بس فيه حاجة مهمة ..
- طبعا الحاجة المهمة إني أشوفك ..
- طيب .. دي نمرتك ..
- أيوه ..
- سييني أرتب أموري وهاكلمك ..
- إمتي ..
- النهاردة بالليل أو بكره زي دلوقتي ..
- خلاص اتفقنا ..
- باي ..

كان الموعد في الثالثة عصر اليوم التالي في القاعة الداخلية
 محل جرروي بروكسي، جلس ينتظرها وأيقن وهو يتأمل تلك
 القاعة تأكد أن عصورا مضت منذ أكثر من نصف قرن وكانت
 أحداثها تدور خلف السور العالي الذي يقع أمام جرروي ولم
 يتغير شيء في الناس فالحاجة كما هي والنساء هن النساء
 والرجال كذلك.. ولكن لما كنت طفلا لم أكن أدري بالطغيان
 ولما بلغت بي الأيام صبيا كنت أهتف لرجال كما علمونا في
 مدارس الجهل والظلام وبعد أن كبرت أيقنت أننا كنا في
 ضلال.. التاريخ مزيف ولا يمكن أن يكون التاريخ كلام أو
 لرجل يحمل بندقية أو لحزب يرفع شعارات.. التاريخ ليس
 بأوامر العسكر أو للسجون أو للمعتقلات إنهم يكتبون تاريخنا
 أسودا مثل دخان حريق أحرقوا البلاد فيها.. وجعلونا نحن جميعا
 أنا وكامل وخالد وسامية وسميرة التي ستأتي وغيرها في كل
 درب وبيت وحارة وزقاق جعلونا جميعا حتى نبلغ لقمة عيش
 أن نتخلصي عن كل شيء نبيل حتى خلعنا ملابسنا.. إننا جميعا
 الآن نخلع ملابسنا حتى نبلغ بلغة عيش وكثير منا يخلع ولا
 يبلغ.. فلا يفيد خلع الرجال لأنه بلا ثمن ولكن خلع النساء
 بثمن.. أخ عربي قال لي.. الواحد يتزل مصر بالجنيه يعمل

اللي عايزه في أجدع واحدة.. بلدكم كلها امرأة شر... ..
هذا العربي لم يكن يستطيع قبل عام ١٩٥٢ أن يقول مثل هذا
الكلام كانت مصر سيدتهم جميعا.. نحن نسمع هذا الكلام علنا
ولا نتكلم ولا نستطيع أن نرد عليهم لأن لقمنا عندهم.. إننا
نبتسم ونرضخ.. نحن الآن خدم وعبيد.. أي عصور مضت
رذيلة ومهينة وحقيرة خطها من هتفنا لهم ونحن صغار لم يقدموا
لنا غير الذل والهوان ونحن الآن نخلع لنأكل.. وشعرت بأن هذه
القاعة العريقة في بنائها ما زالت شاهقة وأن الذي بناها مهندس
كان مرفوع الرأس أيام كان أمثال طلعت حرب يمشي في
شوارع بلادنا..

.. أقبلت سميرة عليه وكأن جسرا من النساء الفاتنات يمتد
نحوه.. أين العباءة وغطاء الرأس وحمرة الخجل.. الكم الطويل
والحذاء الحافي والحاجب الثقيل.. كل هذا تبدل ولباسنا الذي
كان لقفناه في قفة البلد وأرسلناها إلى البلد لترتيديها أي نبوية
أوشلية أو نواره إنها زكاة عن صحة من خلفني في المدينة
ليتحذوا بها خرائب فتحت أبوابها من زمن.. كنا نسمع الأبواب
تنغلق في أول المساء على أهلها لما كانوا يشبعون من قمح
البلد.. والآن فتحت الأبواب ولن تنغلق إن أهلها جميعا
هجروها من أجل أن يحصلوا على حبة قمح لم تزرعها يد في
البلد.. اختلط الحلم الذي كان قديما باليقظة التي حملتها إليه
سميرة ولم نعد قادرين حتى على الحلم.. وكانت سميرة أول

اليقظة بعد الحلم لصبري.. وشعر بأنه رجل خائب وأن ذكرياته خائبة مثله وأنه رجل عاجز لا يستطيع بحجارة الزمن الحديث.. جلست إلى جواره بعد أن رجبّ بها وصافحها بحجارة وبادرته بقبلة رقيقة على ثغره فنسى الكثير من الحلم وقال في نفسه باين عليّ سهلة زي كل الرجالة.. يا نهار اسود على رقة البنت وطراوتها... وقدم الجارسون ما لذّ وطاب من قطع الجاتوه والشاي و.. وقال لها صبري في رقة:

- كم أنت رقيقة وجميلة وغذبة..

- أنا سعيدة أوي بكلامك..

- مش مصدق إنك سميرة اللي لابسة عباية ومدارية أوي وأنت في السنتر.. كنت محافظة أوي وما كنش حد شايفك..

- ده كله ما نفعلش.. أصلي زي أي بنت عايزة تعيش وتداري ويقي ليها جوز وأولاد.. لكن قول لي بالله عليك نعمل إيه صبرنا كثير في سكة الحلال لأنها أصلا بتاعتنا لكن الناس ما رضيتش نبقى كويسين.. الخواجة ما عجبوش كلمة حق ومثانا من عزبته رحت عند الحاج برضه عايز ومنعته بكل الطرق وما فيش فائدة.. يعني أسيه يعمل اللي عايزه مقابل إني باشتغل عنده. يعني عشان أستمر أخلع له وده حاج.. كل الحاج كده وأكثر منهم بتوع الدقون.. طيب أروح فين.. فسخت الخطبة وقلت ما بدهاش أشتغل حرّة نفسي أحسن

ألف مرة زي مانا عايزة وبلاش أدي كل واحد لفة.. هي دي البلد وهمّ دول الحجاج اللي معاهم فلوس وهمّ دول إخوانا الخواجات.. هي دي القضية والله قضية كل بنت وقضية كل ست بعد كده كل واحد بياخد طريقه..

- على فكرة اللي بتقوليه بيقولوا كل العاملين والعاملات وفيه ناس كثيرة بتتحمل وماشية وفتيات وستات يمشوا حالهم مع أصحاب العمل وفيه رجاله بتضرب بالشلوت من صاحب الشغل ومع ذلك مستحيلة علشان تعيش..

- بس أنا ما عنديش حاجة اسمها أمشي حالي طالما نجيت لصاحب الشركة ورضيت ومشيت حالي بيقه في عرف الحرام المرتب اللي باخده هايقة جرام، إذا ده مقابل رخيص يعني خليها بقه حرام في حرام وفي السكة اللي اختارتها بيقه حرام له تمن وعلى فكرة أنا دلوقتي عايشة عندي عزبتي وشقتي وأبويا وإخواناتي عايشين أحسن عيشة خلاص أنا رفعت سكينتي زي كل واحد في البلد رافع، ما هو مجتمع زي ده فوضى بقه علي الستات ترفع رجليها علشان تعيش..

- وعلى فكرة أكثر من واحد وواحدة قالت لي حكاية الرفع دي..

- إنت عارف الحاج اللي طاردني لما كنت باشتغل عنده..

- أيوه راح فين ..

- جبته.. مش قلت أنا بقيت سيده نفسي.. في يوم هاتفته
وعرفته بنفسي وفكرته إني سميرة اللسي كانت عنده وأنا تحت
أمره لو كان عايزني..

- عمل إيه ..

- فرح أوي وقال أتمني.. قلت الله فيزي عالية أوي.. قال
أمري.. قلت له ألف جنيه قال تحت أمرك..

- وبعدين..

- رحت له شقة وانخدها في حي جديد عامل فيها بار للي
عايز يشرب.. وبعد ما اتبسط معايا قلت له إنت مش عاتق حد
في المصنع ولا برّه وإزاي بتروح تحج كل سنة.. تعرف قال لي
إيه ..

- قال إيه ..

- شوف التفاهة اللسي الناس عايشة فيها في البلد.. قال إن
كل حجة بتغسل الذنوب اللسي بين الحجة والحجة.. شوف
خيبة الحجاج.. طبعا مش كل الحجاج.. ولكن آدي نوعية
ناس في البلد..

- وهو فيه حد بيعج كل سنة..

- كثير إنت عارف دا بيحجج بكام كل سنة بستين ألسف
جنيه والناس عنده في المصنع مش لاقية تاكل ولا حد واخذ
حقه..

- يا نهار إسود على الناس..

- يا أستاذ صبري إنت مش مننا ما عشتش اللي احنا
عشناه.. إنت بس حبيب الناس.. إنت نوعية غريبة في مجتمعنا
لا إنت فوق ولا إنت تحت.. إنت مين مش عارفة..

- أبدا أنا منكم أنا من تحت ولكن خدمتي الظروف
والحظ.. بعيش بكل قلبي مع الناس الغلابة وبكل عقلي مع
الناس اللي فوق..

- اللي فوق اللي نمنحوا البلد.. بس إنت ما خدتش
قروض ولا هتبت أرض ولا نصبت..

- وللأسف مش عارف أعمل حاجة للناس الغلابة.. لسه
هاعمل..

- عارفة ها تعمل إيه كل الناس عارفه أخبارك إنت بتعمل
إيه علشان الناس بتحبك.. عملت عمارة في أرض ماريانا وها
تعمل مصنع ملابس جاهزة وباقي المبني أدوار للبيع.. كتر خيرك
وخيرها ها تعملوا اللي ها تقدرو عليه.. لكن هاتلمو كام

واحد غلبان ألف واحد.. إنت عارف البلد فيها كام غلبان
ستين مليون غلبان وبيزيدوا يوم بعد يوم

وتنهذ صبري وتعجّب كيف للناس عرفوا بأخباره إننا لا
نختلط بأحد.. هل هناك عصافير في الجو.. وهزّ رأسه وابتسم
وقال:

- علشان كده أنا عايزك تشتغلي معانا وتسيك من الكلام
ده وترجعي تلبسي العباية تاني..

- هاتديني كام..

- ألفين ..

- في الشهر

- أيوه ..

- أنا باعمل ألفين في اليوم وعندي يومين أجازة في
الأسبوع .. دا غير الحظ لما يضرب والصدف الجميلة اللي
بتحصل معايا..

- سيك من الكلام ده تعالي معايا دلوقتي شوف السنتر
الجميل اللي عملناه..

- مش ها تقدر تميل دماغي..

- يمكن آخذ رأيك في حاجة..

- كان زمان لما كنت جربوعة عبدة عند اللّبي ما

يسووش

- ها تبقى مديرة المصنع..

- ولا مديرة السنتر كله..

- دا الأمور فلتت معاك أوي..

- المجتمع كله فلت..

- الشغل اللّبي إنت فيه عمره قصير ..

- أنا عاملة حسابي أوي.. عارفة إن عمري بالكثير عشر

سنين وبعد كده ما حدش ها يعبرني.. ساعتها هاكون عندي

فلوس وأرض وكل حاجة مش هاكون محتاجة لأي شغل..

- وربنا .. ها تخسري دنيا وآخرة..

- ساعتها هاروح أحج علشان ذنوبي كلها تتمسح زي

الحاج..

- إنت نفسك ما عجيكيش طريقته وأفكاره الخاية..

- زي الناس ها أعمل..

- المجتمع لسه فيه ناس كويسين تعالي نكافح معاهم ونبقة

مناضلين ونكسب ثواب..

- مجتمع.. مجتمع إيه هو المجتمع عمل لي إيه لما كنت مش

لاقية أكل أنا وأخواتي كان منظرنا يصعب على الكافر.. مجتمع

صامت حزين ما تعرفش من غلبه ساكت ولا صابر ولا في
غيبوبة مجتمع مذلول يبحب الذل ويموت فيه وكل واحد يبذل
التاني، لما كنت غلبانة باشحت اشتغل عند الناس كنت بحس إن
الناس كلها بتراقبني ولما كنت بشوف الكلاب الضالة مالية
الشوارع كنت بعيط أوي لأني كنت بحس إني بقيت زي
الكلاب، على فكرة على أد الناس ما هي مظلومة على أد ما
هي ظالمة..

- غريبة إنتي بتقولى كلام جامد أوى دا إنت عشيتي مكبوتة
كثير أوى..

- خد عندك رغم فقر الرجالة شوف تحرشاتهم بالستات..
شوف النكت السياسية مين بيألفها وكلها على الوجع..
الخوف والجوع والعري والحاجة بتنتشر بشكل رهيب تحس إن
الناس من الذل اللي بتعيشه بنت سور تحت الأرض مدياري
لأنهم خايفين سور من الفقر والكبت وعقد النقص وشدة
انتقامهم من اللي ظلمهم.. سور خطير مدياري ما حدش
شايفه هاييجي يوم ها يقع.. إنت عارف لما يقع ها يقع على
مين.. وسكنت وحدقت في عينيه بشيء من التحدي..

- على مين ها يقع..

- عليّ وعليك وعلى الحاج والخواجة والعسكري أبو
بندقية على الناس كلها.. ها يهد كله..

- هو إنت جاية تتكلمي عن الناس والمجتمع وانت مالك
ومال كل الناس.. بصراحة أنت مليانة غل وحقد على المجتمع
كله..

- للأسف فهمتني غلط أنا واحدة من الناس ذي كلها
حسيت بكل حاجة مع الناس.. لما كنت غلبانة عشت مع
الغلب والغلابة ودلوقتي أنا عايشة بين الناس المفترية لما الحاج
وغيره يدفع لي ألف جنيه علشان فرجه والثاني والثالث.. إنت
عارف الفلوس اللي بيعربد بيها الناس دي جاية منين من دم
الناس.. يعني لما واحد شاب أو متجوز يشتغل عند سي الحاج
أو سي الخواجة من الساعة عشرة الصبح لغاية عشرة بالليل
بملايم هايقة إيه فاضل له في الحياة إذا كان مرتبه ما يقضيش
أي حاجة من ضروريات الحياة..

- عايزة تقولي مجتمع جديد بناه الظلمة..

- أكثر من السخرة.. مين يخلصنا من كل ده.. وعلشان
كده أنا خلصت نفسي بطريقيتي..

- على فكرة ما تزعليش يا سميرة إنت دماغك ضربت على
الأخر..

- إذا كنت بتكلم غلط تبقة دماغي ضربت.. وعلى فكرة
أنا عايزة أتكلم معاك تاني إنت عارف ليه علشان بتسمعي
كويس أوي وتعرف تستفزي ولما بابليع بارتاح..

- خلاص أشوفك تاني وتالت..
- أكيد.. أنا كده إتأخرت عن ميعادي..
- إلغى الميعاد..
- دا زبون سقع.. هات ألف جنيه وألغيه..
- على العموم أنا موجود ويمكن ربنا يهديكى..
- كتر خبيرك.. إديني رقمك تاني وأنت مش عايز حاجة..
- حاجة زي إيه..
- زي الحاج..
- كفاية عليك حجّاجك..
- .. وانصرفت سميرة مسرعة ودخلت شارع جانبي وركبت
سيارتها التيوتا وانطلقت بها تجاه شارع الخليفة المأمون..

ولو وضعنا في ميزان حزني على المجتمع وفي الكفة الأخرى
حزني على ولدى الطفل البريء المعتقل لكانت كفة حزني على
المجتمع أشد وأعتى ولم أكن أبكي من حزني على المجتمع وكنت
أبكي من حزني على ولدي.. أبكي بحرقة شديدة بييني وبين
نفسي بعيدا عن ماريا وبعيدا عن أولادي وكنت أتضع القسوة

والجسارة.. ولأنني كنت أسعى في حب الدنيا لإشباع البطن والفرج وكانت حياتي مليئة بحبي لماريانا وحبها الكبير لي فعندما تخلع ملابسها في الفراش أنسى الدنيا وما فيها.. ولأنني إنسان حقير كمعظم الناس أقسم لكم أنني كنت أنسى ولدي عندما أضم جسدها الفاتن إلى جسدي.. وتساءلت بيني وبين نفسي كثيرا من أنا.. وحتى الآن لا أعرف من أكون.. إنني أشعر أنني من عجينة غريبة تشكلت من كل عجائن هذا المجتمع ولذلك أجدني دائما حائرا لا أعرف من أي طبقة أكون.. ولن أنسى في يوم عندما تشاجر أحد أقاربي مع قريب آخر على شبر من الأرض كان يريد هذا القريب ليبنى طبقة من الأسمنت تحمي جدران بيته من مياه الري التي تجري حول بيته.. واندهشت يوما من حب الفلاح في بلادنا لشبر من الأرض وليس مهما أن يقع جدار بيت قريبه.. كان حبا للأرض قريبا من الكفر.. ولقد كان قريبي هذا الذي يريد أن يحمي جدار بيته الذي بناه وسط المياه.. كان قريبي هذا جلاب للمشاكل ومشاكل مع كل جيرانه وكان الجميع يكرهونه وكان إخوته بيتجنبوه لقسوته.. ولما فكرت قليلا في هذا الشقي الذي يعيش طيلة عمره في مشاكل مع نفسه ومع الجيران ومع إخوته.. علمت أنه كان غير بار بأمه وعلمت السر في أنه يعيش حياته بالليل والنهار كأنه يتقلب على جمر النار..

.. خرجت من هذه البيئة الكريهة بلا عودة ولو أعطوني في بلدي فدانا من الأرض مجانا لتركته وعليه كانت هجرتي من قريتي إلى المدينة هجرة أبدية هجرة لها أسبابها العميقة ومهما وجدت في المدينة من شقاء فإنني أحب المدينة ولأنني كنت بارا بأمي وأبي جمل الله حياتي وأكرمني بامرأة مثل ماريانا ومصيبي في هذه المدينة الآن هو كيف أخرج ولدي من معتقله.. ربما أكون وفي غمرة أحداث الحياة حولي أنني كم فرحت بحمل ماريانا وكانت سعادتها بذلك تفوق الوصف ولكنها كانتا من شدة رقتهما وأدبهما معي كنّ يخفين شدة فرحتهما على الحمل وذلك مراعاة لحزني على ولدي.. وحتى لا أقول في نفسي أنهما يفرحان بولد قادم لهما أما أنا فحزين على ولدي.. ولكنني والله كم دعوتهما كثيرا بأن يفرحا ويظهرا فرحتما لأن هذا ولدي وهذا ولدي.. وكانتا قد علمتا بواسطة الجهاز بعد أن مرّت عدة شهور أن القادم ولد.. وكلما دخلت ماريانا في حملها كلما اقتربت السيدة الكبيرة من منح الفقراء والمساكين تقودا بكثير من الكرم، وزارت كل من المسجد والكنيسة لتجزل المحتاجين هناك من كرمها بواسطة المسئول عن ذلك في داري العبادة.. وكانت تدعو دائما في صلاتها في أن يمنح الله السلامة لابنتها وأن تنجب مولودها بكامل صحة وعافية.. ومرّت الأيام والشهور حتى عادت ماريانا ملازمة للبيت ولسريرها تتوجع وتتألم ثم تحلم باقتراب الوضع وكم سيضيف هذا المولود بهجة وسعادة ووجودا جميلا لحياتها.. وفي يوم قالت لصبري :

- كن قريبا مني وأكثر من حنانك وعضدك لي إنسي في
حاجة شديدة إليك هذه الأيام بالذات.. لا تتعد ولا تشغل
بأشياء أخرى وكن بجانبني دائما..

فيقول لها دائما بعد كل رجاء منها :

- لن أغادر غرفتك أبدا حتى تملسي وجودي..

- دع يدك على بطني في رفق وداعب ولك إنه يتحرك
كثيرا ويسأل عنك..

.. وكان يفعل لها كلما طلبت منه شيئا مثل هذا.. وكان
يندهش لشدة رقتها وأنه لم يفعل ذلك مع زوجته أم محمود من
قبل.. حيث كانت تقول له.. إبعد عني.. ما تجيش جنبي.. أنا
زهقانة.. وتأكد بأن أم محمود كانت امرأة غشيمة تخلو من كل
رقرة أو هكذا حال بعض النساء أو كثير منهن في أيام الحمل
الأخيرة.. وأن قليلا من النساء مثل ماريانا الديدعة في كل
شيء.. وتذكر أمه التي كانت تقول لأبيه مثل أم محمود.. غير
أن ماريانا من شدة غيرتها عليه قالت له في يوم وهو يتحسس
طفله في بطنها:

- هل تتذكر عندما كنت تقول لي أن جسلك مثل عود

القصب..

- وما زال يا حبيبي..

- لا يا صبري.. أنت هنا تكذب.. لقد أصبحت مثل شجرة الجميز أو كبطيخة..

- لا أبدا.. أنت في نظري دائما عود قصب.

- أنت بكاش يا صبري.. أنت مجامل.. ولكن ما يهمني ألا تنظر إلى غيري من النساء والفتيات.. في هذه الفترة.. إنني بعد الحمل سأعود لك كما كنت أحلي من عود القصب..

- يكفيني حبك لي .. وغيرتك ورقتك أنت فعلا امرأة بدنيعة في كل الأوقات.. ليت كل نساء مصر يفعلون مثلك..

- لا أعتقد.. إن رقتي وغيرتي وحيي لك لأنك كنت الرجل الذي كنت أنتظره وأحلم به وكانت أمي كذلك تحلم مثلي وكنا نقول أحلامنا ونحكيها سويا.. لا أعتقد أن النساء يفعلن ذلك..

- ولماذا هذا الاعتقاد إن النساء في بلادنا على كل الأشكال..

- أعرف.. ولكني ما أقصده بالله عليك.. إن معظم نساء مصر فقيرات لأن معظم الرجال أيضا فقراء فلن تنفوه أي امرأة بركة وتقول كلاما حلوا لزوجها.. إن النكد وهم الحياة والمعيشة الثقيلة اللاتي يعشن فيها تجعل النساء جميعا مصدر كرب وشقاء للحياة التعيسة اللاتي يعشنها.. إنك لن تجد امرأة

رقيقة وعميقه في حبها لزوجها لأن الفقر والحاجة والبهدلة قتل
وحطّم كل شيء جميل في داخل نفوسهن.. لن يبقى فيهن إلا
الوجع ولا يتفوهن إلا بالشكوى.. إنه الشقاء والحالة الاقتصادية
المهينة التي يعيشن فيها قضت على كل المعاني الجميلة..

- كل شيء ترجعينه إلى الحالة الاقتصادية..

- هذا واقع وهذا صحيح.. وإني أحمد الله على النعم
الجزيلة التي من الله عليّ بها..

- ليس لدينا إلا الدعاء بأن يديمها الله علينا..

.. ولا أخفى أنني مثل كثير من الرجال يهرب من البيت
عندما يكون فيه أي نوع من أنواع الألم والوجع.. فوجع المرأة
وألمها الشديد سواء أكان من حمل أو مغص أو فقر تجعل الرجل
يخرج من البيت أو يغيب كثيرا من الوقت بعيدا عن بيته.. ولا
أعرف لماذا كنت حريصا في الحصول على تفاصيل أكثر عن
حياة ونشاط كامل جمعة وزوجته وما بعد ذلك.. وهذه المتقبة
وما حكايتهما وما تفاصيل علاقتها مع حرمه..

.. لم أكن في داخل نفسي بأن تمر الأحداث حولي وأنا
كعابر سبيل لها فهاتفت بيت كامل جمعة وردت عليّ زوجته
ورحبت كثيرا بأن أذهب إليهم ثانية، وكانت هناك كثير من
الأسباب لأن أخرج فأقضي وقتا في البناية مع العاملين على

تشطبيها ووقت آخر مع موردي الماكينات والآلات والعدد والأدوات الخاصة بالمصنع وأوقات أخرى مع موردي الأدوات المكتبية ومهندس الديكورات وأخرى مع الأسطوانات الذين يجلبون العاملين والعاملات في المصنع وأقسام البيع، ومع كل ذلك لا أخفي أن نفسي التواق لمعرفة حكايات الرجال والنساء الذين تركوا لأنفسهم الانسياق وراء بيع أجسادهم كطريق لكسب العيش، وكنت أشعر بالأسف الشديد بيني وبين نفسي لأنني وأنا ذاهب إلى كامل جمعة وزوجته كانت نفسي تميل كل الميل لأن أرى جسد هذه المرأة مرة أخرى.. وماذا بعد لا أعرف..

.. فتحت لي الباب امرأة شبه عارية تحاول أن تتداري خلف الباب وأنا أدخل، وتقدمتني إلى نفس الغرفة الضيقة التي جلسنا فيها من قبل، وجلست قليلا في مقابلي ترحب بي وبلغتها بعيني لأسعد من عريها الذي ينفذ إلى أحساسيسي.. ودخل زوجها علينا مرحبا وقبلي وكان يرتدي بدلة كأنه ذاهب إلى مشوار هام وجلس بجانبني وانحني نحوي بوجهه في ود وقال :

- معلى البيت بيتك.. عندي مشوار مهم استأذنك..

- طيب كدة خدني معاك..

- لأ والله.. الحقي يا سامية.. عايز يمشي معايا..

وأقبلت سامية مهرولة وهي تضحك:

- ليه ليه.. هوّ أنا بيعع.. كامل أخوك وإنّ أنت أخويا..

- يظهر أنا جيت في وقت غير مناسب..

خبطه كامل على كتفه كأنه يقول فضها بقّة.. وقال وهو يخرج من الغرفة مسرعاً نحو الباب:

- يا أستاذ صبري.. دا بيتك وسامية أختك خلاص.. باي باي..

وصفق الباب خلفه وتركني معها.. وجلست ثانية ولكن بجواري وشعرت بأن أنفاسها تلفح وجهي وعطرها يعتق في أنفاسي وأخذت يدي في طراوة شديدة وقبّلت كف يدي فارتبكت وشعرت برجفة غريبة تهزني تختلف عن الرجفة التي كنت أعود بها إلى زوجتي أتوجّع من أحداث الناس المؤلمة.. في هذه الرجفة شعرت بأنني في داخل الأوجاع واقتربت من صلب حياتهم ولما لاحظت ارتباكي قالت :

- تشرب إيه؟

- لأ ما فيش حاجة..

وفي جرأة همست :

- عايز إيه يا صبري بيه؟

- عايز

- أتكلّم معاك..

- في إيه..

- أنا عايزك ترجعي.. عودي كما كنت سامية وكامل
يرجع معاك..

وطوّحت بتلك الضحكة التي تسكت أي رجل عن
الكلام.. ضحكة غيرت من هواء الغرفة الخانق، وهزّ صبري
رأسه وكأنه يقول.. مفيش فايده... هيّ مصرّة على مجونها..
إنها قوية وتجاسر وقال :

- بالراحه عليّ يا سامية عامليني كأنني أخ لك.. إنت بنت
ناس من الفلاحين..

- هامشي معاك للآخر.. هات لي سكة أمشي فيها
مفيهاش بهدلة.. هات لي طريق يديّ للست كرامتها في البلد
دي وأنا أرجع..

- عيشي زي بقية الستات ..

- أنا مش غلبانة زي الستات ومحبّش خيبة الستات في
غلبهم وضعفهم.. وبعدين يا سيدي إنت تزعل من واحدة
بتحرّر نفسها.. تعرف لو مارحتش الجامعة يمكن كنت أبقية
غلبانة زي الستات، إنت عارف إن الواحدة في الجامعة بتأخذ
أو بتحس بجرعات معنوية عالية وبتفكر إنهما بعدما تخلّص ها
تلاقي نفسها في مكانة كبيرة أوي في المجتمع.. لكن الواقع غير
كده خالص الرّجالة كلهم بيعاملوا الست من منطلق واحد

وبس.. إن الست دي في النهاية تتركب وبس.. طيب طالما إن المجتمع كده ونظرتة ما تغيرتش ومش ها تتغير بتعملوا جامعات كتير أوي ليه وبتشجعوا البنت زي الواد الناس بتقول كده وفي الآخر اللي إتعلمت زي اللي ما تعلّمتش.. فيه وحش في عقول الرجالة أو فيه وحشية في المجتمع.. إمتي نبقة أد التعليم والثقافة بصحيح.. روح شوف البلاد الأوربية رغم الحرية اللي بيعشوها وكل واحد يعمل اللي عايزه.. لكن فيه احترام.. العلاقة بين الرجل والمرأة والحرية المفتوحة شيء والعلاقات الإنسانية المحترمة بين كل أفراد المجتمع شيء آخر.. كل شيء منفصل عن الآخر لكن في الأول والآخر فيه إنسانية وأدب عام واحترام.. تعال شوف البهام اللي في البلد.. لسه بدري أوي على الثقافة والإنسانية والإحترام الحقيقي والقسم النبيلة.. أسكت يا عزيزي.. في ديننا فيه كل شيء عظيم يرقى بالإنسان والإنسانية ولكن للأسف ما فيش حد عارف السدين الكبير لأننا بنتمسك بالقشور والتفاهات.. العقلية عندنا تافهة أوي عند الكل رجالة وستات إوعه تفكرّ إننا بنعيش في القرن الواحد وعشرين حضارياً.. أقسم لك إننا لم نفعل شيء بعد مرور هذه القرون وأنا نعيش أيام الجاهلية الأولى ولكن كل واحد بطريقته..

- كل الكلام ده جواكي.. هوّ أنا جاي أخذ محاضرة.. كلامك كويس بس إحنا فيك إنت كل واحد يصلح من نفسه..

- أصلح من نفسي إزاي وأنا الجانب الضعيف في المجتمع.. دلوقتي الطبقة المثقفة أو المتعلمة زي اللي ما تعلمش خالص لأن اللي فوق بيعامل الناس كلها كأهم عساكر.. هو المجتمع المدني عسكري..

- المجتمع المدني مش بيعيش بأوامر ولا بتعليمات المجتمع المدني مجتمع إنساني لازم اللي فوق يتعامل معه باحترام وبأسلوب جامع كل ما هو إنساني ونبيل.. مش بتحرموا الناس والناس ما لهمش أي قيمة في بلدنا هو الاحترام شعارات وكلام ويس.. الكبير مش قدوة الكبير اللي هو من المجتمع ويمكن يكون أبوه كان من قاع المجتمع بقه فرعون مرة واحدة ومحدش قدّه وكل واحد ماسك حاجة بقه كده.. إنت جاي عليّ أنا وجوزي الغلابة اللي حتي ملقوش فرصة عمل شريفة تقول لهم عملتوا كده ليه إرجعوا.. لو إنت راجل.. معلش أنا آسفة.. أقصد لو إنت راجل صحيح بتدعوا إلى القيم وأن الناس ترجع للأصول الأولى.. خد الناس كلها إلكي زيك وروحو لأي واحد فوق معاه فلوس أو معاه سلطة أو يملك أي شيء وقولوا له عيب اختشي عيش وخللي الناس تعيش زيك.. إنت عارف إن المجتمع بتاعنا عبارة عن آلاف المواقع والأماكن في كل أنحاء البلاد التي تزرع تحت نيران العبودية وكل واحد في حتته ماسك فيها بالباطل ونازل سلخ في الناس واحتكار في الناس بل واحتقار في الناس ويا ريت الناس اللي بقت فوق دي من بلد تانية إحنا والحمد لله مننا فينا..

- يا نهار إسود عليك يا سامية إنت مين..

- أنا سامية خريجة جامعة اتجوزت كامل واحد من طبقتي دخلنا في المجتمع نشتغل بمؤهلاتنا لقينا كل واحد صاحب شركة عايز يقلع النسوان والبنات كلها اللي عنده في مقابل يستمر شغلهم.. لو لقيت البلد كلها هاتلاقيها كده بس كل واحد له طريقته.. أنا كواحدة رفضت الحكاية دي إذا كان العمل الشريف ها يبقه فيه وساخة وكله كده.. كنت باحكي لجوزي كل حاجة بتحصل وهو كان بيحكيلي اللي بيحصل في شركته.. وفي الآخر إيه لقينا إن ما فيش حاجة اسمها أعمال شريفة في البلد لازم الست تتنازل وفي الآخر لازم تقلع.. دا غير الأجر المتدني وساعات العمل الطويلة جدا مقابل أجر ما يأكلش عيش حاف.. الشعب كله بقه حاجة واحدة رجالة وستات بقه كده عبيد في نص قرن وأكثر هي عمر حكم الناس اللي حكمونا من بلدنا..

- أنا حاسس إن إنت حطيتي سد كبير أوي بأفكارك دي وإنك مش هاترجعي..

- ممكن ما تزعلش مني.. أرجوك ما تزعلش مني.. إنت عجبان ولكاك يا أستاذ صبري.. إنت من ضمن الناس اللي بتستعبط وتستهل في البلد.. ودن من طين وودن من عجين.. عامل نفسك عندك أخلاق علشان ربنا سترك شوية.. علشان

مراتك غنية وانت مدير مالي من زمان بتبهر اللي أنت عايزه..
يا ريتك كنت متجاوز واحدة عادية موظفة وبس وأنت كمان
كنت زينا.. كان نفسي أشوفك ها تعمل إيه..

- بس أنا من جيل قبلكم..

- إنت طلعت لقيت حاجة..

- أبدا هيّ الحاجة الليّ كانت موجودة فرجت على
الناس كلها إن البلاد العربية كانت مفتوحة بشكل كبير لجميع
المؤهلات.. كل الناس في البلد عملوا أي حاجة لما رجعوا..
بيت.. جواز.. قرشين..

- شوف بقّة المشكلة عندنا إنا طلّعنا مالقناش أي حاجة
مفتوحة.. كله جوّه البلد بياكل في بعضه والعبودية والسخرّة
بتزيد يوم بعد يوم وشوية ناس فوق واكله البلد وبتسرقها علي
وناس شبه عايشة وعلشان كده حصل انفجارات رهيبة
للمجتمع.. أقول انحرافات سلوكيات جديدة وغريبة في البلد..
ودا كله علشان الضغط الاقتصادي.. انهيار اقتصادي ودا
نتيجته.. يا أستاذ صبري معلى روح هجرها وما تعملش راجل
مصلح ونبيل علينا.. أحسن حاجة تبقة منّا أو تبعد عننا..

- يا خبر إسود يا سامية دا إنت هزأتيني على الآخر..

- دا عينا يا أستاذ صبري.. إن كل واحد بيتكسف من
الثاني وما يقولشى له الحقيقة ويقول علشان ما يزعلش..
الحقيقة والصراحة في بلادنا عيب وما يصحّش.. يعني شرا

خواطر بالزيف والكذب.. يعني إحنا مجتمع مكسوف مجتمع
عيب يا جدع عيب يا بت وكل واحد مننا يعمل البدع في
التاني.. يا عزيزي إحنا مجتمع بيضحك على بعضه.. وعلشان
كده إحنا مجتمع هش كلنا أشتاتا أشتوت.. وصلنا إن ثوبنا بقه
كله مخروق ومفيش حتة باقية ينفع فيها الترقيع..

- أنا ما عدش فيه حاجة عندي أقدر أتكلم فيها معاك إنت
خلّصت كل حاجة..

- لأ ما خلّصتتش.. الحمد الله ما عنديش ولاد كانوا إزاي
يطلعوا يعيشوا العيشة دي.. شوف لما أطفال يلاقوا أمهم
وأبوهم باعوها كان ها بيقة حالهم إيه..

- علشان كده بقول نحاول..

- يا ريت تسمعي أحسن.. إحنا دلوقتي بنصيع وبنحاول
نداري نفسنا وفي كل بيت هاتلاقي واحد أو اتنين زينا.. لكن
بكرة الضياع هايقه شكله إيه.. ها نقف في الشوارع جنب
بعض نبيع الصياغة علي..

- والحل يا فيلسوفة؟

- كل واحد في البلد بيقول الكلام ده في داخل نفسه..
الحل نرجع زي زمان نبقه بلد زراعي بحق.. قطن زمان، قمح
يكفيننا.. فين صناعة الغزل والنسيج فين الخبيز والبتاو وعيش
الفرن.. هوّ فيه بلد تتخلّى عن جذورها أو تبيع أصولها بعد

كده ها نبيع إيه.. البلد فيها سماسرة كبيرة أوي وقوادين كبار
وصغار ونصايين وعبيد وخدم ومنافقين البلد دي لازم ترجع
تاني من جديد..

- خيلنا نبدأ الإصلاح من تحت..

- شوف هيّ كلمة واحدة وفرّ الأعمال الشريفة للناس
والناس كلها ها ترجع.

- وإيه تاني.

- خلّسيّ الأصول ملك للناس.. ما تباعش أصول البلد..
إزاي تباع عرق السنين إزاي تباع بلدك.. لازم كل حاجة في
البلد تبقة بتاعة الفقير قبل الغني.. إزاي تاخذ ما للفقير ودم
الناس من آلاف السنين وتتاخر فيها وتبيعها عليّ بتراب
الفلوس.. إزاي يحلّ ليك تاكل مال الناس الغلابة إزاي تسرق
الأرض والمباني والشواطئ بكره هاتباع مية النيل وقناة السويس
بكره هاتخش على الناس في بيوتها وتعتقلها علشان تباعهم في
سوق العبيد.. بكرة.. بكرة.. عايز إيه تاني يا صبري.. جاي
بعد ما خربت تقوللي ارجعي.. روح رجّع الفاجرين.. وقل
بعد كده للصيبة بحق ما تتعريش.. عمرك ما هتلاقي واحدة
قلعت علشان تعيش..

- طيب ما تتعريش..

- تعال شوفني جوّه.. تعال شوف سريري.. تعالی شوفني
قالعة من غير هدوم..

- لأ معلش يا سامية ها روح علشان أم ابراهيم..

- فين فلوسك عايزة أدوق منك فلوس..

- سلف ..

- لأ..

- أنا مش بادفع فلوس علشان أدوق..

- طيب تاكل معايا قرنيط وبعدين نشوف الفلوس..

- عندك تفاح..

- لأ..

- طيب انزل أجيب تفاح قبل ما تقلعي..

- الفكهاني على الناصية هات وتعال ها تلاقيني قالعة عسا

السريـر.

- خللي بالك أخاف عليك تبردي أحسن أغيب..

- إن غبت عني عمرك ما تيجي عندنا تاني وتقول كلامك

من جديد ..

- طيب وزايا اقلبي الباب أوي ما تفتحيه..

.. وفي الشارع كان يريد أن يجري وتوترت خطاه ولم يكن يستطيع أن يهرول.. ومن رجفة إلى أخرى شعر نفسيا بأنه ينهار.. وحتى يستطيع أن يمسك بتلابيب نفسه توقف أمام دكان صغير يبيع الروائح والعطور وكان حائرا مرتبكا يتأمل القناني والعلب ولا يعرف ماذا يريد وخرجت إليه البائعة تقطع ترده..

- ماذا تريد يا سيدي.. تحت أمرك..

- لا لا .. مافيش.. وسكت .. وأمعن النظر في وجه البائعة فوجده جميلا فقال لها :

- هو هذا المحل يخصك..

- لا أملك شيئا .. أنا بائعة..

- أليس لك وأنت بهذا الجمال أن تقفي في مكان أكبر من هذا ..

- يا سيدي هذا ما وجدته ليس لي أن أختار شيئا.. هذه المدينة كبيرة ومحلاتها كثيرة جدا ولكن تشعر أن هناك بالوعة في كل شارع تشعرك بأن كل ما في هذه الحوانيت لا معنى له.. ما معني أن تعرض البضاعة ولا يشتريها أحد.. أنا أسمي هذه الظاهرة بالوعة..

.. دخل الحانوت بصعوبة وقدمت الفتاة كرسيًا صغيرا له فتعد وقال :

- سوف اشترى منك الكثير لك أن تأتيني بكافة أنواع
سبريه عرق النساء وكذلك عطور نسائية أختار منها.. أرجوك
حاولي أن تأتيني بكل ما هو أصلي..

- حاضر يا سيدي.. حاضر.. الله يكرمك..

دقائق وجلبت له كل ما هو أصلي ومقلد من العطور
والسبريه وراحت تشرح له أنواعها.. هذا في الصباح وهذا في
المساء وتركها تسوق حتى سكتت فقال :

- هذه وهذه وهذه.. ثلاثة يكفي.. خمسة وهذه.. ستة
أنواع من العطور.. إنها جميعا لحبيبي.. كم الحساب أيتها
الجميلة..

- مجانا يا سيدي.. أنت يا سيدي زبون لقطه..

- هات من الآخر لا أود أن أتناقش معاك في أسعارها..

- حاضر يا سيدي..

- هذه.. وهذه.. وهذه الإجمالى مائتان جنيها..

- خذي.. ولك عشرة جنيهات..

راحت الفتاة تشكره بالكثير من الكلمات الحلوة ثم تأملته
وقالت :

- من أين أنت يا سيدي.. لا يمكن أن تكون من هنا..

- أنا من حي مثل هذا.. عريق في شعبيته أصيل في ناسه..
إن شبرا مصر ستظل شبرا مصر والناس هم الناس ولكن المناخ
هو الذي تبدل والأحوال.. السيئة هي التي جعلت الناس جميعا
يتغيرون ولكنهم كما كانوا أصلا غير أنهم الآن قد انكفأوا في
داخل بيوتهم وشوارعهم في صمت بجوار صمت وجميعا كأنهم
ينتظرون شيئا كبيرا ليخرجهم من رقة حالهم ليكونوا كما
كانوا يعيشون يشترون ويبيعون ويتزوجون..

- إنك يا سيدي تشعرني بالأمل.. إن كل الآمال قد
انطفأت في داخلي..

- كيف وانت شابة جميلة..

- وما فائدة أن أكون كذلك ولا أعيش.. لا بيع ولا شراء
ولا زواج..

- أنا أعتذر لك عن عدم الزواج إن الحالة الاقتصادية المهينة
قد وقعت فوق كل سقف فقطعته..

- هل تعرف يا سيدي ماذا أقول أنا لنفسي.. إنني أقول
دائما ليس هناك رجال.. أقصد أين الشباب.. هل الشباب لا
يراني ولا يرى غيري.. والله أنا خرجت من بيت أبي لسببين..
في كل صباح ومساء أبي وأمي لا يملآن العراك في أحوال المعيشة
ولقد شعرت بأن الأرزاق تضيق وأنه لا بد عليّ من نفسي أن

أبحث عن عمل.. أي عمل.. أنا حاصلة على ليسانس آداب
قسمة اجتماع من عين شمس.. لا يهم الآن حاصلة على ماذا
ومن أنا في مكنون نفسي فلم أكن أتصور بعد كل هذا المشوار
الطويل من التعليم أنني سأقف في محل في آخر اجتهادي
وتحصيلي.. المهم يا سيدي كان عليّ أن أخرج من البيت كل
يوم لأبحث عن عمل في المحلات التي على جانبي شارع شبرا..
هل تعرف أن أسهل شيء كان من الممكن الحصول عليه وهو
عمل مجزي.. أن الرجال الآن خاصة التجار والذين يملكون هذه
المحلات ماذا عرضوا عليّ وسكتت..

- ماذا عرضوا عليك.. يا.. إسمك إيه..

- سونيا.. عرضوا عليّ أن أكون رفيقة وبمرتب مجزي..

- وماذا قلت لهم..

- بكل هدوء انصرفت بعد أن سمعت العرض وبكل أدب

قلت لكل منهم سوف أفكر يا سيدي.. دعني أفكر وكل منهم

أعطاني محموله وهواتفه الأخرى.. وكنت أتصرف وأتابع

وأضحك في داخلي وأسخر من كل هؤلاء.. وأقول ألم يبق غير

هذا العمل.. أهذا العمل وحده هو المتوفر وبكل سهولة للفتاة

خاصة وإن كانت جميلة..

- هذا موضوع كبير يا سونيا.. وماذا حدث بعد ذلك..

نظرت سونيا في ساعتها وقالت إنه عليّ الآن أن أقفل المحل
لقد بلغت الساعة العاشرة.. هل من الممكن أن أكمل حديثي
معك يا سيدي في أي مكان تختاره..

- إن هذا يسعدني..

وأنظرها حتى قفلت دكاها وجاءت إليه قائلة :

- كأنني وجدت شيئاً كبيراً أحكي له.. من أين أنت يا
سيدي ولماذا كنت هنا في شبرا..

- تعال يا سونيا إن علينا أن نجلس أولاً حتى أحكي لك ..

- وأنا يا سيدي سوف أكمل حكايتي.. قالتها وهي جد
فرحة تكاد أن تطير من فرط سعادتها بالرجل..

.. ركبنا المترو حتى محطة المظلات ولما صعدنا إلى الشارع
اجتازنا مبني الري على اليمين ثم دخلنا في شارع يؤدي إلى
النهر.. صادفنا عدة مقاهي لا تليق حتى وجدنا كوفي شوب
على الكورنيش.. ولما كنا ندخل من الباب والجارسون يرحب
بنا أمسكت بذراعي وكأها تخاف من شيء.. وشعرت بأنها
ألقتني وأني قريب منها لأنها من شبرا وشبرا مصر عزيزة عليّ
لأنها أول محطة في القاهرة وصلت إليها وعشت فيها لما جئت
إلى القاهرة لأكمل تعليمي الجامعي.. وكم كان لي من

ذكريات جميلة.. وكانوا جميعا من أهلي وأنا منهم خاصة
النساء الجميلات اللآتي عرفتهن من المظاهرات وحتى حي
طوسون ومسرة، استحوذ على نفسي في دقائق كل حياتي في
هذا الحي وكم عشت أياما جميلة في شقتنا الصغيرة أنا وأخي
محمد سامي أياما لا تنسى وسجلتها أرض وهواء وناس شيئا
العريقة.. إن سونيا أمامي الآن وكان كل أحداتي تتجمع وأنا
أنظر إلى وجهها الفاتن ورغم أنها كانت تصغرن كثيرا إلا أنها
قالت بادئة :

- جئت معك طواعية ولو كان شابا في مثل عمري ما
نظرت إليه ولكن من أنت يا سيدي.. إنك جذبت كل شيء
في لدرجة أنني كدت أطير من الفرح عندما دخلت عليّ
الحانوت ورأيت وجهك الذي ينطق بكل المعاني.. ولم يكن
يهمني حركة الشباب لكونهم شباب وكنت في داخل نفسي
أبحث عن المعاني والنضج ورجل كبير يشملني بالحب والعطف
والحنان.. ربما تكون أنت.. أو أن هذا الرجل لم يأت بعد.. أو
أنه لن يأت أبدا.. هل تعرف يا سيدي إن ما وصلت إليه من
معني للحياة الاجتماعية في مدينتي أن الناس تائهون كل منّا
يبحث عن وجوده فلا يجده.. أي أن كل رجل وكل فتاة
وامرأة يبحث كل منهم عن نصفه الآخر دون جدوي.. إننا
جميعا نتقابل ويرى بعضنا البعض ونعمل ونتسوق ونحاول أن
نحيا ونتعارك ونأكل ونشرب في مدينة كبيرة فيها يعيش كل

أجناس الناس بحري وقبلي ومن كل الطبقات ونحن جميعا من أصل واحد وجذور واحدة، ولكن لا أحد يلتقي بالآخر أن يتجانس معه وكأننا جميعا هائمون على وجوهنا ومنكبون على ذواتنا نتداري ونخاف ونتروي..

.. وامتعضت وكأها تشعر بياس ما غير أنها استراحت لَمَّا أفضت بمكنون نفسها وابتسم صبري وقال وهو يمسك بكف يدها ويرفعه إلى فمه ويقبله :

- دراستك في الجامعة جعلتك تتكلمين ببراعة عن حالة المجتمع .. ولكن ما باليد حيلة الآن لقد انقسم الجميع وعدنا جميعا فرادى كل منها يبحث عن الرغبة فقط.. لأننا سكتنا وخضعنا حتى الرغبة الحاف نجده بصعوبة بالغة.

.. لكن يا سونيا دعينا من الفلسفة والكلام العام وقصّي عليّ حكايتك :

- إن قصتي عادية هي قصة كل بنت وكل واحدة في البلد.. القصة باختصار أنه على كل واحد من أي عائلة عليه أن يخرج ليعمل لأن الجميع في أي أسرة إن لم يخرجوا ليعملوا فلن يستطيع الأب والأم ملاحقة إطعام بقية الأسرة لأن موجات الغلاء مستمرة والدخول ثابتة ولا توجد أعمال بالمرة سواء مناسبة أو غير مناسبة والمصيبة كما قلت لك يا سيدي أن من يملك يريد أن يقلع كل الستات والفتيات في البلد مقابل حفنة قروش واستقرار الإنسان معه في العمل.. يعني البجاجة

وصلت يا سيدي من الذي أوصلنا إلى ذلك.. من الذي أدخلني
البلاد من أعمالها الشريفة.. من الذي جعل بلادنا بلادا بلا
إيراد.. من الذي جعلنا نعيش بالليل ووالنهار وكأننا حفاة أو
عرايا.. وهل نتعري لكي نعيش.. ويتكلمون عن الكرامة
والقيم.. كيف تكون الكرامة لإنسان يعرّيه أخيه الإنسان في
نفس الوطن ليأخذ منه أعلى ما لديه.. ويترعه نزعاً منه أي
يغتصبه.. وهل ولدنا ووجدنا في هذه المدينة كي نغتصب.. إنهم
يجبروننا جميعاً نحن النساء على الاغتصاب وأن نقدم كل ما هو
غال في مقابل الرغيف.. ماذا أقول لك أكثر من ذلك يا سيدي
وأين الحل ومتي يأتي..

- غلبت عليك فلسفتك.. أقسم لك بكل الإيمانات أنني لم
أجلس مع رجل أو امرأة في هذا الوطن إلا وكلمني عن العيش
والحياة والعمل الشريف والغلاء.. يبدو أننا جميعاً في وطن
يتكلم فيه كل إنسان كلمة واحدة لأن الوجد أصبح واحداً وأن
الألم وصل إلى كل جزء في جسدنا حتى الأطفال يشكون
ويتكلمون كما يتكلم الكبار.. ماذا عنك أنت.. دعينا من
الحكاية الواحدة للناس.. حكايتك أنت..

- أنا سونيا رشدي حبيب بابا علي المعاش وأمي في
البيت.. لي أخ مهاجر من عشرين سنة.. لي أخ تاني.. بيعيش
معنا.. وسكتت..

- وماذا بعد..

- معاش أبي ربيعيت جنيه وأخي المهاجر لا يرسل لنا
شيء ولا يريد أن يعود حتى زيارة.. صاحبة المحل إسمها الحاجة
فوده باشتغل معاها من سنة كل يوم بافتح المحل من ثلاثة بعد
الظهر لعشرة مساءً..

- بكام ..

- متين جنيه..

- كويس ..

- كويس إيه.. مية للبيت ومية مصاريف وأخويا بيشتغل
مندوب مبيعات طافح القندلة من الشغل في اللسف على
البيوت.. ويوم أه ويوم لأ..

- اشتغلي مدرسة ..

- ما فيش ..

- اخصائية اجتماعية..

- ما فيش ..

- طيب تعرفي تباعي ملابس..

- سهلة ..

- شهرين بالكثير ها كلمك تشتغلي معانا في الستر..

- فين ..

- في الزيتون ..

- بكام ..

- مش أقل من ستميت جنيه..

- يا ريت..

ودقّ محمول صبري وكان المتحدث السيدة الكبيرة التي قالت
له في جملة واحدة :

- يا صبري إنت فين.. الحق تعال ماريانا بتولد في مستشفى
الميري لاند..

.. كانت سونيا شديدة الألفة فلما خرجت مسرعا من
الكوفي شوب كانت تمرول خلقي وأمسكت بذراعي ووضع
رأسها بكففي كأنها تحتمي بي من شدة المطر الذي كان ينهمر
بغزارة ومرة واحدة التصقت به وشدته تحت مظلة بنك مصر
ودخلت في أحضانه كأنها زوجته أو ابنته وتركها.. كان يريد
أن يعرف آخر الحكاية.. وحدث نفسه كالعادة.. هذا الود من
أول مرة.. ترى لو قابلتها ثانية ماذا يحدث.. وازداد المطر
شراسة كالسيول وبدت الشوارع كأنها بركة ماء والمركبات
تحاول النهوض منها وشدت شالا رقيقا فوق رأسها ومسحت
عينها من حبات المطر التي أذابت الكحل من مقلتيها وتمنت أن

تأخذه الليلة إلى أي مكان وتبقي معه أبدا.. ما الذي يدفعها نحو هذا الرجل.. ولما هدأت السيول قليلا قال لها وهو يربت على كتفها بيده:

- لا بد لي أن أمشي.. إن زوجتي تلدويجب أن أكون إلى جوارها الآن..

- يعز عليّ أن تتركني.. لكني أنا أريدك دائما..

- هذا واقعا لا يمكن..

- أليس لكثير من الرجال امرأة أخرى غير زوجاتهم..

- هذه عادة يا سونيا غالبا منتشرة في أوروبا ولكن في بلادنا فيها غرابة..

- أنا أحب هذه الغرابة وأتمنى أن أعيش فيها معك..

- أنت فتاة يا سونيا وإذا سايرتك في مثل هذه الغرابة التي تتمنيها فكيف يكون شكل هذه العلاقة ..

- لا أريد أن أكون امرأة.. ولكنك سبتقى عليّ عذراء..
يكفيني أن أكون بجوارك وفي أحضانك وأنت ترتدي ملابسك.. إنك ستحميني من رجل متوحش يشدني إليه ولو وافقته في رغبته لتحولت إلى امرأة في ساعة.

- من هذا الرجل..

- هذه حكاية أخرى ..

- عندما آتى إلى شبرا مرة ثانية سوف أعرج عليك لأعرف من هذا الرجل ..

ودار هذا الحديث في المسافة بين الكورنيش وشارع شبرا لأن في هذه المسافة لم نستطع الحصول على تاكسي وكانت تتأبط ذراعي بقوة وتلقي برأسها فوق كتفي وأصرت على أن تدخل مع العربة ولاذت بي في المقعد الخلفي وكانت تصر على أن تذهب معي وأثنيها عن ذلك لأن ذلك غير ممكن .. وكيف أدخل على زوجتي التي تلد بامرأة أخرى .. إنها قد تموت لأنني سأزيد آلامها آلاما أخرى .. وهدأت من شدة رغبتها وحلفت لها بالإيمان أن سوف آتى إليها بعد يومين وأنه يجب علي أن أهايتها كل يوم حتى أحميها وأقويها على رجل يلاحقها ووافقتها على كل شيء .. وتنفست الصعداء لما نزلت من العربة قريبا من بيتها في شارع محمد الخلفاوي .. وهاتفت السيدة الكبيرة معذرا عن تأخيري بسبب هطول المطر وأني بعد نيف ساعة سأكون في المستشفى فأخبرتني قائلة :

- مبروك يا صبري .. جالك ولد ..

- ياه والله .. مبروك يا ست الكل وهي عاملة إيسه بخير والولد بخير ..

- كله بخير وهي على ما يرام والولد في الحضّانة.. لا تقلق
على مهلك لا تجعل السائق يسرع خوفا من زحلقة العجلات
في هذا الجو.. على مهلك يا بني.. مبروك..

- الحمد لله يا ست الكل.. باي..

ودخلت عليها في غرفتها وكانت الدموع تنحس في عيني
وارتمت فوق صدرها برأسي في رفق ورحت أحتضنها في رقة
وأبكي وهي تحتضن رأسي بأناملها الرقيقة ومردّدة مبسوط..
والله مبسوط.. المهم انت تكون مبسوط..

- لأ المهم إنت .. حمدا لله على سلامتكم.. إنت مبسوطه..
الولد حلو زي ماما..

- لأنه زي بابا قمر..

.. ثم انعدلت وجلست على حافة سريرها وأمسكت بكف
يدها ورحت أقبله.. وكنت أريد أن أقول لها ساحيني.. ساحيني
على تخاريفي.. أنا ليه عملت كده.. أنا مالي ومال الستات..
هو كل ست تحكي لي حكايتها أسمعها وأقعد معاها في الكوفي
شوب.. ورحت أهز رأسي على مفارقات نفسي وأنني في
داخل مشتت بين النساء.. ورحت أفكر وأنا أمسك بيدها
وأراها جد مرهقة.. إن عليّ ألا أذهب إلى شبرا مرة ثانية.. إنني

ضعيف أمام شبرا.. إن شبرا مصر التي أخذت كثيرا من تاريخ حياتي وأنا شاب.. ما زالت هذه الشوارع وحواراتها وبنائها وميادينها تملأ رأسي بذكراياتها الجميلة التي عشت فيها وأنا في باكورة عمري عندما جئت إليها من القرية لأكمل دراستي الجامعية.. إن شبرا مصر في حياتي هي نقطة ضعفي لشدة حبي لها ولكثرة حكاياتي فيها مع نساء جميلات.. وإنه عليك ياسا زوجتي الحبيبة ماريانا والتي أمدت لي حياة أخرى مليئة بالحب والحياة والولد.. عليك أيتها السيدة المخدوعة في صبري أن تمنعني من أن يذهب إلى شبرا مرة أخرى لأنه ضعيف أمامها وأمام كل شيء فيها.. ولكن كيف لا أذهب إلى شبرا ومنها جذوري.. كل إخوتي وخالاتي وأخوالي وأقارب أُمي يقطنون في ميدان الخلفاوي وما حوله من شوارع وفي أغاخان وطوسون وبمسرة.. لا أعرف.. أليس لي أن أذهب مرة أخرى حتى أعرف حكاية سونيا مع هذا الرجل.. دعيني ياماريا ويسا مخلصه التي لا تدري بشيء أن أذهب للمرة الأخيرة لأعرف حكاية سونيا.. بعدها لن أذهب..

وفي اليوم التالي غادرت ماريانا مستشفى الميريلاند إلى بيتها في حي الزيتون، وكانت الأم الكبيرة حريصة على احتضان

الطفل ورعايته مع كل همسة أو طرفة عين تصدر من الصغير..
وكانت ماريانا تبسم إبتسامة تفرش وجهها نورا وصريري
يحتضنها ويقبل كف يديها ويتمدد في جوارها.. وكانت تتمم
بكلمات وكأها تغني ولما تعافت قليلا عادة متممة شفيتها
كلمات تخرج في رقة من فيها :

.. جانا الهنا جانا بإبراهيم.. والدار بقت جنة بإبراهيم..

زوحى ياماما إزرعى الورد والياسمين ..

ياما صبرت وأتميت جه بعدها أبو إبراهيم

دعيت بكل الأيمانات يرزقني الخلف

قبل دعايا في السما ربى ..

تمم علينا ربنا الفرح وجالنا إبراهيم

قومي ياماما زغردي وغنى وقولي معايا..

كلام الفرحانين.. أهلا يا إبراهيم..

سهلا يا إبراهيم.. قولى معايا ياماما..

يا رب نتهى بإبراهيم..

وكانت الأم الكبيرة تردد معها كلامها الجميل وتحتضن
إبراهيم.. البخور والعطور والورود ملأت البيت.. جلبها

صبري إليها ووضعها في كل غرف البيت ونثر الكثير منها في
غرفة ماريانا.. كأنه حلم يعيشه الثلاثة في بيت كان ساكنا لم
يدخله الفرحة طيلة حياتهم... ولما أراد الله من عليهم، وشعر
صبري بأن الله يمنّ عليه بالكثير وكأنه في حلم خارج كل
حدود المدينة الضبابية، ولما أحسّ بالفرحة والسعادة التي حوله
ويحملها قلب ومشاعر الأم الكبيرة وأم إبراهيم أيقن أنه في ذلك
المساء في شبرا كان قد خرج عن المألوف.. لماذا يتلون بلون
آخر من خارج زمانه.. أليس له أن يعيش زمانه ويتعد عن
زمان الآخرين.. ماله ومال سونيا وكامل جمعة وسامية وسميرة
وماله بزمان الآخرين.. أليس له أن يعيش حياته فقط وألا
يتلون بألوان الأرض المختلفة، حاول أن يعيش بكامل قواه في
بيته ويندمج في كل سعادتهم بولده.. إنه فعلا اندمج معهم
وفرحة وسيظل يفرح بها في حياته وأن إبراهيم أكمل وتمّ هذه
السعادة وأغرقه فيها، وكانت مشكلته أنه لا يستطيع أن يرى
امرأة لها قصة ولا يعرفها إنه يريد أن يتبع كل النساء الجميلات
اللائي سقطن في مجتمعه لأنهن اللائي غيرن لون الأرض وكان
شديد الحاجة لمعرفة الكيمياء التي بدلت أرض بلاده.. هل جاء
صبري من دائرة خارج الزمن ليجعل كل زمن لامرأة ملكا له..
كيف؟ كيف وسواد عينيها وجسدها الذي يصرخ فتنة وشعرها
وأكتافها وشفتيها القرمزيتان في فمها الصغير وغمزاتها التي

أحرقته لهيب قلبه.. هي امرأة كل العصور امرأة تلونت بها كل أنواع الأرض وفي كل الأزمنة وفي كل مكان في العالم وليست مدينته فقط.. وتساءل وكيف له بامرأة أخرى وله مثل هذه المرأة ماريانا.. أهي حالة نفسية أو جنونية أم هي حالة من حالات السفالة الدنيوية.. أم هو فعلا على يقين في أنه قادر على إصلاح حياة الآخرين.. وتوصل في شطحاته إلى أنه لو استطاع أن يوفر عملا شريفا لكل هؤلاء الناس يحقق لهم بعضا من الحياة الكريمة لعاد الناس إلى أصولهم وطبيعتهم.. ولكن كيف تحقيق ذلك إن العالم الذي حوله ليس ملكا له وهل يكفي معرفة حياة هؤلاء ولماذا يغير لون أرضهم.. عن ماذا يبحث صبري وهل الطريق الذي يتبعه صحيحا وليس فيه شوك يعوقه.. وهل الشوك يثنيه عما في رأسه..

كانت فاتن المنتقبة المطلقة من شاب ملتحي أذاقها البخل بكل أنواعه وعلمت من خلاله أن الرجال لهم أفواه نتنة وأرجل كعود كبريت ولا يستحمون ولا ينظفون أسنانهم بالفرشاة ولا يعرفون شيئا عن معاملة النساء.. تم الطلاق بينها وبينه بصعوبة حتى تنازلت عن كل حقوقها لكي تتخلص منه.. فاتن أم الخامسة والثلاثين عاما الجميلة الفارعة الطول المشوقة العود

صاحبة العيون الكحيلية إذا نظرت إليها من ثقب نقابها خلبت
لبك أو أحرقت لهيب شوقك.. ولدت فاتن من أم في إحدى
قرى المنصورة ولما جاءت إلى القاهرة مع والديها حيث وظيفة
والدها لم تكن تدرك أي شيء في الفترة التي قضتها طفلة في
بلدة أبيها وأمها.. كأني فتاة كُبرت وتعلّمت في المدارس ثم
دخلت كلية الحقوق.. ومضت السنوات حتى انتهت دراستها
وتعرّضت خلالها لعروض صداقة من الطلبة فرفضتهم جميعا
ومن المعيدين والمدرسين والأساتذة.. ورفضت جميع من تقدموا
لها من هؤلاء لأنها تدرك في داخل نفسها أنهم يريدون أن يتسلوا
بها وأن تكون مجرد تجربة كانت تعرف تماما في قرارة نفسها أن
الذي يحركهم جميعا هي الرغبة في داخل جسد كل منهم.. ولما
كانت تعود إلى بيت أبيها في مدينة السلام تحبس نفسها في
غرفتها وتبكي.. غير أنها كانت في أوقات كثيرة تهوى أن تخلع
ملابسها أمام المرأة ثم ترتديها وتتفرج على كل جزء من
جسدها.. كانت أمها قد تركتهم جميعا وتوفيت قبل أن تنتهي
من دراستها الجامعية، وكان أبوها موظفا بسيطا في هيئة
الصرف الصحي وأختها العاجزة قعيدة البيت.. كان عليها هي
أن تقوم بكل أعمال المنزل والتسوق وخدمة أختها العاجزة..
وكانت هذه الأخت سليطة اللسان مع أبيها وتعاتبه دائما
وتحمّله مسئولية إصابتها بشلل الأطفال لأنه أهمل تطعيمها..

وكان الرجل يهرب من قسوة وعتاب ابنته فيخرج من البيت
ليجلس في مقهى صغير مع صاحب له.. وفي يوم كانت
العاجزة قد وصلت إلى مرحلة تشبه الجنون فحشمت أبوها
ووبخته لضيق رزقه.. وكان الأب حنوناً يربت بيده على ظهرها
ويحاول تهدئتها.. فتقول له.. إذهب عني.. إغرب عن وجهي
وكأنا سيدة البيت أو أن أبيعها عبداً في بيتها.. وفي يوم قالت له
أنت فقير.. سافل.. لماذا لم تكن غنياً.. لماذا أنت فقير.. لماذا
يكسونا عمنا عادل كل صيف وكل شتاء.. ولما يقول لها.. لا
شأن لك بذلك إنه أخي ويعرف أنني على قد حالي وأنه
يساعدني طواعية من نفسه.. فكانت الابنة العاجزة العاقبة لأبيها
تقول له.. إنت بيئة.. إذهب إلى أي مكان وآتنا بالمال.. فلما
تشتد عليه في قسوتها يقول لها وماذا تفعلين بالمال وحالتك
الصحية لا تسمح باستخدامه أو التمتع به.. فإنها في هذه الحالة
تثور عليه وتحاول أن تأتي بأي شيء في تناول يدها لتلقي به في
وجهه.. وكالعادة يخرج الأب والدموع في عينيه من بيته إلى
المقهى أو إلى المسجد ليصلي.. ولما يعود إلى البيت يتداري وهو
يدخل إلى غرفة نومه حتى لا يلاقي منها شتيمة أخرى..
وكانت فاتن تدخل إليه لتسرى عنه وتطيب خاطره.. وتقول له
دائماً ليس على المريض حرج.. وفي يوم قالت له زوجها يا أبي
حتى تخلص منها.. فهزّ الرجل رأسه وقال لفاتن وكأنه يذكرها

بشيء لا تعرفه: كيف يتزوج أي رجل امرأة وفتاة عاجزة..
فتسكت فاتن وتقول لأبيها.. صحيح صحيح.. جلّ من لا
يسهو.. ولكن ما الحل يا أبي.. يسكت الرجل ويقول.. الحل
عند الله.. واشتدت الحالة العصبية التي تعيشها أختي عندما
خرج أبي على المعاش وبدأ يقضي أوقاتا طويلة في البيت..
وعرضت على أبي أن يجد عملا يقضي فيه وقته وليكون بعيدا
عن جو البيت وفي نفس الوقت تحسنا لمعاشه ولمعيشتنا التي
نعيشها بمعاش لا يصل إلى ربعمئة جنيه... وافق أبي ووجد
عملا في أحد مطاعم جسر السويس وتحسنت الأحوال المعيشية
وبدأ أبي في مجاملتها وتهدئتها كأن يقول لها كل يوم وهو خارج
إلى عمله ماذا تريدين.. ويأتي لها ما يستطيع من ما تطلبه..
وهدأت نفسيها قليلا وراحت تهدأ وتركن إلى أبيها.. وكان
الرجل حريصا على تلبية طلباتها وإسعادها وبالتالي حرص على
المواظبة في عمله..

.. كنت أخجل من نفسي رغم أني لم أقترف ما أخجل
منه.. كانت نظرات الرجال مشينة وفظيعة لي.. والعبارات
العارية التي يقولونها في وجهي وخلفي.. سواء كنت في السوق
أو عند صديقة وعائدة إلى البيت.. كنت في حاجة إلى الرجل..
لا أخفي عليك.. كنت في حاجة إلى رجل حقيقي يحبني وأحبه
ويحتويني بكل معنى الاحتواء.. ولكن أين هذا الرجل.. ألم

أجرب زعزوعة الرجال ومن أدراي أن يكون رجلا زعزوعة
مرة أخرى.. ولماذا الزواج.. ولماذا لا أنتقم من كل هذا الجحيم
الذي حولي.. ولماذا لا أكون خادعة للجميع.. بيت فقير وأب
مسكين مغلوب على أمره وأخت عاجزة سليطة اللسان ورجل
تزوجته كان خيبة الرجال وحيب نفسي أن أكون مرة أخرى
زوجة لرجل يكون مثله.. شعرت بأني محبطة نحو الرجال وأني
سوف أكون تجربة لهم إذا اخترت طريقة الزواج.. ولماذا لا
أكون حرة.. ولكن كيف أدافع عن جسدي وأن أتداري كيف
أخدع كل من حولي.. لماذا لا أكون غامضة لا يعرفني أحد
عندما يراني سواء كنت في مدينة السلام أو في طريقي لأي
مكان آخر.. لماذا لا أرتدي النقاب وأكون حرة طليقة.. سوف
أفعل الكثير دون أدني مضايقات وأنا أرتدي هذا الرداء.. لن
أكون زوجة ولن أكون لرجل واحد.. لا بد لي أن أخرج من
البيت الفقير وألا أبكي ثانية على أب مسكين ولن أكون
حبيسة في بيت ضحية لفتاة عاجزة تشتمني وتسخر مني مائة
مرة.. هذا الجحيم لا بد من الخروج منه.. لا بد من بيت
آخر.. وفي حي آخر.. ومن رجال آخرين أذهب أنا إليهم في
بيوتهم لأسجنهم فيها أو يكون هم جميعا سجناء يتبعونني وأنا
سجانتهم.. ورحت أفكر.. أقبل على أفكار هذه حيننا وأتردد
بعيدا عنها حيننا أخرى وبين هذا وذاك كنت أجد نفسي ملكة
حين أخلع ملابسني وأرتديها أمام المرأة.. كنت أشعر أنني امرأة
تختلف وأنه سيكون لي شأن آخر لو استخدمت جسدي وكنت

حرّة.. ولأنني في حي شعبي رديء لا بد لي من أن أتداري في
حريتي تلك وأرتدي النقاب..

استغرق حديثها عن نفسها وقتا طويلا واقترح عليها
صبري أن ينتقلا إلى مكان آخر يتناولان فيه بعض الطعام على
أن تكمل بقية حديثها بعد ذلك فوافقت.. وفي محل الشيراوي
يجسر السويس تناولا طعامهما وفي نفس المكان بقيا يحتسيان
بعض المشروبات وتكمل حديثها مع صبري والذي بدأه معها :

- أنت حاصلة على ليسانس الحقوق.. ألم تجربي العمل في
مهنتك..

- بعد وقت من تخرجي عملت في مكتب محامي لاكتساب
مهنة المحاماة وقطعت شهران وأنا أعمل في مكتبه بعدها وجدته
يحاول أن يقترب مني ويلمس جسدي مرّة ويمسك بأصابعي
أخرى.. وفي يوم طلبني في مكتبه في صباح أحد الأيام ولما
ذهبت إليه حكى لي قصة حياته وتناولت معه طعاما وبعد أن
عملت له الشاي قال .. أريدك أن تكوني مديرة مكنتي بجانب
تدريبك على المحاماة فوافقت ثم قال زوجتي أريد تطليقها فقلت
له إعمل ما بدالك ثم قال في النهاية أريدك أن تكوني صديقتي
فقلت له كيف قال أودعك أسرار فقلت له موافقة وماذا بعد
يا سيدي بعدما حسيت إنه هايلخبط.. فقال أريدك الآن فقلت

له أنا معك.. ويبدو أنه فهم غلط فقال في مفاجأة لي.. إقلعي..
خشّي جوه في الأوضه الجوانية فيها سرير.. أدخلني واقلعي..
فقلت له بعد الخضة الفظيعة التي أصيبت بها.. طيب تحت أمرك
بس بلاش النهاردة علشان تعبانه أوي دا أول يوم في الدورة
الشهرية خلتها بعد أسبوع تحت أمرك.. فقال والله دا وعد..
طبعا عيب يا أستاذ.. فسعد وقال يعني خلاص إتفقنا.. موافقة
طبعا هوّ أنا عيلة.. وكان لي عنده متين جنيه فقلت له أنسا لي
متين وعايزه عليهم متين كمان سلف علشان عندي ظروف
فقال تحت أمرك.. لأ متين وفوقهم تلتमित جنيه مش سلف دا
عربون اتفقنا.. أنا تحت أمرك من هنا ورايح.. وخرجت من
مكتبه هذا اليوم دون عودة وكانت هذه أول ضحكة على
رجل في حياتي.

- وبعدين اشتغلت في حنة تانية..

- إشتغلت في مكتب محامية.. قلت أحاول أن اتعلم المهنة
عندها وبلاش الرجالة علشان القلع.. عملت عند هذه المحامية
ثلاثة شهور والأمور كانت حلوة.. شوية شوية راحت تغالبي
وتبوسني وتحضني بمناسبة ومن غير مناسبة.. وسكنت.. فقال
صبري :

- وبعدين ..

- في يوم استفردت بيّ في المكتب وقالت لي إقلعي..
وسكنت..

- قلعت ..

- بصراحة قلعت علشان وأحدة ست مش هاتضرني وكنت
باسمع عن الحاجات دي وقلت أجرب وعملت معايا كل حاجة
بتتعمل بين الستات وبصراحة أنا إنسبطت لأول مرة في حياتي
وعرفت قيمة ومتعة الجسد وقلت ياه دا أنا عندي كتر وزادت
عندي الثقة في أن أكون حرّة وكيف يكون جسدي أداتي..

- وبعدين ..

- بكفاية كده النهاردة أنا تعبت

- إنت تباخدي كام في الليلة..

- حسب الزبون..

- النهاردة عندك مواعيد..

- لسه

- خلّسي الليلة بتاعتي ..

- شقتك فين..

- لأ مش ها نروح الشقة..

- أمّال فين..

- أقصد كملي حكايتك معايا.. أقصد كملي حكايتك بعد
كده عملت إليه.. البداية كانت إيه.. نروحو نقعد في مكان
تاني وهاديك خمسيت جنيه مقابل وقتك..

- يعني نص ليلة.. ما فيش مشكلة.. وإيه فائدة ما
أحكملك..

- علشان أبقي عرف حكاية ثلاث ستات..

- والباقي ..

- بكفاية إنت واتنين نموذج نقيس عليه الباقي..

- وبعدين ..

- أنا نفسي مش عارف ..

- طيب ياله نمشي من هنا المكان ضيق وأنا اتخنقت ..

وأخذتها وذهبنا إلى حديقة الميريلاند حيث الموسيقى والغناء
وجداول الأوز.. وهناك انفرجت أساريرها وقالت :

- أشعر أنني سعيدة هنا..

- هذا هو المراد.. وبعدين..

- حكايتي طويلة أوي ..

- معاك للصبح..

- إنت عارف أنا عايزة إيه دلوقت..

- لأ مش عارف...

- عايزه أروح للمحامية

ولم تستطع أن تنيس بكلمة أخرى وكانت جد ضجرة لأنها تريد أن يأخذها إلى الشقة.. كانت تريدني ولكنني أمسكت بيدها وقلت لها حتى تهدأ قليلاً.. لازم آخذ شقة عشانك.. وكانت المفاجأة أنها أخبرتني بأن لها بيتا في مكان بعيد في ضواحي العاصمة تأخذ إليه نوعية معينة من الرجال.. وكانت تقود عربتها بعصية وودعتها عند فندق السلام وتواعدنا أن أذهب معها في يوم إلى بيتها في الضواحي لنكمل حكايتها..

لم يكن بيت فاتن في الضواحي.. هو بيت في المقابر مقابل مساكن الدراسة أجرته فاتن من حارس مقابر نجم الدين باشا.. هو غرفة وحمام.. نظيفة بها كل الإثاث العصري ومعها مفتاحها والحارس أجرها لها بمبلغ خيالي وهي التي قامت بتجهيزها وتشطيبها والعقد إيجار قديم وهو مؤجر من الخفير لها وكأنه يملك المكان وحتى لا يغدر بها في أي وقت عرفته أنها قريبة لأحد ضباط الشرطة الكبار في أحد الأقسام القريبة وحتى تجعل ذلك صمام أمان لها.. وحقيقة كان للحارس مصلحة في هذا القسم فأرسلته إلى هذه الرتبة فقضاها له وأوصاه بها خيرا.. ومن وقتها وحارس المقابر يضرب تعظيم سلام لفاتن كلما ذهبت إلى بيتها هذا أو خرجت منه..

.. ذهب معها وشيء من العيشية في داخل نفسه المريضة الجنونة بمعرفة حياة هؤلاء النسوة وكانت هذه العيشية التي تداعب نفسه تتساوى مع كل ألوان الإنحراف الأخرى لأنه يضع نفسه نظريا في طريق الخطر مع نسوة خطيرات.. كل واحدة منهن تهوى الانتقام من المجتمع بشكل عميق في داخل نفوسهن.. كان شيء من اللامبالاة أو الجسارة أو تغيير للحياة ونمطها التي يعيشها بين بيت ماريانا وزوجته وأولاده وابنه المعتقل.. دخل البيت وهي تتقدمه والخفير يرحب :

- مرحبا يا باشا مرحبا.. وينحني فقال له صبري في
صرامة :

- إنت منين..

- من هنا يا باشا..

فقلت للحارس :

- دا باشا كبير أوي يا فرغلي..

- عارف عارف.. هو سعادتك تعرفني غير الباشوات
الكبار.. أنا تحت أمرك يا باشا..

ولما دخلا البيت اندهش صبري من جمال الغرفة والأثاث بها
فقال وهو يجلس على مقعد قرب فراشها:

- كأنك في جزيرة بعيدة.. مش بعيد دا احنا في وسط
البلد..

- علشان تعرف إني واحدة بتفكر كويس أوي.. بعيد عن
الدوشة والناس وبقرشك تخللي كل الناس يخدموك..

- حاجة غريبة.. بيت في المقابر بهذه الشياكة..

- مش كده وبس.. هنا فرغلي ده يجيب لك الممنوع..

- إنت .

- حشيش أفيون كل أنواع الفياجرا..
- إنتي بس هنا.. أكيد فيه حد عرفك بأن هنا ممكن كل شيء يبقه تمام..
- واحدة صاحبيتي.. ساكنة قريب من هنا عاملة حاجة مخصوص زي دي..
- أنا جعان..
- تاكل إيه.. كباب .. سمك .. جمبري..
- على حسايي..
- حسايي وحسابك واحد..
- أكل سمك.. مين هايحب لك...
- فرغلي وفسبته ساعة يكون السمك أدامك..
- .. فتحت الباب ونادت الحارس وفي كلمة واحدة قالت :
- سمك يا فرغلي.. مشوي.. ثلاث كيلو ولزومه.. وهات شوية فاكهة.. معاك فلوس..
- حاضر يا باشا تحت أمرك.. معايا كل حاجة..
- ما تتأخرش..

ودخلت إليه وقفلت النافذة المطلة على الشارع المظلم.. ولما اقتربت منه كانت قد نزعَت باقي قطع ملابس النقاب فوجدتها ترتدي البنطلون الجيتر وبلوزة تحت حزام وسطها خلعتُها وارتمت على فراشها وقالت :

- ماذا تريد

- لا شيء..

- ولماذا جئت معي..

- لأسمع قصتك..

- وماذا بعد ..

- سأنصرف..

- أنت الآن في مملكتي.. لن تنصرف إلا بأمرى..

- أرجوك إهدئي.. احكي لي..

- من أول الحكاية.. يعني أول طريقي مع الحرية..

- لو سمحت..

.. الأهل في البداية تعبت من الحياة الضيقة في هذا الحي ومن مشاكل الفقراء وكان بيتنا منهم.. مللت الحاجة والحرمان والعوز وشح الأزواج.. في يوم خرجت من بيت أبي الخانق

وأدرت ظهري لكل من كان خلفي وأخبرت أبي وأختي بأنني ذاهبة إلى العباسية لأقضى اليوم مع صديقتي هناك.. مشيت في شوارع روكسي وتفردت على ما يخص النساء في محلات سوقها ثم غادرتهما إلى شارع فؤاد في وسط البلد.. ولم يكن يشغلني عن حالة المشي في الشوارع إلا الفرجة على المحلات كما فعلت في روكسي.. وقفت لي السيارات.. عاكسي الشباب ورجال من مختلف الأعمار.. كنت مترددة في كل شيء وظللت أتابع السير وسط البلد حتى مللت

شوارعها لأنني لم أكن أبحث عن شيء واحد.. كنت تائهة حتى أوصلي ترددي وتيهي إلى كورنيش النيل ومشيت على كوبري قصر النيل حتى وصلت إلى الناحية الأخرى ميدان الأوبرا.. ومن كشك في الشارع المؤدي إلى النادي الأهلي اشتريت بسكوتا ووقفت أقضمه بين الكشك وبين نادي المعلمين.. كان عقلي يكاد يفّر من رأسي وجسدي المهودود بدأ يتهاوى من كثرة التسكع في الشوارع.. وتمتيت في اللحظة أن أكون في بيت أبي لأرتمي في فراشي وأستريح.. وفي تلك اللحظة إذا برجل طويل القامة شديد البنيان يقترب مني قائلاً في أدب :

- ممكن أكلمك.. عايز أتعرف بيك ممكن..

ابتسمت وقلت :

- وإيه الفائدة.. أنا تعبانة من الدنيا كلها هاتعملي إيه..

- ها عمل كثير.. تحت أمرك..

- إزاي ..

- ممكن نقعد ونتكلم ..

- ممكن ..

- تحبي تقعد فين ..

- في أي حته..

- تعالى نعدّي .. قصر النيل أدامنا..

.. قبل أن يأتي الرجل كنت جد متعبة ولما جلست قبالته في

كازينو قصر النيل ذهب عني التعب كثيرا.. لأول مرة أقعد في

كازينو.. وكان منظر البواخر الصغيرة والصنادل والقوارب التي

تعبير ماء النهر في حركة شبه منتظمة تريحني فرحت أتأملها عن

كثب.. وكانت بنايات جاردن سيتي في الناحية الأخرى من

النهر شاهقة عالية تكاد تلاصق بعض السحب في الأفق..

وقلت لنفسي أهذا الجمال في مدينتي وأتعب وأتوه.. لما لا

تكون هذه اللحظة بداية حياة جديدة وأنسى بيتي ومدينة

السلام.. وكان الرجل يبتسم وهو يرقبني.. وأغدق كلماته

الحلوة وكأنه لم ير مثلي من قبل وكنت أبادله الابتسامة
وأشكره على مجاملته.. وجاء الجرسون بشراب ولما انصرف
قلت له :

- عايز مني إيه..
- أتعرف بيكى ..
- ها تعمل بيّا إيه.. أنا واحدة زي كل الستات..
- لأ.. ما فيش ستات بالشياكة والجمال ده..
- إنت بتبالغ ..
- هي دي الحقيقة..
- إنت مين ..
- أنا سمير محي تاجر سيارات.. عندي أجنس في شبرا قرب
النيل..
- متجوز ..
- أرمل ..
- عندك ولاد..
- بنت وحيدة ومتجوزة في اسكندرية..
- إيجوز.. مش بتجوز ليه..

- خلاص جرّبت حظي.. وأنا دلسوقي منشغول أوي في شغلي مافيش وقت..
- طيب عايز منّي إيه ..
- إنت متجوزة ..
- مطلقة ..
- يعني وحيدة زّي .. إسمك إيه..
- فاتن..
- منين ..
- من كل مصر ..
- حلو كلامك أوي ..
- إنت مجامل..
- ممكن نتغدّي سوا
- أنا فعلا جعانة بس ماليش نفس..
- نفتح نفس بعض.. تاكلي إيه ..
- اللي تجيبه ..

وتناولنا طعاما شهيا ومرّ الوقت بسرعة وشعرت بأنني لا
أشعر بشيء.. تائهة مرّة أخرى.. لكن كان هناك شيئا في
داخلي يرتاح نحوه وتركت نفسي له.. كلّما قال كلاما أو رأيا
في شيء أوافقه عليه.. ومرّ وقت آخر لاذ كلانا بالصمت
وقطع صمتنا قائلا :

- ممكن تشوفي بيتي..

- فين بيتك

- عالليل بعد روض الفرج..

ومشينا حتى باب النادي الأهلي حيث يركن عربته وركبت
بجواره طواعية ولما وقفت معه في المصعد حتى الطابق العاشر
مسك بكف يدي وشدّ عليه فألقيت رأسي على كتفه وشعرت
أنني استسلمت.. ولما دخلت معه قفل الباب ثم شدّني إليه
واحتضني وقبّل رأسي وشعرت بجسده يلامسني فألقيت بحقيبي
على مقعد.. وهرولت إلى حمامه.. أمضيت وقتا في الحمام
وشطفت جسدي بالماء الفاتر ومشطت شعري وكم كنت أتمنى
أن أبدل ملابسني.. وخرجت إليه وأنا أرتدي ملابسني كما
دخلت بها فقال :

- ترقصي معايا ..

- مش بعرف ..

- أعلمك ..

ورحت أرقص معه الرقص الأفرنجي على موسيقى هادئة
وكان هو الذي يحركني وكان يشدني إليه وبقوة ويلامني بقوة
ثم يبعدي حتى شعرت بأن أريد أن أذهب إلى فراشه.. إنهارت
قواي وأريد أن أعطه كل جسدي.. أريد أن استسلم لهذا
الرجل.. بعد ذلك راح يقبلي ويضميني إليه في رقة بالغة لم
أشعر بها في حياتي من قبل.. وكانت رعشي شديدة تسرى في
جسدي من شعر رأسي حتى أسفل خصري.. هل سيتزوجني
الليلة.. هل يخترق هذا الجسد الذي لم يكتشفه رجل من قبل..
هل يستطيع أن يشعرني بأني امرأة.. وأخذني إلى الفراش
وانطويت تحته وهماويت وجرّدي من ملابسي ورقة بعد أخرى
وراح يداعبني كثيرا حتى رحت في غيبوبة لذيدة كأنني أحلم..
إن هذا الرجل يعشقني نعم أنا عاشقته ليته يظل معي
أبدا.. وبكامل إرادتي منحته جسدي ورحت أحلم معه وأتمتع
حتى أنني شعرت بأني أولد من جديد وأن هذه المرأة.. هي
أنا.. وأن هذا رجل حقيقي..

بلغت الساعة العاشرة ونحن مازلنا في حلم قد يأخذنا حتى
الصباح.. لكنني اعتذرت له وطلبت منه أن أغادره.. ولو

تركت نفسي لنفسي لبقيت معه حتى آخر عمري.. وأصرّ أن
يوصلني إلى مدينتي البعيدة في شرق القاهرة لكنه عرج بمركبته
نحو العتبة واشتري لي محمولا.. وفي الطريق حتى منشية البكري
حدثني كثيرا عن حياته وقرب مدينة السلام أخرج نقودا ورقية
ودسها في يدي قائلا :

- أرجوك .. إقبلها مني.. وعلى استحياء قلت له :

- لا أريد نقودا.. أريدك.. أنت..

- إنت كلك ذوق.. إنت كلك مشاعر جميلة.. إنت أحلى

ست في الدنيا ..

- صحيح ..

- صحيح والله ..

- إنت الدنيا الجميلة اللي ما شفتهاش قبل كده ..

.. وأعربت عن فجورها فنخلعت بنظلوها وعادت عارضة.

واتعدلت على جنبها غير مبالية متابعة سرد حكايتها :

- دخلت البيت على أطراف أصابعي وكان الليل قد

انتصف.. وجدت أبي نائما في غرفته وأختي هي الأخرى نائمة

لا تدري بي.. وسعدت بذلك ودخلت غرفتي خلعت ملابسي
وأخذت ملابس أخرى ودخلت الحمام لاستحم وغنيت
أغنيات لصباح وفايزة بصوت مسموع فأنا الآن في داخل
شقتنا.. وفي المرأة وجدت عيني واسعة كأنني رأيت بها دنيا
جديدة وقلت لنفسي وأنا أضحك بصوت عال.. يا فاجرة..
ونمت حتى ظهر اليوم التالي وخرجت إلى صالة البيت وجلست
مع أختي وتحدثت معها كثيرا وأخبرتها أن صديقتي أهدتني بهذا
الموبايل فاندعشت قائلة.. هو فيه حد في وسطنا بيهادي
بكده.. ولم أبالي.. وخرج أبي لصلاة العصر ولما رجع أعطاني
تلمية وخمسين جنيه هو باقي معاشه لأشتري لزوم البيت
وأمشي الشهر كالعادة.. وقلت لنفسي يا حسرة كنا بنعيش
إزاي بالفلوس دي.. وكدت أطير من الفرح عندما وجدت في
ظرف سمير الذي دسه في يدي خمسين جنيه.. وحلفت أجب
اللي نفسنا فيه كله وما جنبهوش قبل كده.. وسألت أختي
نفسها في إيه فأخبرتني إنها تريد تفاحا.. لن أطيل عليك..
رحت السوق جبت ما لا يخطر على بال.. وما لم يدخل بيتنا
من قبل.. ولما رأى أبي كل هذا إندهش وقال: دا كثير أوي يا
فاتن جبتي دا كله منين.. رديت عليه في هدوء.. أصل صديقتي
إدتني قرشين سلف يا بابا.. فقال هوّ فيه حد بيدي سلف
دلوقتي.. قلت له يا بابا مانا هاشتغل قريب وهارد لها الفلوس..

ما تشيلش هم.. فقال أبي وهو يدعو لي.. يا ريت يا بنتي
تطلعي من البيت وتشتغلي وتتجوزي.. ربنا كريم يا بنتي.. أظن
كفاية كده يا أستاذ صبري..

- لأ مش كفاية كملي.. رحتي لسمير تاني..

- تاني وتالت قعدت أسبوع أروح له.. وكل مرة ربعمية
خمسية.. وبعدين.. وسكتت..

- وبعدين إيه..

- في يوم واحنا مبسوطين أوي مع بعض قلت له اتجوزني
فسكت.. ولما ضغطت عليه في أمر زواجي في أيام أخرى..
إنقلب فجأة وقال بصوت عال :

- إزاي.. قلت له زي الناس.. هو أنا وحشة ماليئش بالمقام
فتعصب أكثر وقال :

- إزاي أتجوز واحدة رقدت لي في منتهى السهولة..

- قمت وارترديت ملابسني وشتمته شتيمة مغمسة من بتاعة
مدينة السلام وخرجت من بيته بلا عودة..

- وبعدين..

- بعدها لبست النقاب ورتبت الأمور.. خلاص بقه عندي
خبرة وابتديت أعرف ناس كويسة..

- يعني إيه كويسة.. ناس ما يقلش الواحد عن خمسين سنة.. وناس في وظائف محترمة وأصحاب أعمال ومصانع ومحلات وتجار وصحفيين ومحاسبين ومهندسين.. كدة من واحد لواحد..

- بقة ليك كتير في الموضوع ده..

- سنة ..

- خلّصت كل الرجالة ولاد الناس..

- لسه ..

- عملت كام ألف ..

- جبت العربية وخذت البيت ده.. وخلّيت أبويا واحتي

عايشين كويس وجبت ليهم شغالة..

- والخطة الجاية..

- أشترى شقة ..

- مش حرام عليك تعملي كده بالنقاب ..

- أعتذر لكل منتقبة .. أنا مش أد النقاب.. النقاب يداريني

بس.. أنا مش متدينة وعمري ما كنت متدينة ولكن ربنا

جوايه..

- إنت بعيدة أوي عن ربنا.. إرجعي زي ما كنتي.. وها
تتجوزي..

- أتجوز مين.. ومين يتجوز من مدينة السلام.. السواقين
بس همّ اللي بيتجوزوا منها ..

- أبدا مدينة السلام فيها الناس المكافحين والمظلومين
والعجائين والفرانيين و ..

- أعمل بده كله إيه.. عرضت على سمير الجواز احتقرني
وقال إني رقدت له.. قلت له هابقة مخلصه لك.. قال وإيش
ضمّني..

- الحقني نفسك وتعالى اشتغلي معايا في الستتر يعني في
حدود شهر نبتدي .. شوفت آخرة الرقاد..

- بكام ها تشغلي عندك..

- مش أقل من ألف وتعيشي شريفة وتاكلني لقمة حلال وها
تلاقي اللي يتجوزك بس إنوي..

- مينفعش.. أنا بقه لي سنة شوف عملت إيه..

- ها تخلصي بسرعة ومفيش راجل ها يعبرك بعد كده..

- مش أقل من عشر سنين أكون عملتهم وبعدت عن كل

الفقر..

- بالعكس الفقر هايجيلك في حاجات تانية.. في صحتك في دماغك.. على فكرة كل النسوان اللي بيمشوا في السكة دي آخرها بيتجننوا أو بيتحروا.. صدقيني دي سكة آخرها سودة..
- لا مينفعش.. ماقدرش أرجع تاني..
- جبتي كام راجل هنا ..
- إنت أول راجل.. علشان تعرف مقدارك عندي..
- على فكرة عايزك تحاولي تخدميني..
- في إيه..
- تعرفي رتبة في البوليس..
- أعرف..
- على فكرة ليّ ابن سنه صغير أوي واعتقلوه..
- يا نهار إسود ليه.. وساكت يا برودك يا أخي.. يا حبيب مامته..
- يا فاتن مفيش وقت لللولولة.. بكينا كثير وحزننا أكثر..
- مستعد أدفع خميس ألف بس تعاووني معايا.. إنت عارفه ناس بصحيح..
- بقولك أعرف عمداً ولواءات..

- من جنيه لخمسين ألف..
 - لأنا سبت جدعة أوي من غير فلوس أنا اللي هادفع..
- إسمه إيه..

- محمود..
- يا حبة عيني يا محمود..
- إمتي تردي عليّ ..
- إديني كل بياناته..

وأخرجت ورقة من ورقات معي بصفة دائمة فيها كل
بيانات محمود.. وأخذتها والدموع في عينيها وقالت :

- حبيب قلبي بقة له كام سنة..
- أربع سنين..
- يا لهوي وسأكت..
- لأ تايه بس.. لو مش تايه ما كنتش جيت معاك..
- يعني إنت تايه وأنا مرادك..
- زي ما إنت عايزة يا فاتن المهم حاولي تخلصي الموضوع
ده بطريقتك..

- سيبها على الله.. تعالي جنبي.

- أنا متحوز يا فاتن اختشي وحزين على ابني..
- ما ليش دعوة جوازك... ورقعت ضحكة أفلقت
الأموات في قبورهم..

⊙
- حرام عليك .. فرغلي هايسمعك..

- كُ... دا معرّص .. أنا يهمني حد.. متحوز جايلي
ليه.. علشان خاطر ابنك تعالى علشان ما تزعلش عليه أوي ..
دانا دوا يا صبري بيه..

⊙ - معلش سماحيني النهاردة خليها في يوم تاني..

- هوّ إنت نغة.. عيّل صغير عيب عليك تعالى يا صبري..
أحسن أقوم لك..

- ما فيش فائدة أنا لوح تلج ..

- إنت راجل غريب ما عندكش إحساس هوّ أنا جبتك هنا
ليه..

- معلش خللي المرة دي تعارف.. عرفت قصتك وعرضت
عليك الحلال..

- يعني توعدني تيجي معايا تاني..

- أوعدك.. بس خلصّي موضوع محمود..

- خلاص يا صبري.. أنا جاية معاك.. ضيعت عليّ الليلة..

كالعادة كانت شديدة القلق عليه لقد انتصف الليل ولم يأت إلى أين ذهب.. ولو أنها كانت تعلم بتفاصيل آخر حكاية له مع فاتن لشقت قلبه بأظافرها.. وقعدت في فراشها ترضع إبراهيم من صدرها وأذنها تنصت لأنها تسمع وقع أقدامه على الدرج قبل أن يطرق الباب.. ومضي بعض الوقت ومع دقائق ساعة البيت الواحدة والنصف طرق صبري الباب فهلعت إليه وشدت الباب بعنف حتى خبط الحائط وقالت في ألم :

- حرام عليك كنت فين قافل الموبايل ليه.. كنت مع

همين..

وارتمت على صدره المسكينة تبكي بحرقة.. لكنه راح يربت على كتفها ويقبل رأسها وحملها إلى الفراش حيث يرقد ولده الذي قبله منحنيا فوقه بجنان وكان إبراهيم يغط في نوم عميق.. وأمسك يدها كالعادة وراح يقبل أناملها وهو يقول .. إنني أقضي مصالح.. كنت مع أحد موردي الماكينات والعدد والأدوات للمصنع.. أسعار وأصناف وفلوس وحكايات وروايات إنت عارفة إن موردين المكن دول كان أصلهم

أسطوات والأسطوات زي الحلاقين رغاين.. وكالعادة تنسال
الدموع من عينيها وتطمئن ثم تحتضنه.. وقالت له هذه المرة :

- إذا كنت مع الناس الغلابة فأنا من الناس الغلابة.. ،إذا
كنت مع الأسطوات فأنا برضه أسطى.. وأخذ كل منهما
يضحك من أعماقه.. وقام ليخلع ملابسه ويرتدي ملابس النوم
وقال وهو يجلس على حافة السرير :

- المشكلة مش في الناس الغلابة.. الغلبان بتجيبه وتشغله..
لكن الناس اللي راحت في دنيا تانية عمرهم ماهاي رجعوا..

- تقصد النسوان اللي شافت حالها ..

- أيوه دول لقوا الطريق دا فلوسه كثير حالتهم النفسية
اتغيرت وكل واحدة منهن تبتز أي راجل خاصة التجار
وأصحاب الأعمال بيصفوا حساباتهم..

- أسوأ شيء في أي مجتمع إن الناس تدخل دائرة الانتقام
وكل ما المجتمع افتقر وبقت دخوله هشة دوائر الانتقام بتقطع
المجتمع كله لأن الناس بتحارب نفسها وبتهدر القيم
الاجتماعية..

- هي المشكلة دلوقتي إن كل واحد في البلد مش شايف
غير نفسه.. المجتمع ساب أي راجل دلوقتي مش عارف مراته

بتروح فين وأخته مع مين وبنته بتروح الجامعة ولا لأ.. وما فيش حد يبسأل الثاني لأن السؤال بيعتبروه تدخل في حريتهم الشخصية.

- كل الناس حاسة بكده ويتكلموا بس ما حدش يقول حل لأن الحلول الإجتماعية في أيد من يملك.. يعني عايز توفر أعمال شريفة للناس لازم فلوس تبني مصانع وتعمل شركات ودي في إيد الناس اللي بتسيطر على ثروة البلد والمشكلة أن الناس اللي المفروض تعمل كده بتسرق ثروة البلد علني في صور مختلفة وعيني عينك وما يقدرش أي حد يعمل حاجة لأن الحرية سقطت من زمان والعدل راح شوية شوية والكرباج شغال والسجون مفتوحة..

- أنا في دماغي حاجات كثير عايز أعملها..

- خللي في دماغك حاجة واحدة..

- أنا نفسي أركز في حاجة واحدة..

- خلص البرج واعمل المصنع وأقسام البيع والتوزيع ولم الناس اللي في شوارع حينا بس كفاية وشغلهم وبكفاية علينا حي الزيتون والحلمية نحل مشاكل البطالة فيها ونعمل للناس

حقوق عمل ومرتبات تحقق ليهم حياة كريمة.. تعرف يا صبري
إنت عيبك إيه.. وسكتت.. فقال لا :

- قولي عيبي إيه..

- وما تزعلش يا حبيبي.. والله ما تزعل..

- قول لي والله ما هازعل..

- إنك بتتكلم كثير عن الناس من غير ما تعمل حاجة
ليهم.. وبتدور على مشاكل الناس في شكل حكاوي
وفاكرانك ها تصلح الكون وبتتفلسف زيادة عن اللزوم ومش
واقعي.. إنت بتوه يا صبري.. الحياة والدنيا متوهأك من واقعك
ومني حتى أنت مع نفسك تايه.. عيش معنا بس حد يسبب
برج زي ده ويروح للأسطوات والناس اللي انخرفت.. إنت
مالك ومال النسوان اللي بقت مومس. ما لنا ومال كامل
وجمعة ومراته و.. و.. إنت فاكر إني مش حاسة بيك.. حاسة
بكل حاجة وسيياك بقول ربنا يهديه ويرجع معنا بكل مشاعره
وفكره.. هوّ فيه حد يلاقي الثروة دي وابنك إبراهيم الطفل
وأنا وابنك محمود المعتقل من سنين ومش عارف تطلّعه.. أقسم
بالله إنت لو ركزت شوية في حياتك ها تعمل حاجات كثير..
هوّ فيه حد يسبب ابنه كده في المعتقل ومعاه فلوس الدنيا ومش
عارف طريق سكة.. دا الناس الغلابة اللي أقل منك بكثير

شافت سكك وطلعت ولادها.. وانت تايه ومشتت ياريت
تعيش الواقع بتاعك مية المية.. إذا عشت واقعك القوي هذا وما
جرتش ورا واقع الناس واقعك القوي ها يحل مشاكل كثير من
الناس بشكل طبيعي وبدوران الحياة وبسنة الحياة.. تعرف إحنا
عيننا كلنا إيه.. بتكلم كثير زيادة عن اللزوم يا ريت: لو كل
واحد يشوف حاله من غير كلام.. أنا عارفة انك زاجل نبيل
جدا وتبحث عن حلول وتحب تشارك الناس مشاكلها وعازي
الناس كلها تبقة كويسة.. هذه حقيقة إنت راجل بتعيش
بشفافية عالية جدا وده ما ينفعش في مجتمع زي ده.. إرجع يا
صبري عيش بواقعية في حالك بس وإذا انصلح حالك هاينصلح
حال مية جنبك وماعنديش كلام أقوله أكثر من كده.. يا
حبيبي أنا مراتك وحببتك وده ابنك إبراهيم خد بالك منه ومني
خد بالك من محمد وبسنت.. وأول حاجة نذور عليها كلنا
معاك نطلع محمود المسكين الغلبان البريء من معتقله كفاية كده
على الولد.. ما عنديش كلام تاني وإذا كنت غلطت فيك
اضريني يا صبري أعمل اللي إنت عازيه فيا بعد الكلام ده..
أرجوك إصحى يا صبري..

وراحت ماريانا تبكي بصوت عال ولم يستطع أن يثنيها عن
بكائها الشديد لأنه راح يبكي معها بصوت أعلي من صوتها ..

.. وإذا كنت ترى هموم الناس وآلامهم وتشعر بها أكثر من همومك فلا بد من تحرر سياسي يحقق آمالنا ويحل مشاكلنا في الحياة.. وعندما يصل إلى الناس جميعا بأن معيشتهم لا ترضى أحدا فنحن إذا وصلنا إلى قمة الفردية التي يحياها كل منا منكمنا على نفسه، فهل الخوف صنع الانكفاء والاختفاء وأن حياة كل منا تحت الصفر.. إنه حتى الحصول على الحقوق المادية المكفولة لفئة ما لا تؤدي إلى تحررهم بقدر ما تؤدي إلى تحقيق أهداف بطونهم وفروجهم وفي إشباع هذين المطلبين فقط هو هزيمة للعقل والإرادة الإنسانية لأن إحياء العقل هو النضال المستمر والطريق الوحيد لكي ينال الناس حقوق الحرية والعدل، لكن نحن في مجتمعنا نجري جميعا لإشباع البطن حتى ولو كان الطعام فول بسوسه وجبنه بدودها.. وإحياء الفرج حتى ولو كانت امرأة شرشوحة أو حمارة ترتدي ثوب امرأة وهذا هو الانحطاط الذي وصلت إليه كثير من المجتمعات المتخلفة.. ويجب علينا في مجتمعنا أن نترع أنفسنا من هذا الانحدار، ولن يكون ذلك إلا بتحقيق حقوق وواجبات متساوية ومتوازنة لكل أفراد المجتمع بالعدل وأن يكون كل إنسان في ذلك قد حصل قدرا كبيرا من الحرية مع نفسه ومع مجتمعه ولن يكون كل ذلك إلا إذا حصل

كل فرد في مجتمعه على القمة من رغيف خبز يوزع على الجميع بالعدل، ولا بد لكل مجتمع في هذه الدنيا أن يزرع طعامه حتى ولو كان ذرة صفراء ليخبز منها أردأ أنواع الخبز. ليأكله.. المهم عندي خبزي حتى ولو كان بتاوا ناشفا وهذه حقيقة أول الطريق أن تكون حرا وسيدا ولا تنتظر القمح من أحد حتى ولو كان هذا القمح يعطينا جاتوهات.. كن حرا وكل من إناء بيتك حتى ولو كان لقيمات خبز جافة، المهم أن يغنيك ما زرعت عن الناس.. أم أنك تريد أن يطعمك الغير جاتوها وتنتظر قمحه وتنتظر مساعدته لك. وتبقى أبدا عبدا ذليلا.. إذا أردت حقا أن تكون سيدا فزرع ما تأكل واصنع ما تلبس وما تتركب.. إننا ندرج تحت سمات مجتمع أجساد بلا رأس.. أين رؤوسنا.. متى طارت وهل نمشي ونرى حياتنا حقيقة أم أننا أصبنا بالعمي ونعيش في الحياة ونحن نبرطش في الطريق بالبراطيش.. ليس لنا رؤوس وأصبحت رؤوسنا تحت إرتديناها في أقدامنا براطيش.. إننا نختنق ونختنق لأننا جميعا نتقاتل على الفتافيت التي ألقاها لنا اللصوص وعدنا جميعا في مستنقع الفقر..

.. وقامت ماريانا وهو يكلم نفسه ويفتح نافذة الغرفة

متطلعا إلى الأفق واحتضته من ظهره وقالت:

- يا حبيبي.. تعبتني معك وأشعرُ أنني متعبة جدا وأن جسدي لم يعد لي..

.. ومرّت أطراف يديها أمام وجهه وهي تطفق :

- لامس أصابعي إنني لا أشعر بها.. إمسك أصابعي بقوة حتى أحسّها وأنها مازالت ضمن أعضاء جسدي..

وأمسك بأناملها وراح يضغط عليها فشعرت بها وقالت :

- الحمد لله إنها ما زالت معي..

ورجعت تحتضنه بقوة من ظهره كأنها تمسكه أن يفر منها وألقت بوجهها قرب كتفه وتابعت تقول وكأنها ترجوه رجاءً عميقا كما رجته كثيرا كل يوم..

- لا تكن فيلسوفا فالفلاسفة عاشوا في زمن قلم وكان كل شيء حولهم يسير في ببطء..

- أبدا أنا أتكلّم عن الحالة العامة.. ولماذا لا تبقي الفلسفة

أبدا..

- كانت الفلسفة تبحث عن الحقيقة في زمان كان قبل الأديان.. ولدت الفلسفة هنا وهناك في بلدان العالم لتقيّد شطحات الناس الحائرة.. لتوقف أو تحد من حيرة الناس..

جاءت الأديان بعد ذلك وأصبحت الفلسفة بعدها لا معنى ولا لزوم لها..

- إن الأديان لن تمنع الناس عن التفكير..

- إن كل الأديان السماوية إذهب إلى أي منها لتجد فيها جميعا حلا لمشكلات البشر في أي مكان في العالم.. تدّين يا صبري في مجتمع يتيح حرية الأديان.. إننا نريد مجتمعاً يتدين فيه الناس..

- أبداً إننا نقيّد الناس في معتقداتهم ونقتل من ترك دينه وذهب إلى دين آخر ونمنع الأديان والمعتقدات الأخرى من أن تقوم.. إنه لا دين بعد الأديان السماوية.. وعلينا أن نمنح وأن نطلق حرية العقيدة أكثر من ذلك طالما أنّها لا تمس ذات الله أو أي من الرسل.. دع الناس يعتقدون فإنهم جميعاً سيعودون إلى الدين الحقيقي.. فإذا انتقل الإنسان من دين إلى دين فلن ينقص من دينه شيئاً ولن يزيد الدين الذي انتقل إليه ديناً.. فلماذا نحارب ونقتل من انتقل من دين إلى آخر.. أتركوه فإنه في نهاية الأمر سيعود إلى الحق ومن لم يعد فالله جدير بحسابته.. الله هو الذي يعاقب.. ألا تدركون..

- إن الناس تدرك كل شيء حتى الجهلة منهم.. ولكننا فعلاً في حاجة إلى مزيد من الحرية في العقيدة وأن تكون حرية

حقيقية دون الإضرار بالناس والمجتمع وأن نمنع التعصب عند
الناس الذين يحاربون ويقتلون من يترك دينه..

- جهل الناس في كثير من أمور الدين والدنيا يجعلهم
يحاربون بعضهم دون أدنى داع ولا أعرف أي عقل في هؤلاء
الناس الذي يحاربون الناس في حرية عقيدتهم أو في حرية
ديناهم.. إن كثيرا من العادات والتقاليد وما اعتدنا عليه من
تعصب من قرن إلى قرن هي عادات أو تقاليد بالية، وكثير من
أمور العرف السائدة في مجتمعنا لا لزوم لها وإن كل هذه أمور
جهل وعجز توقف المجتمع الإنساني عن تقدمه.. فلماذا لا
ننطلق..

- إلى أين ننطلق؟.. وكل واحد منا له هدف ويحقق هدفه
بأي أسلوب فكيف تحتكر زراعة أو صناعة أو تجارة وأنت في
بلد فقير يحتكره الحرمان والحاجة في كل شيء.. اذهب إلى
الدول الغنية التي فيها النظام الرأسمالي بلغ قمته.. هناك قمة
العدالة والحرية والديمقراطية.. لا يوجد فقير أو عريان أو
محروم.. وإذا وجدت هؤلاء فهم الذين افقروا أنفسهم.. بمعنى
واحد غاوي فقر أو عري ويحب بيقة عاطل أو صايع أو يقلع
هدومه في الشارع.. هذا ليس من النظام ولكن من الأفراد

المرضى.. ومع ذلك ففي هذا المجتمع يعالجون مثل هذه الحالات
لأنهم يعتبرونها حالات نفسية أو مرضية..

- نحن هنا النظام هو الذي يصدر للناس الفقر جملة
وتفصيلاً.. لأنه في الأساس ليس نظاماً لكنه شكل ديكتوري
ورقي مملوء بالشعارات أقام نظامه على التزوير والزيغ وارتضى
لنفسه هذا فماذا تنتظرين من نظام أقيم على الكذب والتزوير..
تزيير إرادة شعب بأكمله.. بل شعب جرّده أولاً من إرادته..
ولن يكون نظام مثل هذا إلا وأقامه المفسدون لأن المفسد يبني
كل ما هو هش لأنه يسرق حقوق الآخرين علناً.. إنهم
يسلطون الخوف والقهر ويوزعون على الناس جملة وتجزئة
والناس العزل تم تجريدتهم من كل عوامل الحياة الإنسانية
الكريمة.. كان الناس من زمن قريب في غيبوبة ولكن الناس في
بلادنا الآن ماتوا.. وما زالوا يضربون الموتى..

- إننا للأسف يا صبري وصلنا إلى الطريق المسدود.. وماذا
بعد ذلك ..

- أنت شاركتيني شطحاتي وعدت فيلسوفة ..

- هذا أكبر آفة أن يتحول الناس إلى فلاسفة.. أقصد
يحكون ويحللون اذهب إلى أي مكان واذهب إلى دار الجاهل
والعالم تجدهم يتكلمون كلاماً واحداً فالوجع الآن لدى الجميع

والكل يصرخ ويستغيث ولكن هؤلاء جميعا يستغيثون
ويصرخون ويتكلمون وهم في مقابرهم والموتى لا يسمعهم
أحد ولكنهم يُسمعون أنفسهم.. صبري أرجوك كفاية.. تعالى
نتهي من تشطيطات الستر.. تعالى نذهب إلى محمود في
معتقله.. تعال نجّهز أسماء العاطلين في حيناً..

.. ولأننا لا بد لنا أن نعيش في الواقع ذهبنا في يوم إلى محمود
في معتقله وكالعادة حملت السيدة الكبيرة معها زادا يكفي كتيبة
بأكملها وكما دخلنا المعتقل مرات قبل هذه بالواسطة دخلناه
هذه المرة.. وفي هذه الزيارة كان رجاء محمود شديداً لأبيه
بالخلاص وكان الولد مرتبكا ولما قال له والده :

- لماذا ترتعش يداك يا بني.. إنني أراك مرتبكا .. أخاف أن
تصاب بالرعاش..

فراح الولد في بكاء شديد وراحت أم ماريانا وماريانا ترتبان
عليه وتبكيان معه حتى أسكتاه.. ولما هدا قال أبوه له:

- أرجوك يا بني هل هناك شيء.. هل تخفي عني أمراً..

- نعم يا أبي .. منذ مدة طلبوا مني أن أوقع على توبة ..

- ما معني أن توقع على توبة.. وتوبة على أي شيء
إقترفته..

- يا أبي اترك هذه الفلسفة الحائرة التي لن توصلنا إلى
شيء.. أنا أول إنسان يعرف على ماذا أتوب.. لم أزن ولم
أسرق ولم أنصب ولم أجاهد في سبيل الله.. ولم أحفظ قرآنا
ولم أشارك في إزدراء إخوتي المسيحيين أو أتعصب على شيء..
أنا مثلك يا أبي في فكرك .. أنا أول واحد أعرف أنني بريء
مثل لون الحليب ولكنهم لم يعجبهم أن أكون بريئا فلوثوا
الحليب.. كل هذا أعرفه يا أبي..

- خلاص يا بني خلاص الله يكرمك لقد قلت كل شيء..
قل ماذا فعلت بعد ذلك..

- جاءوا إلينا جميعا وركزوا في عرضهم هذا على الأطفال
والأبرياء على أن نمضي على تلك التوبة فوقعت ..

- يعني معني هذا إنك اعترفت ضمنا أنك ارتكبت شيئا..
لماذا تفعل هذا..

- يا أبي إنهم يعرفون أكثر مني ومنك أنني لم أفعل شيئا
البتة.. يا أبي الخلاصة أنهم قالوا لنا من يوقع على التوبة سوف
نفرج عنه وهذا إجراء أول..

فقالت السيدة الكبيرة

- خلاص يا صبري إنه يعرف أكثر منا.. وطالما هذا الإجراء ينجيه وماذا في أيدينا حتى نفعل.. إنا لا نعرف شيئا ولا ندري ماذا بعد ذلك.. ولكن دعنا نعتقد أن ما يعتقدده محمود أو ما فعله محمود صحيحا.. خلاص يا بني على بركة الله..

- يا أبي إني غريق دعني أتعلق في قشة ربما يكون منها إنقاذي..

- لكنني أسمع يا بني أن من يكتب توبة ويفرج عنه يصبح لهم مرشدا..

- قلت للضابط الذي يوقعني على التوبة نفس كلامك لأنني سمعت ذلك.. فقال الضابط لست أنت يا محمود الذي نستخدمه مرشدا.. فسكت وشعرت بشيء من الاطمئنان ووقعت..

وأمسكت ماريا بكف يده وقبّلته ورجته قائلة :

- بالله عليك يا محمود هل هناك شيء آخر..

- لن يكون هناك شيئاً إلا وأخبرتكم عنه.. لكنني أسمع أن كل من وقع على توبة سيرحلوه إلى معتقل وادي النظرون ولكن لا أحد يعرف الحقيقة..

- وادي النظرون أين وادي النظرون هذا يا محمود..

- تسألني عنها يا أبي وأنا لا أعرف حتى الألف مسكن القرية من بيتنا والتي كنت أتمنى أن أراها قبل اعتقالي..

وضحكت كل من السيدة الكبيرة وماريانا ثم قالت السيدة في رقة بالغة :

- عندما تخرج يا محمود لن ترى الألف مسكن فقط ولكنك سوف تأتينا وتقيم عندنا وتعرف حي حدائق الزيتون ..

- إنني أتمنى يا سيدتي الفاضلة أن أرى الشارع.. أي شارع وأمشي فيه حراً..

- سوف تخرج وترى الدنيا كلها.. واتركها على المولى يا حبيبي ..

وراحت تقبله من وجنتيه :

وامتعض والده وتبرمت شفتاه وطفق يقول :

- فرضا أنهم رحلوك إلى وادي النطرون هذا.. كيف لنا أن نعرف..

- سوف أبلغ أي زائر لزميل هناك أن يخبركم في التليفون بهذا الخبر.. وفي مثل هذه الحالات يقوم كل منا بإبلاغ كثير من الزائرين بأخبار الأهل بأي أخبار جديدة والزائرين حريصون على عمل ذلك لأنهم يعيشون نفس الظروف مع معتقلهم..

- والله لا أعرف كيف أذهب إلى هذا الوادي.. أين يقع وفي أي طريق..

- يا أبي من يسأل لا يتوه.. هذه ليست مشكلة.. المهم يا أبي ربما يكون هذا طريق فتح الأبواب..

- على الله يا محمود..

وهمست السيدة الكبيرة في أذنه :

- لو أعطيتك نقودا هل تستطيع أن تخفيها..

ضحك محمود وقال :

- لم تعد هذه مشكلة الآن.. يبدو أن رتبة من السجون قد وصي عليّ بالألا يفتشوا زنزانتني بشكل جيد.. لاحظ كل من معي ذلك وربطت هذا الأمر بالعميد الذي تدخلون بواسطته..

- الحمد لله يا بني.. خد.. خللي بالك.. خمسميت جنيه
هات اللّي نفسك فيه يا حبيبي..

إندفع محمود نحوها وقبّلها من وجهها واحتضنها فاحتضنته
بقوة وهي تقول :

- ليتني يا حبيبي أستطيع أن أفعل ما تتمناه.. وراحت
تتمنى وترفع كفيها إلى أعلى وتدعو ثم بادرت:

- كم ولدا معك ..

- خمسة ..

- خذ مثلهم وأعطي كل منهم مائة ..

- هذا كثير عليك يا سيدتي..

- يا بخت من قدر وعمل يا بني..

ودست في يده خمسة أخرى وهي جدم ممنونة وراحت
تقول :

- سوف تخرج.. وسوف ترى إبراهيم وحي الزيتون
وسوف يكون لك شأن كبير في إدارة السنتر.. إنك ابن من
ملا علينا البيت بالحب والحنان..

- من إبراهيم يا سيدتي ..

- إنه طفل صغير جميل سوف يكون لك سنداً..

- أين هو ولماذا لم تأتوا به..

- تركناه في حضانة أطفال إلى أن نعود إليه.. إنه شقي

ويكي كثير حتى لا نزعجك..

وكان كل من ماريانا وصبري يضحكان من كل قلبيهما..
ومضت دقائق أخرى وانتهت الزيارة وكان وداع محمود هذه
المرّة فيه الدموع قليلة لشعور الجميع بأن هناك بصيص أمل..

وفي اليوم التالي من زيارتي لمحمود كان عليّ أن أذهب مع
المهندس زكي شريف مدير أعمال السنتر إلى أحد موردي
الماكينات والعدد والأدوات الخاصة بمصنع الملابس، واليوم الذي
بعده إلى صاحب مصنع لتوريد وتجهيزات المكاتب وفي اليوم
الثالث إلى مصمم ديكورات السنتر والأرفف الخاصة بأقسام
البيع، ومرّت أيام فيها واتفقنا وتعاهدنا على كل التجهيزات
النهائية الخاصة بالأعمال في المشروع، ولسنا في حاجة لأن
ندخل في تفاصيل التجارة والأعمال والتنظيمات الخاصة
بالمشروع لأنها بتوفيق السماء تمت بالدقة المتناهية وساعدنا فيها
أناس كثيرون..

وشعرت وأنا أتحدث مع ماريانا أن أعظم الأعمال الإنسانية هي التي تضيف ناتجاً جديداً وتضيف إلى دخول الناس مورداً أساسياً، وفي النهاية يحصل المجتمع المدني على سلعة جديدة أو ابتكاراً جديداً، وأن أسوأ الأعمال هي أعمال السمسرة بكل أنواعها.. وأنه من أفضل ما يعمر أي مجتمع هو الإصلاح في أمور الاقتصاد والعمل من أجل الارتفاع بمستوى الناس.. ولما انتصفت ليلة الإنتهاء من كل أعمال المشروع وأصبح جاهزاً للبدء كانت ماريانا قلقة وكانت سماء القاهرة تمتليء بغيوم كثيرة لم يكن يلف ماريانا أية غيمة ولكنها كانت شديدة التوتر كأنها تشعر بصقيع يشمل كل أعضائها وكانت بحّة صوتها كنغمات تدب الحنين في قلبه ويشعر أن علاقته بها أبدية، وكان الفرح يفر من عينيه من كثرة سعادته بالإيجاز وأن علاقة الحب بينهما صنعت معجزة إنسانية أقامها الحب.. وكانت عندما تشعر بأي توتر تقول له ضمني.. يلف ذراعه حولها ويحتضنها ويتركها تقول.. كانت كأني امرأة تهذي عندما تشعر بسكرات الحب وتترك نفسها معه ولا تدري شيئاً إنها بين ذراعه تذوب ويأخذها دوار لذيذ لا ينتهي.. بين يديه وفي أحضانه تبدأ الحياة ولا تنتهي ولو كانت ستنتهي فإن نهايتها في أحضانه..

.. وجاء النوم في المهزيع الأخير من الليل وكان عليه أن يستيقظ ليذهب إلى الستّر ليرى بنفسه تجارب المكن والتركيب الأخير لها وتنظيم الخطوط.. وفي المساء بدأ يقابل الموظفين والموظفات الذي سيتم اختيار كل منهم في مكانه المناسب..

.. ومرّت أيام بعد ذلك فيها بدأت الأعمال في المصنع وفي كل أقسام البيع بعد الافتتاح الذي حضرته السيدة الكبيرة وماريانا وإبراهيم والتف حوله جميع المحاسين والمحاسبات الذين تم فصلهم من قبل وتم تعيينهم من جديد وجميع المشرفين والمديرين وكل من تمّ تعيينهم في أقسام البيع والمصنع.. كان حفلا جميلا أسعد الجميع وكانت الزهور والورود تملأ كل جنبات الأدوار.. وقبل الافتتاح كان صبري قد أرسل رسالة على المحمول يدعو فيها كامل جمعة وخالد وسامية وسميرة وفاتن ولم يحضر منهم جميعا إلا فاتن.. والتي همنست في أذنه وهي تنصرف قائلة :

- كلمني ضروري ..

.. وكانت سونيا بنت شبرا دائمة الاتصال به وكل أمانياتها أن تعمل معه في الستّر.. وتم تعيينها المديرية التنفيذية والسكرتيرة الخاصة.. وكان عليه أن يستقدم متخصص ليقوم

بتدريتها واستغرق ذلك أسبوعا بعده انطلقت سونيا في أعمال
الإدارة والسكرتارية الخاصة برئيس مجلس الإدارة بنجاح..

.. وفي يوم أرسلت فاتن رسالة لصبري تقول فيها :

- لماذا لم تكلمني إنه أمر هام..

.. وكنت أخاف على نفسي أن أعود للوراء أو يشدني أمر
امرأة من هؤلاء وفي نفس الوقت كنت أريد أن أعرف ماذا
تريد.. في حالة واحدة أرحب بأية واحدة منهن إذا أرادت أن
تعمل معنا وأن تتوب عن أعمالها..

و كنت أشعر بالخجل من أناس كثيرين كانوا يطلبون العمل
ولم تكن مؤهلاتهم تتناسب مع أعمالنا ومنع ذلك أخذت
بياناتهم كاملة ، وكانت تبعث أشياء عميقة في نفسي كأنها
شعاع يدفعني لأن أقوم بتعين المزيد في أول أعمال المشروع حتى
ولو أدى ذلك إلى سداد الرواتب لشهرين بدون عائد.. ولما
كنت أشعر بأي آلام أو أحزان كان جسد ماريانا الذي عاد
ثانية أحلى من عود القصب هو البحر الذي أغرف فيه
لأرتوي.. وكان إبراهيم ابن الوطن الذي يجمع نسيج البلاد
كلها في بيتنا.. قد بدأت خطواته تنهادى بين أحضاننا.. ورغم

أنني لا أجد أي صعوبة في مواجهة أي أمر من أمور الحياة فإنني كنت أحملهما كبيراً (لأرتال) كثيرة تملأ كل مكان من الناس تبحث عن العمل الشريف، إن الأزمة مزقت الناس من حولي ولا أعرف لماذا في هذا الوقت.. وبعد أن بدأ المشروع في باكورة أعماله شعرت بالناس أكثر.. ولقد كنت في أوقات عندما أشعر بالحيرة تملأني أمشي في الشوارع هائماً على وجهي وأنا أبكي، والغريب أنني كنت أهيم سيرا على قدمي في شوارع وحواري حي الزيتون فقط، فإذا ما اجتزتها إلى حي آخر فإنني لا أجد في رأسي أو في داخلي أي معنى أعيش به.. وكنت أندهش عندما أختلي بنفسي.. كيف هؤلاء النسوة اللاتي أصبحن أحرارا أن تعلن كلاماً واحداً :

- نريد أن نعيش أحرارا وجسدنا هو الذي سيحررنا من قيود الناس في بلادنا..

- نعرف أن هذه الحرية حرية رخيصة لكنها حرية لنغتنمها عن الناس..

- إن حريتنا ليست حرية سياسية تكفل لنا جميعاً العيش الكريم ولكنها حرية فردية..

- إن كل واحد في مجتمعنا قد رفع سكينته لمواجهة الغلاء
ولكي يعيش وماذا نرفع نحن النساء إذا كانت كل واحدة منا لا
تملك أي سلعة.

- كان علينا أن نحصل على القرش لناكل به وما كان لدينا
تملكه غير الفرج الذي نقدّمه كي تشبع بطوننا.. إذا فنحن
النساء اللائي رفعن أرجلهن لمن يريد.

.. سمعت بأذني كل هذه الكلمات من أبواق النساء وهمت
وبكيت وهمت على وجهي وتمزقت نفسي ولكن بدون حل..
هل أنا زعيم المنحرفات أدافع عنهن طواعية وهنّ قد فتحنها
على البحري.. وهل أنا زعيم الفقراء ولست منهم ولكني
أحبهم وأدافع عن حقوقهم وأشعر بأوجاعهم.. وماذا ينبغي
عليّ أن أفعل أليس لي أن استقل وأن أتفرغ لبيتي ولعملي
الجديد أم أنني أعشق التيه وأوجاع النساء إنه لا معني أن تكون
هناك بناية شاهقة وحولها الكهوف.. مدينة كبيرة لشعب
مكافح يقبع فيها الذل فوق أسطح السقوف والخوف في قلوب
أهلها فالفقر قد دخل كل بيت فيها بدرجات.. وهل يستطيع
الخائفون والمذلولون والفقراء أن ينفجروا فيترعوا هذه المدينة من
ضعفها..

إنني واحد أشبع وأرتدي الثياب وأسكن وحوالي آلاف
جوعى وعرايا.. وبيوتهم من صفيح.. ومضت أيام وجاءته فيها
رسائل من فاتن تدعوه فيها إلى أن يكلمها لأمر هام..
واضطربت أشياء في داخله تخوفاً أن يراها مرة ثانية في بيتها
بالمقابر.. إن هناك فرق كبير بين طريقها وطريقه فكيف
يكلمها؟ وتذكر أنه كان قد أوصاها بالبحث له عن رتبة تنقذ
ابنه من الذين تعرفهم بالداخلية، وبدأ تفكيره ينشغل برسائلها
الملحة رغم وجوده في عمل وانشغاله الشديد بالأعمال الجديدة
في المصنع والسنتر، وتحدث مع نفسه يسألها.. إنك في مأوى
جميل وظل ظليل ونهار تقضيه مع كل أسباب النجاح وسعادة
وصلت إليها بتشغيل هذا العدد الكبير من العاطلين.. ماذا
تريدين يا نفسي بعد.. إن كنت تبحثين عن امرأة أخرى جميلة
بجانب ماريانا فهذه هي سونيا ابنة شبرا بين يديك بدلالها
ورقتها وأنوئتها.. ماذا تريدين بعد يا نفسي بعد كل هذا الرخاء
من حوالي.. ولم أستطع أن أستقر في مكاني وأن أحمد الله على
الكفاية.. كنت أحمد الله وفي نفس الوقت تواق إلى معرفة ماذا
تريد هذه المرأة الداعرة.. وهل هي تطلبني لنفسها أم أنها
وصلت بالفعل إلى رتبة تستطيع إخراج ولدي من ظلامه..

.. وفي يوم تواعدا.. وفي أول المساء أخذته في عربتها إلى
نفس البيت، وفي الطريق كان يحدّق إليها فارغ العينين لأنه
كان يقاوم ولم يستطع كأنه وضع نفسه فريسة لرغبة دفينة في
داخل أعماقه، لكنه في نفس تلك الأعماق.. كيف لامرأة مثل
هذه تكسر كل هذا النجاح والحلال الذي ينعم به.. كانت
ناعمة رقيقة مهذبة كأنها ترتدي ثوبا آخر غير ثوب دعارتها
وظاعتها.. وهل تستطيع المرأة الأفعى أن تتغير.. تحت جلدها
ترقد الحبائث.. لكنه الآن في عربتها ويذهب معها إلى بيتها..
فهل يسقط في شباك امرأة تعاشر أكثر من عشرة رجال في
أوقات متتابعة.. جاءته مع الليل وهو في الليل ضعيف ينحرف
خلف عواطفه.. فهل يذبح نفسه.. كيف لرجل يدفعه الغنى
والرخاء والسعادة إلى أن يترك نفسه مع امرأة كهذه وهو الآن
ذاهب إلى بيتها.. لقد سقطت فاتن وسامية وسميرة من فقرهن
وكن في حاجة إلى المال ليعيشن فكيف لي أن أذهب إلى سقوط
صنعتة امرأة بعد فقرها وأسقط فيه وأنا الغني.. فكيف لا
أكتفي..

.. شعرت بحيرته فمدّت بأظافرها نحو وجهه تلامسه
وتداعبه كأنها فتاة عذراء شديدة العاطفة فبعثرت سيطرته في
تأملاته وضيقته عليه جسرا كان يحجز بينه وبين جسدها

وسقطت النار على الأجنحة وبدأ الوجع.. وأمسكت بكف
يدها لأبعده عن جسدي فطاوعتني وأمسكت بأناملها ركبتني
وضغطت على عظامها فقلت :

- يا مجنونة ..

- لن أتركك..

- لا تحاولي أن تقهري الجبل.. أرجوكي كوني رقيقة
وإنسانة..

- أنت تعرف قصتي لقد كنت إنسانة ومازلت ..

- إذا لا تطرحي معي رغبتك..

- إنني أذهب إلى الرجال بدون رغبة.. إنني في حاجة إلى
إشباع رغبتني معك..

- ليست بهذه الصراحة والمباشرة تبدي المرأة مشاعرها..
إهدأي واتركي فسحة لعقلك إن في الدنيا أشياء كثيرة جميلة
غير الرغبة..

- لماذا لا تتزوجيني..

- وكيف يكون زواجي بك..

- إن امرأة مثلك لن تتوب حتى تتزوج.. وإذا كنت أنا
اعرف قصتك وأنتك داعزة فكيف أتزوج بامرأة عاشرت مائة
رجل في عام واحد..

- لو كان عندك مباديء حقا تزوجني..

- فرضا وافقت على هذا الزواج فهل تتوبي..

- ليس مرة واحدة..

- يعني هذا أنني سوف أقوم بتسريحك.. يا لها من مصيبة..
أن أقوم بتسريحك فقط .. فأنا قواد وأن أقوم بتسريحك وأنا
زوجك.. يا لها من مهانة وحقارة.. وكيف يكون لي كل هذا
القدر من الانحطاط وأنا رجل لم أتعود مرة واحدة في حياتي أن
أزني وكنت دائما أذهب إلى الطهارة والفضيلة بالزواج لأحفظ
نفسي من نساء مثلك..

- إذا لا تدعي النبل والفضيلة.. إذا كنت تدعي أنك زعيم
الفقراء فهذا هراء..

- إن الكثير من الفقراء شرفاء.. إنك قبل أن تدعري لم
تكوني فقيرة.. كنت محتاجة واستسهلتي هذا الطريق.. الفقراء
في بلادي حقا معظمهم شرفاء رغم أن هناك كثيرات يمتهن
تلك المهنة لكن في خجل وليس بهذا الانحطاط وبعضهن على

حافة الانتحار.. من هذه الجرائم التي إرتكبتها في حق
أنفسهن..

- أعتقد كفى.. أدخل معي لأحكي لك عما يحدث في
بيتنا..

.. ودخلت معها البيت وتركتني جالسا على المقعد وتدارت
خلف ستارة يقع خلفها دولاب ملابسها.. خلعت حذائي
ورحت أرقب خيالها المثير.. ولما عبقت رائحة العطر تلك الغرفة
كانت قد أغرقت كل مكان في جسدها رائحته النافذة المثيرة..
خرجت إليه وأقسمت أن تصارعه.. ترتدي شورتا من الساتان
وقميصا حريريا قصيرا وسوتيان صغير ينفذ منه ثدييها.. ولم
يستطع أن يثنيها من أن تجلس في حجره وتركها وأمسكها
بذراعه من كتفها وقال وهو يحاول أن يسيطر على نفسه
ويأخذ منها الإجابة على سؤاله:

- هل تحدثت مع أي رتبة تعرفينها عن كيفية إنقاذ ابني..

- اللواء الذي يعمل في مصلحة السجون ليس له سكة في
ذلك.. حيث أخبرني بأنه سحان كبير فقط ولا يستطيع أن
يتدخل في مثل هذه المواضيع ولا يتدخل فيها حتى لا يؤثر ذلك
على وظيفته المرموقة في هذه المصلحة وأنه يريد أن يستمر
سنوات في هذه الدرجة ويخرج وهو نظيف كالحليب..

- هذا جميل بارك الله فيهم.. وهل هناك رتبة أخرى..

- الرتبة الثانية هو مأمور أحد الأقسام برتبة عميد..
وأخبرني بأنه لا يتدخل في هذه المواضيع وأنه ينتظر ترقيته إلى
لواء..

- هذا جميل.. من حق هؤلاء أن يختاروا مصلحةهم فقط..
إنهم جميعا يتخلّون عن مساعدة الآخرين حتى ولو كانوا
أبرياء.. هذا هو الحال وهذه هي الدنيا من حولي وهذا ما آل
إليه حال إبني..

- وماذا تظن في هؤلاء إنهم موظفون يريدون أن يعيشوا
ليس إلا وإذا خدمك أحد منهم فلا بد من مصلحة وليست
هناك إنسانية بينهم فكيف يقدمون أي إنسانية للآخرين..

.. ومضت دقائق أخرى فيها سكت كل منا وشعرت بخيبة
الجميع في بلادي وأن كل فرد فيها دولة مستقلة وأنه لا يمكن
توحيد هؤلاء الناس بسهولة.. وقامت من حجره لتفتح الباب
للحارس والذي أتاها بالطعام والحشيش..

.. قفلت الباب بإحكام وراحت تلف بأصابعها عدة
سجائر تحشوها بمفروم الحشيش..

.. وتناولوا الطعام وشرب معها الحشيش ليحاربها لشيء
خطط له في نفسه ومرّ كثير من الوقت فيه دخّنت ثلاث
سجائر ونثر في وجهها دخان سيجارة واحدة.. وسكنت عن
الكلام وأيقن بأنها سطلت من تغلغل الدخان في رأسها..
إمتدت في فراشها عارية تتمم بكلمات تدعوه فيها بأن
يقرب.. كلمات هامسة ودموع تغسل وجهها من شدة
الرغبة.. شوق عنيف ينتظر.. يرتجف.. يدعو.. وأمسكت
بوجهه تشده إليها ليدعها قبلة لا تنتهي ولكنها لا تقدر أن
تجعله يشعر بكل ما تريده الآن وهو يفكر في شيء آخر بعيدا
عن تلك اللحظة.. لكنها كانت تنطوي على فراشها كالفراشة
المنكسرة الجناح لأن الفارس لا ينطوي فوقها..

.. بدأت غيبوبة الحشيش تأخذها بعيدا عن الوعي.. توقفت
عينها أن ترى وجهه الحزين.. وقبل أن تغيب تماما قالت تناجيه
في صوت خفيض :

- خذني.. أنا لك.. هذا كلّ لك.. ألا تراني..

- إنني أراك.. أنت امرأة مثيرة جدا.. دعيني أتأملك أولا ..
إنني لم أجتاوز تأملي بعد.. إنك عالم مثير.. لكنني أكره هذا
العالم..

- اكره كل هذا العالم واكرهني بعد هذه الليلة إنني
أريدك.. افعل ما شئت.. هذه الليلة ليلتي معك.. وهذه رغبتى..
- إنك لن تخسري شيئا لأنك تدعري معي كما تدعري مع
الآخرين..

- وهل هناك فلسفة وأنت ترى كل جسدي هذا.. هل
أنت ناقص الرجولة..

- لا يهمني أنني ناقص معك.. وكل ما يهمني الآن أن
أذهب إلى بيتي..

- أنت رجل بلغت كثيرا من سفالة لم أصادفها من قبل..
- تحيا هذه السفالة خير لي من إنحطاط امرأة تعتقد أنها
بجسدها الهائل تحصل على كل رغباتها..

- إذا فعليك أن تذهب إنك أحط من قابلت ..

- إنني سوف أذهب بإرادتي.. ولن أخسر جمال حياتي
وحلالها الذي لن تعرفه أبدا..

- إذهب .. واترك الباب مفتوحا.. أرجوك قبل أن تذهب
نادي الخفير وأدخله هنا.

- وأنت عارية..

- أرجوك إنني في حاجة الآن إلى أي رجل.. وكلمما
احتجته دعوته في ليال كنت أتعذب فيها..

- هذا شيء تعودت عليه..

- وماذا في الأمر من غرابة..

.. كان يريد أن يبصق في وجهها لكنه خرج في صمت..

وترك الباب مفتوحا بغية أن يدخل إليها ذئب من ذئاب القبور
يفتك بها.

تمت

٢٠٠٩/١٢/٢٥

نبذة عن الكاتب

- ١ - عضو اتحاد الكتاب من عام ١٩٩١ / عضوية رقم
١١٧٢
 - ٢ - عضو نادي القصة ..
- الروايات التي صدرت للكاتب :
- ١ - المرأة وآلهة الحب.
 - ٢ - السطح الأملس / فازت بجائزة نادي القصة عام
١٩٨٦
 - ٣ - المدينة الحافية / فازت بالجائزة الأولى لنادي القصة
عام ١٩٩٢
 - ٤ - قصور العبيد / فازت بجائزة مسابقة نجيب محفوظ
للرواية في مصر والعالم العربي من المجلس الأعلى للثقافة عام
١٩٩٧
 - ٥ - نساء وجياد
 - ٦ - العجرية
 - ٧ - ساقطة محترمة
- المهنة : محاسب

الوظيفة : مدير مالي شركة مساهمة

خريج كلية التجارة وإدارة الأعمال بالزمالك عام ١٩٧٠.

للتواصل مع الكاتب :

٠١٠ / ٨٨٣٧٨٥٩

